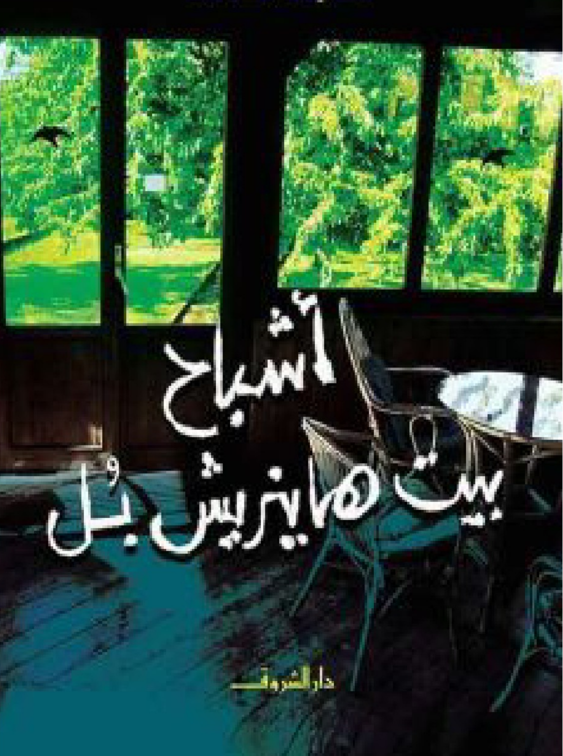
علاء خالد





الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

أشباح

بيت هاينريش بل

أشباح بيت هاينريش بُل

علاء خالد

الطبعة الأولى ٢٠١٨

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقم الإيداع ٢٩٤٤١/ ٢٠١٧
ISBN 978-977-09-3461-6

تصميم الغلاف : هاني صالح

علاء خالد

أشباح بيت هاينريش بُل

دار الشروق

السفر

ـ خللي بالِك من نفسِك.
ـ إنتَ اللي خللي بالك من نفسَك وبلاش شقاوة.
ـ هتوحشيني يا سوسو.
ـ يللا يا بكاش، دي مش أول مرة تسافر لوحدك.
ـ بس دي أول مرة أسافر المدة دي كلها. وأسيبك في الظروف دي.
ـ بس المهم إنك تلاقي الجو المناسب عشان تكتب.
ـ الفترة اللي فاتت كانت مشحونة بكل حاجة، مظاهرات وناس وموت وتفاصيل كتيرة. حسيت إني متشبع خلاص.
ـ أمال «الثورة» بتكون مشحونة بإيه غير كده؟
ـ لحد دلوقتي بستغرب كلمة «ثورة» في وداني.
ـ مش مهم الكلمة، المهم يكون فيه حاجة حقيقية بتحصل.
ـ بس إنتِ الثورة غيَّرتك خالص يا سوسو، خلِّت صوتك يعلا من غير ما يكون زعلان، أو يكون فيه دموع.
ـ وإنت عملت فيك إيه إنشالله، صوتك وإنت بتهتف في المظاهرات كان مليان دموع.
ـ يا سلام، بجد؟ ماخدتش بالي!!
ـ ماكانش فيه حد واخد باله من نفسه. يللا قوم بقى، «البوردينج» فتح، تلحق تدخل شنطك في الأول.

- بحبك يا سوسو...

- دي الكلمة اللي بسمعها بس وأنت مسافر.

- «حبيبتي السفر يحولنا جميعا إلى ورود».

- دي بداية قصيدة جديدة؟

- لأ، دي الحقيقة.

* * *

تأخر سفري أربعة أيام لتلك المنحة التي جاءتني من مؤسسة هاينريش بُل لإقامة أدبية طويلة مدتها أربعة شهور في إحدى القرى الألمانية. والسبب كان حضوري الاحتفال بعيد ميلادي الخمسين. هذا الرقم المصمت الذي من الصعب أن أتمه في مكان آخر، غير المكان الذي ولدت به. في ذلك الوقت دخلت «الثورة» مرحلة الثرثرة وتفرعت في مسارات جانبية غير متوقعة، أشعرتني تمامًا بالإرهاق النفسي، وجعلتني أقبل بدون تردد هذه المنحة الأدبية، والتي قمت بتأجيلها عدة مرات من قبل بسبب تأجج أحداث الثورة.

لم أترك لزوجتي فرصة الاختيار أو حتى مناقشة القرار معها. عادة كنت أشركها في أي قرار من هذا النوع. أما هذه المرة فقد شعرت بأنه قرار يخصني وحدي. كنت أشعر بأنها فرصة أخيرة يجب ألا أضيعها وأنا أضع قدمي في نصف قرن جديد لن أكمله. وطاوعتني زوجتي وسارت مع رغبتي، وربما كانت ترى أيضًا نصف الكوب الفارغ من العمر الذي بدأت أول خطوة فيه. بالطبع لم يمر القرار عليها بهذه السهولة، ولكنها نجحت في أن تمنع وصول هذه التوترات على سطح حياتنا اليومية المكتظة بتفاصيل وأحداث شتى.

وجدت الوقت مناسبا للهرب، وبصحبتي هذا الرقم الماراثوني في رحلة حياتي. صحبت معي أيضًا تلك الأجندة السوداء المصنوعة من الورق اليدوي التي صنعتها زوجتي يدويا، والتي كنت أدون بها: ملاحظات، حكايات، مواقف، مشاهد، تأملات في أثناء مسيرات الثورة في القاهرة والإسكندرية. أحاول أن أسجل بها تلك الرموز والإشارات التي تفجرت بدون سابق إنذار، وتناثر لحمها في فضاء المسيرات والمظاهرات والاحتجاجات.

وكنت قبل سفري قد اتفقت مع إحدى الجرائد المصرية، التي يعمل بها ناصر صديقي مشرفا على مقالات الرأي، والذي طلب مني ذلك أكثر من مرة ـ وقد جاءت الفرصة لألبي طلبه ـ بأن أقوم بكتابة عمود أسبوعي. ربما هذا العمود يعوض قليلا إحساسي بالغياب والانقطاع عمّا يحدث في مصر.

* * *

كان آخر شيء وضعته زوجتي في حقيبة يدي الجلدية، كوفيتها الكشمير، ذات اللونين الأحمر والأسود. لم ترد أن تودعني عند دخولي صالة الجوازات، ربما كانت تسمو على اللحظة، كأن السفر جزء طبيعي من تيار الزمن الذي يتخلل حياتنا العادية. ولكن كنت أعلم تمامًا، وأنا في طريقي لصالة الجوازات، في تلك اللحظة التي أعطتني فيها ظهرها، بأنها كانت تحتضن روحي بقوة، وأن تيار الزمن هذا سيتحول بعد لحظات إلى دموع صافية.

١

في اليوم الثالث (٧/ ٤/ ٢٠١١) لوصولي تلك القرية الألمانية الصغيرة، خرجت مع «زوفنكو» الشاعر الصربي وزميلي في المنحة. يعيش في بلجراد على بقايا ثورة وتقسيم ليوغسلافيا القديمة. في الثانية والخمسين من عمره وله بشرة قمحية وشعر أسود كثيف منسدل على جبهته، فاحم السواد، بسبب الجذور التركية التي امتدت في عائلته منذ فترات الاحتلال الطويلة. لا توجد به شعرة بيضاء واحدة، ولا أثر فيه لحواف رمادية، أو حمراء، أثر استخدامه الصبغة. له زوجة تعمل طبيبة أسنان وبنتان في سن المراهقة. وجدته يخبِّط على بابي عصرا ويعرِّفني بنفسه، ويستأذن ليشرب معي القهوة، لف خلالهما سيجارتين يدويا بدون الاستعانة بماكينة اللف، مد يده بواحدة ناحيتي، وأشعل الأخرى، ثم عرض عليّ السير حول البيت.

الأيام السابقة، منذ وصولي، كانت مخصصة للتعايش الصامت مع كل الأصوات التي تحوط بالبيت: الطيور، وصهيل أحصنة في المساء، نباح كلاب من بعيد، أصوات فتح وإغلاق أبواب إستديوهات زملائي الكتاب، التي تحوط بشقتي، وأصوات الشوارع الهادئة من حولنا، وأصوات إطارات العربات وأنواعها المختلفة التي تضغط بقوة على الإسفلت الناعم. كنت مكموشا في البيت ليومين، وجدت خزينا في الثلاجة مجهزا من إدارة المنحة: جبن وحليب وعيش ومربى وعسل

وبيض وزبدة وزجاجة زيت زيتون. لم أحتج للخروج، ولم أسمح لأحد بأن يراني من الخارج، كأني سلعة مغلّفة، فأسدلت كل الستائر على الشبابيك الزجاجية.. حتى شباك الحمام في الطابق العلوي أسدلت عليه الستارة البيضاء ذات الحواف المشغولة.

في اليوم الأول لوصولي سمعت صيحات واحد من زملائي الكتاب ينادي في الخارج «بارتي.. بارتي». لم أعبأ بالنداء، وتركته كأنه لا يعنيني، بالرغم من أنه كان موجها لي، كما سأتأكد فيما بعد.

كنت ما زلت أقف في المنطقة الوسطى بين مصر وألمانيا، ولم أصل بعد، حتى بعد وصولي من المطار في كولون للبيت في قرية لانجنبوريخ، حيث البيت الصيفي للكاتب الألماني الشهير «هاينريش بُل»، الذي وهبه لإقامة الكتاب المضطهدين من كل أنحاء العالم؛ حيث رافقتني مسئولة المنحة. كانت أصوات الثورة في مصر وهتافاتها ما زالتا تدويان في أذني، مع صدى بعيد لإحساس، ربما هو غير حقيقي، ولكنه موجود ويعلن عن نفسه باستمرار؛ بأني تركت الثورة وزوجتي في مصر، وذهبت لأكتب عنهما من مكان آخر أكثر أمنا وهدوءا!

تقع القرية بالقرب من مدينة دورن، التي يبلغ عدد سكانها حوالي ٩٠ ألف نسمة، وهي أقرب مدينة كبيرة للقرية، التي تقع بدورها بين مدينتي آخن وكولون في غربي ألمانيا، والأخيرة تعتبر أقرب مدينة مليونية قريبة من قريتي، وتطل على نهر الرور وهو من أهم الأنهار هنا ويسمونه «النهر الأب». كثافات سكانية قليلة للغاية على مساحة أراض شاسعة. هناك رضا تام بالمساحة والفضاء والوحدة

داخل الطبيعة. أناس قليلون يحوطهم إطار مذهب اسمه فضاء أو غابة أو مدينة أو مقاطعة أو مركز.. إلى آخر تلك المسميات الإدارية والجغرافية. الاثنان: الإطار والناس، يتبادلان العواطف والمهام. الإطار المذهَّب يمنحهم الأمان النفسي والبريق، وهم يقومون بدورهم بحراسة هذا الإطار، ولا يتركون هذه المساحات الشاسعة للوحشة والأشباح.

وصلت البيت مساء بعد تعقيدات في الدخول، ولولا وجود هذه المسئولة في انتظاري لكنت رجعت على أول طائرة إلى مصر. كانت إقامتي تمتد لمدة أربعة أشهر، بينما مدة التأشيرة التي حصلت عليها من السفارة في القاهرة لثلاثة أشهر فقط، وهو الحد الأقصى المسموح به، وهو ما سبب تشوشا لضابط الجوازات في مطار كولون. كان الاتفاق مع المسئولة عبر الإيميلات قبل وصولي بأنها ستجدد الفيزا، بمجرد وصولي، لمدة شهر آخر.

طوال الطريق للبيت حاولت زيجرون، المسئولة عن إقامتي، أن تخفِّف عني حرج التوقف في المطار، ليس فقط كونها تعرف حساسية الكتاب والفنانين أمام القيود والحواجز، ولكن لأنها هي أيضًا جاءت ألمانيا مُهرَّبة في بطن سيدة مهاجرة مع عائلتها من المجر في بداية الستينيات. وقد عبرت العائلة حواجز عديدة حتى تصل ويكون لها بيت وحياة مستقرة.

كنت أتنقل في البيت بحذر كأني أعمل حسابا لأرواح كتاب آخرين ما زالوا يسكنون هذا البيت، ولم يرحلوا أو يغادروا بعد. كان أحدهم يشاركني كل خطوة في الصعود والنزول على السلالم للطابق

الثاني. أيضًا أحسست به وأنا أمام الشاشة المضيئة للكمبيوتر، وأنا أتفقد غرف البيت واحدة واحدة، وألمس بقدمي الحافية دفء أرضيته المصنوعة من مربعات غير منتظمة من الصخور السوداء، أو وأنا أرفع مفتاح تدفئة البيت المركزية، بجوار باب الدخول، كون جسدي يشعر بحساسية للبرد مختلفة عن حساسية هذا الرفيق الخفي للبرد.

كان همِّي الأول عندما وصلت أن أتآلف مع البيت الذي سأقضي فيه أربعة أشهر، ولا أشعر بالملل بين جنباته. البيت جميل، وهو أحد الأماكن التي كتب فيها الروائي الألماني هاينريش بُل، الحاصل على جائزة نوبل في الآداب، رواياته. وكان يسكنه من قبل مزارع وزوجته، لم يكن لهما أولاد، فاشتراه هاينريش بُل عندما كبرا وذهبا للإقامة في بيت المسنين، لذا لم يشهد البيت موتهما، ولكنه شهد موت الكاتب صاحب نوبل.

الطابق الأرضي به مطبخ وصالة للطعام، وإلى اليمين منهما باب يصل لغرفة جلوس كبيرة كنت أستخدمها للكتابة. في نهاية صالة الطعام هناك غرفة نوم صغيرة يطل شباكها على أحد إستديوهات الإقامة لكاتب آخر. بين صالتي الكتابة والطعام هناك سلم خشبي يصل للطابق الثاني الذي ينتهي بعلِّية كالبيوت القديمة في ألمانيا، ويتضمن غرفة صغيرة أخرى بها شباكان، أحدهما كبير يطل على ساحة البيت والثاني صغير يطل على البيت المجاور، تقع خلفه شجرة لها أزهار بيضاء. عند أول دخول لي للغرفة تخيلت نفسي أكتب وأمامي هذه الشجرة وأزهارها البيضاء التي تشبة الثلج المندوف. الجو ليس قارص البرودة، فما زلنا في أوائل شهر إبريل، لذا أحسست أن هذه الشجرة بأزهارها التي تشبه الثلج المندوف هي المشهد الذي

أحتفظ به بشتاء ألمانيا الثلجي، تتخيل وراءه ساحات بيضاء يتزلج عليها الأطفال. ثم تأتي الغرفة الأخرى التي اتخذتها مكانا للنوم، لأن بها طاقة زجاجية في السقف تأتي بالشمس، إن سطعت على وجهي في الصباح، فأستيقظ بدون الحاجة لاستخدام المنبه. ثم حمام صغير، له شباك صغير، مثل طاقة تأمل، يطل أيضًا على ساحة البيت والبيوت المجاورة له، ولكن من موقعي وأنا جالس على قاعدة الكابينيه لا أرى سوى الذؤابات اللامعة لأشجار إحدى الغابات التي تحوط بالبيت.

استغرقتْ التمشية مع زوفنكو حول البيت حوالي ساعة وعشر دقائق. كان مركزنا برج الكنيسة المجاورة للبيت، وهو أعلى علامة يمكن أن نهتدي بها للبيت لو تهنا، كما أخبرني زوفنكو. كان يضع لي علامات ورموزا في خريطة إقامتي وسيري وتيهي هناك منذ اليوم الأول، وستتكاثر طوال فترة إقامتنا معا.

أثناء سيرنا في القرية مررنا على بيوت تقف أمامها عربات حديثة من طرازات غالية الثمن: بي إم دبليو، مرسيدس، أودي، وعربات دفع رباعي. قال زوفنكو بأن هذا الريف مخصص للأغنياء فقط، وهذا حقيقي، فكل القرية من الأغنياء الذين يبلغ تعدادهم حوالي ألف نسمة على الأكثر. هناك أراض شاسعة خضراء لتربية الخيول، ولكن ليس هناك بيوت للفلاحين في هذا الريف النخبوي. ربما الفلاح الوحيد الذي رأيته هناك ذلك الرجل الذي تعدى السبعين والذي يسكن في بيت قريب منا، والذي بِقدمه وطرازه وبساطته صار أحد آثار القرية غير الرسمية، وصار الرجل نفسه أحد الآثار على نموذج الفلاح المندثر منذ عدة عقود. كان العجوز يأتي صباحا للبيت الذي

نسكن فيه ويدخل من الباب الخشبي الكبير بصحبة كلبه الأبيض، ليملأ جردلين بلاستيكيين بثمار شجرة الكرز التي عاصرتُ فترة إثمارها بتلك اللآلئ الحمراء الدموية والمضيئة من داخلها. حاولت مرة أن أداعب الكلب فزام في وجهي لأني اقتربت من صديقه الفلاح، أو ربما ليحذرني أيضًا لأني اعتقدت بأنني صديق له.

مررنا أيضًا بأراضٍ خضراء مزروعة، ستكتسي بأعواد القمح بعدها بشهور قليلة. استرحنا على حوافها في أحد المقاعد الخشبية الجميلة، التي لها شكل قطعة نحتية، خُصصت لأوقات الراحة، وأمامها مائدة خشبية ثخينة، يتناول عليها أصحاب الحقل والعابرون الطعام، تظهر عليها آثار خطوط سوداء أثر استخدام المياه. بدأ زوفنكو بسؤالي بشكل عابر وسريع عن الثورة المصرية، ولم ينتظر الرد، ربما لأنه يعرفه! مما حدا به أن ينتقل للحديث مباشرة عن ثورة صربيا السلمية التي قامت ضد حكم سلوبودان ميلوسيفيتش الديكتاتوري عام ٢٠٠٠، والتي كانت بالنسبة إليه، وأي ثورة أخرى، ستشكل نكسة وارتدادا في مستقبلها وعودة للحكم القديم.

شرحت له الوضع في مصر، حسب تجربتي القصيرة، وخروجي من مصر بعد ثلاثة شهور من بدايتها. كان متعجبا بأني أحكي بسرد متفائل وبصوت مشحون عمّا حدث، وأسرد أمامه الحكايات والمواقف المبهرة التي شاهدتها بعيني أو سمعت عنها، والتي لها شكل روائي مؤثر. فجرت الثورة إحساسا روائيا لدى الجميع. حكيت له أيضًا عن الأوضاع المتوقعة بعد الثورة.

كان «زوفنكو» يتكلم بلسان هادئ حكيم يرى المستقبل. وحكى

لي بأنه في صربيا، بعد استبعاد الشيوعيين وحلول الديمقراطيين، لفترة من الزمن؛ عاد الشيوعيون لزمام الحكم مرة أخرى، واستعادوا مجدهم القديم، مع تبنِّيهم لشعارات اليمين الديمقراطي. الكفَّة، على حد قوله، متأرجحة الآن بين الاثنين.

الشيء الصادم بالنسبة لي تشكيك زوفنكو في التغيير الحقيقي الذي حدث في صربيا، فقد عادت النزعة الفردية والأنانية لتطل من جديد بعد عشر سنوات من المسيرات الجماعية في الشوارع، كما قال. كان هذا الإحساس الجماعي هو الذي سافرت به من مصر وحملت صوره وفيديوهاته معي، وأثمن شيء يمكن أن يبقى في ذاكرتي في السفر، وهو الصورة الرئيسية التي صنعتها الثورة. فمعنى أن أشكك فيها يعني أنه لم يبق شيء سوى التضحيات والموت والاستشهاد، ولا يمكن لثورة أن تعيش فقط على الموت. هل يعني أن هذه الصورة الجماعية التي تحتل خيالي ستصفّى في النهاية على فرد واحد يسير فيها، هو أنا أو أنت أو هو؟ كان سرد زوفنكو يسلط إضاءة المسرح القوية على هذا «الفرد» الذي يسير حائرا بعيدا عن الجموع.

أكملنا سيرنا في المربع الملاصق الذي اخترناه للسير حول البيت. قابلنا في طريقنا جراجا قديما يشبه الهنجر، مخصصا لتصليح العربات: الحوائط من الحجر الصخري غير المنتظم وله سقف من الجمالون مائل من الناحيتين. مسنود على أحد حوائطه أسطوانة، قطرها متر تقريبا، من قطع الأخشاب التي يخزنونها لدفَّايات الشتاء. كانت أصوات الموسيقى تنبعث من داخل البيت الملاصق للجراج والمطل على هذا المنحنى المُعشب كثيف الأشجار، والذي سيكون

ممرا مميزا لي في جولاتي اليومية. دائمًا كانت الموسيقى تسكن هذا المنحنى في الآحاد.

داخل هذا المنحنى المُعشب كثيف الأشجار صادفنا رجلا في نهايات العقد السادس أو بدايات السابع، يحتضن سيدة في العقد الخامس حضنا رصينا، وبالقرب منهما ثنائي آخر جالسان في حالة انسجام على الرصيف المواجه للبيت وحولهما ظليلة من الأعشاب. فوجئوا بنا، فربما لم يتوقعوا مرور أحد في هذه القرية صغيرة العدد. انتفضت السيدة وتركت حضن الرجل ذي الشعر الأبيض المعقوص كذيل حصان، والذي سأعرف فيما بعد بأنه صاحب هذا الجراج المخصص لتصليح العربات القديمة.

سألنا الرجل، وكأنه يعرف الإجابة: هل أنتم من «بيت هاينريش بُل»؟ أو «بُل هاوس» كما يختصرونه هنا. أجبنا بالإيجاب. يبدو أن نزلاء البيت من الكتاب هم فقط الغرباء عن هذه القرية الساكنة التي لا تعرف الغريب. سألته بدوري لأطيل زمن الكلام، كيف عرفت؟ قال أنكما تتحدثان الإنجليزية، ولكما سحنة غير أوربية. نظر لي وسألني من أين؟ قلت له من مصر. رد سريعا: لقد قمتم بعمل عظيم، لقد أسقطتم الديكتاتور. ثم تحسَّر قليلا وأخذ نفسا عميقا هادئا، مر من بين أزرار القميص المفتوح والشعيرات البيضاء الفضية التي تملأ صدره. وكيف الوضع في مصر الآن؟ سألني. طمأنته، فقد كنت أتكلم وقتها بلسان الأمل. لاحظت ملاحظة سريعة، أن زوفنكو شعر ببعض الضيق كون الرجل لم يلحظ أوربيَّته، حتى ولو تخفَّت تحت ملامح شرقية. ودعنا الجميع بإيماءة سريعة، كي نترك لهم الفرصة للاختلاء مرة أخرى، والعودة للوضع الحميم الذي كانا عليه منذ قليل.

قال لي زوفنكو، بدون أن أسأله، واصفا الرجل؛ إنه من «الهيبز» الذين تجدهم منتشرين في كل أوربا، ما زال يعيش حياة الصعلكة، ثم أضاف شارحا: يدعوك للشراب والتدخين والحديث حول أي شيء، أي شيء. بالفعل منظر الرجلين والسيدتين به شيء مرتجل وقديم قليلا ومختلف عن وقار وتحفظ من في مثل سنهما، وأيضًا وقار وتحفظ القرية وأهلها، ولكن بعد أن أبيضت الشعور، وغاب زمن الصعلكة كأنهما يعيشان صعلوكين على المعاش، وربما لهذا السبب يسكنان القرى البعيدة عن ضوضاء المدينة الحديثة ليواريا هذا القِدم وآثار هذه الصعلكة المندثرة.

استمررنا في السير حتى وصلنا للكنيسة التي تقع بالقرب من البيت. تلك الكنيسة المهجورة التي لم أر بها أي زائر طوال آحاد شهور الإقامة، ربما كنت زائرها الوحيد مع زوفنكو عندما دخلنا كسائحين. فزوفنكو لا يؤمن بوجود إله، وأنا إلهي يظهر ويختفي ويأخذ أشكالا عديدة، ويتحول أيضًا، مثل إله سيدنا إبراهيم الذي بدأ شكه ومعرفته به من الصفر، من النار، للماء، للشمس، حتى اكتشف عناصر الكون التي تحمل جزءا رمزيا منه، حتى وصل إلى الإله المجرد الذي يقف وراء كل هذه المخلوقات والرموز والعلامات.

مررنا بمراع للخيول، وخضرة كاسحة، ودخان مصانع من بعيد يخرج من فوهات كبيرة، وأزهار بكل الألوان من البنفسجي للأصفر للأحمر، وحقول قمح مهولة كانت في بداية إنباتها، وجواميس وأبقار وخرفان تتدحرج على تلال خضراء صعودا وهبوطا وتهتز معها الأجراس المعلقة برقابها أو تلك العلامات البلاستيكية على آذانها، أو الأقماع التي تسد حلماتها لتمنع تسريب اللبن. ثم دخلنا في

أنفاق تجري من فوقها الطرق السريعة التي تربط هذه القرية الصغيرة بمركز تجاري أو صناعي بعيد. كأنك تسير في لوحات أحد الرسامين التعبيريين، التي قلّما وجد بها إنسان، ومخصصة فقط للطبيعة. كان الإنسان يقف خلف اللوحة أو أمامها، مبهورا من المشهد الذي يراه أمامه. في تلك اللحظة كنت ذلك الرسام التعبيري ولكني أضفت للمشهد أبراج المصانع التي يتصاعد منها الدخان الأبيض الذي ينذر بالحرب القادمة ضد الطبيعة.

خلال هذه الجولة الطويلة لم نقابل إلا القليلين في طريقنا، تلك السيدة التي تسير بكلبين زاما علينا، ثم رجل وسيدة مسنان جالسان خلف زجاج بيتهما القديم والجميل يتناولان بهدوء طعام العشاء، فقد كانت الساعة حوالي السابعة، كأنه العشاء الأخير. سيتكرر هذا المشهد كثيرا وبنفس الايقاع، كأنهما في لوحة خرج منها الزمن. ثم رجلان يجلسان على كنبة بفراندة البيت ألقينا عليهما السلام، بالإضافة لبضعة أشباح من بعيد. هذا نصيبنا من الألف نسمة، والذي لن يزيد بأي حال من الأحوال خلال الشهور القادمة بل سيتناقص بسبب مواسم الأمطار المستمرة. تضاف الأشباح، في هذا المكان النائي قليل السكان إلى قائمة الذين يمكن أن تصادفهم كل يوم، ربما لن ترى وجوههم، ولكن ستسمع ذبذبات أصواتهم، وحركة أرواحهم، أو ربما ترى ظلالهم وسط هذه المساحات الخضراء الممتدة. ومنها تلك الهياكل الآدمية للجزء العلوي من الجسم المصنوعة من الخشب، والتي كانت تعلق بين الأشجار، كخيال المآتة، لطرد الطيور عنها.

صباح الخير يا ناصر. أتمنى تكون بخير وسط ما يحدث.
مرفق عمود الغد بعنوان «الكهرباء المجنونة» بصيغة «Word»..
تحياتي..

الكهرباء المجنونة

الثورة خلقت نوعا جديدا من الطاقة، كهرباء مجنونة، ليست طاقة الحماسة، أو طاقة الفرح، أو طاقة التفاؤل، وإنما طاقة خالصة، يمكن أن تضيء أو أن تحرق. كأن هناك مصدرا كبيرا للطاقة انفجر، ولا يمكن أن تحدد نصيب كل منا منه، ولا حجم تأثيره. هذا المصدر أزاح كل خاصية إنسانية لحدها الأقصى، الصوت، الحركة، النظر، المذاق، الجوع.

رأيت أحد الشباب، في ساحة محطة سيدي جابر، كنا وقتها أنا وزوجتي في الإسكندرية؛ من الذين أصابتهم هذه الكهرباء المجنونة، بعد موقعة ٢٨ يناير بأيام. كان في حوالي العشرين من عمره، وقف وعلا صوته واستقطب حوله مجموعه من العيون والآذان المنتبهة والمصدقة حتى قبل أن يتكلم.

قال الشاب إن أحد الضباط أطلق النار على أبيه، في أحد كمائن الشرطة، وأنه ذهب بأبيه إلى المستشفى. طيب إيه المشكلة يا بني؟ لا تعرف ما هي المشكلة، ثم أقسم بأن يأخذ ثأر أبيه. ثم أخذ يهذي بأنه مجند في الصاعقة في الفرقة الخاصة كذا وقال رقمها، وبأنهم يحرسون حدود مصر ضد إسرائيل، ويعرف ما لا يعرفه الآخرون. ثم أخذ يضرب بقوة على صدره. تبرعت إحدى السيدات بتهدئته قائلة: «تزعل لو أبوك دلوقتي بيتعشى مع الرسول؟»، كان الوقت مساء ومناسب لتناول العشاء. كانت السيدة تكلمه كأن أباه قد مات بالفعل. ربما لم تسمع القصة جيدا،

وربما لن تحتاج لهذا، فسرادق المواساة كانت منصوبا على قدم وساق. ربما استنتجت من حرقة الشاب أن أباه قد مات. والغريب أن الشاب أخذ يصدق على كلام السيدة ويومئ برأسه دليلا على الموافقة، كأن أباه مات بالفعل وأنه يتناول العشاء في الجنة. ربما أنقذت هذه السيدة حكايته من البوار وأكملتها بطريقتها. ثم تبرعت سيدة أخرى مسنة بطمأنته أيضًا وقالت له إنه يجب أن يسحل هذا الضابط على الأرض، وإننا كلنا سنكون معه، ثم أدارت إبهامها على شكل دائرة مشيرة لباقي الحلقة المتجمعة حول الشاب. ثم نظرت إلى الجمع بدون أن يأخذ الشاب باله، وقالت بأنه يشكو من مرض صدري. فقد لاحظت السيدة تهدج نفسه المتوالي. بينما الشاب يواصل نسج قصته الخيالية، وينتقل من فكرة لأخرى، وهو يعيد الضرب على صدره المنهدج بقبضة يده، ربما ليثبت للجميع بأن هذه الضربات المتوالية على صدره لا تعني بالنسبة لمن مثله من قوات الصاعقة شيئا. طبعا منظر الشاب ونحافته، وطراوة جسمه لا توحي أبدا بأنه ينتمي للصاعقة، أو حتى لأشبال الصاعقة!

لم أصدق ولا كلمة مما قالها الشاب، حدست بأنه يريد أن يكون له دور وسط هذا الحشد اليومي الذي يدفع المشاعر إلى أقصاها. كان يريد أن يتمسك بذيل هذه التجمعات قبل أن تنفض ويعود إلى بيته وحيدا بلا بطولة، فأصر على أن يطلق كذبته، أو صرخته. أصر على أن يلبس قناعه البطولي أمامنا. الكهرباء التي أصابته، أضاءت هذا الجزء المظلم من ذاكرته. كان قناعه البطولي من قبل طافيا تتقاذفه الأمواج، بلا هدف أو مصير. الآن ردت الروح لهذا القناع والتصق بوجهه تماما، ولكن لم يجد الشاب حكاية تليق بهذا القناع الذي اضطر له.

٢

يضم النُّزل أربعة إستديوهات صغيرة وشقة، تلك التي أقيم فيها، ثلاثة منها مقسَّمة على دورين، والرابع على دور واحد. جميعها اشتراها الأديب الألماني هاينريش بُل، واحدة بعد الأخرى، لاستخدامها كمقر صيفي للاستجمام وللكتابة أيضًا. بعد وفاته قام ورثته بإنشاء مؤسسة باسمه تتبع حزب الخضر، وتهتم بقضايا البيئة والمناخ والتمييز بين الجنسين. وقد خصصت عائلته هذه النُّزل لإقامة الكتَّاب من أنحاء العالم كافة، خصوصا من البلاد التي تعاني من مشكلات تخص حرية التعبير، والحريات الشخصية عموما.

في الإستديو ذي الدور الواحد والمطل على الحديقة، كان يسكن الكاتب «ألجريد باخارفيتش»، من بيلا روسيا ويبلغ عمره حوالي السادسة والثلاثين. هناك باب بمربعات زجاجية في نهاية صالة الطعام، في شقتي، بالإضافة إلى شباكين؛ جميعها تطل عليه. من خلالها كنت أتواصل معه وأرى ضوء مكتبه مُضاء لساعات متأخرة وهو يكتب، فأقاوم النوم والأشباح واستمر في العمل. كان بيننا ممشى مفروش بالنجيل سترعى فيه فرخات جارتنا، والموكل لها الحفاظ على نظافة النزل الذي نقيم فيه. كانت فرخاتها تتسلل إلينا في أوقات فراغها أو جوعها وتقيم عندنا في الساحة بين الإستديوهات تلقط رزقها، وأحيانا تتطفل وتدخل أحد الإستديوهات لو وجدت

الباب مفتوحا لتكمل مهمتها. من كثرة تردد هذه الدجاجات، سميتُ الممشى العشبي بين شقتي وبين إستديو ألجريد «ممر الدجاج».

ربما تشجَّع «ألجريد» عندما علم من «زوفنكو» بتمشيتي معه. فعندما رآني في حديقة البيت للمرة الأولى، وكان يدخن البايب، دعاني لمصاحبته لشراء التبغ فوافقت على الفور. ذهبنا لمركز كرويتساو kreuzau الذي يبعد حوالي ٣ كيلو، وهو المركز الذي تتبعه قريتنا إداريا، وبه بعض المؤسسات الحكومية، والعيادات الطبية والصيدليات، والمحال الأساسية والمطاعم وغيرها. تبلغ مساحته حوالي ٤٢ كيلو مترا مربعا وتعداده حوالي ١٩ ألف نسمة. وأهم ما فيه محطة قطار تصله بالمدن الكبرى التي يتجاوز تعدادها المليون نسمة، فينفتح عالم جديد عبر هذه المحطة المهجورة، والتي نادرا ما تمتلئ بالمسافرين ولكن تظل الإمكانية موجودة لأن القطار يتوقف هناك دائمًا.

هناك شارع طويل متعرج تتخلله عدة طرق جانبية يصلنا بكريتساوا. في طريقنا نعبر بالكنيسة وعدة فيلات أنيقة، إحداها مرفوع عليها العلم الأمريكي، يقال إنها لأحد الأمريكيين الذين فضلوا العيش في هذ القرية، لنصل للطريق الكبير الذي يقطع القرية، ومن هناك تعبر للناحية الأخرى، يظهر مستوى منخفض، عبارة عن مزارع وخضرة أبدية، ودخان مصانع يتصاعد من بعيد، ثم صف من الفيلات الأنيقة لا يصدر منها صوت بتاتا، يقطعه مجموعة من زرائب الأبقار. ثم نصل لطريق طويل منحدر خال من البيوت تحيط به الغابات. تصادفنا مقبرة صغيرة، تحتل مستوى منخفضا من الأرض،

عدد قبورها لا يتجاوز العشرات على قدر منسوب الموت لأهل القرية. جلسنا على السور للاستراحة ودخنًا سيجارتين ونظرنا طويلا في القبور وتعلمنا من حضور الموت، ولكن لم يصرح أحدنا للآخر بما جال في خاطره في تلك اللحظات، ربما لأنه واضح ولا يحتاج لتصريح. سيصبح هذا المكان هو المرفأ الذي ننتظر عنده طوال مشاويرنا على الأقدام باتجاه كريتساوا.

تبدأ البلدة في الظهور: أشجار الكرز المنثورة على الطريق وقطوفها الدانية، والتي تغطي الأرض، في مواسم إثمارها، كأننا في جنة موسمية حمراء تعرض فاكهة الموسم للناظرين. يضيق الطريق ثم يتسع، ثم تظهر المدرسة الثانوية المشتركة وملعب كرة السلة خلف السور الشفاف المصنوع من السلك المشبك. ثم السوبر ماركت الكبير Reve غالي الثمن، ثم المصلحة الحكومية التي تمثل الدولة والتي أمامها مساحة واسعة بها العديد من الأشجار ومفروشة دائمًا بأوراق الشجر الجافة. ثم يقابلنا الكوبري الصغير الذي يجري من تحته أحد أنهار جنة الريف الألماني، ثم عدة «سوبر ماركتات» مختلفة ثم كشك السجائر في أول الطريق، نصل لشارع طويل متعامد عليه، حيث هو مركز المدينة وعصبها الأساسي، به كل محال القرية ومطاعمها، بالإضافة لسوبر ماركت Aldi، متوسط الأسعار والمخصص للطبقات المتوسطة، بالقرب من محطة القطار؛ والذي كنا نشتري منه حاجياتنا في رحلات أسبوعية صباح الجمعة مع «زيليكا».

تسكن «زيليكا» بقرية «اشتراسا» المجاورة لقريتنا. كانت متزوجة من زوج أيرلندي وعاشت معه في أيرلندا لسنوات ولكنها انفصلت

عنه وعادت لمسقط رأسها مع ابنتها وابنها. تعمل في مجال الترجمة التجارية من الإنجليزية للألمانية، وفي أوقات فراغها الطويلة تقوم بمساعدة الكتَّاب المقيمين في بيت هاينريش بُل، للتعرف على المدينة ومصاحبتهم في شراء حاجياتهم، وغيرها من التفاصيل التي وصلت لرغبتها في تعليمهم اللغة الألمانية. كانت في الخامسة والأربعين، ومعها تكاثرت أوقات الفراغ التي تحب أن تستثمرها في شيء مفيد، وكان الكتَّاب الأغراب هم هدف استثمارها، الذي سيزداد يوما بعد يوم.

طوال الطريق كانت هناك مبان حديثة، ولكن أغلب المباني يعود لبداية القرن العشرين، ويغلب عليها اللون الأحمر القاني، ويسمونها بالمنازل الحجرية، ولا تتعدى ثلاثة طوابق، وسطحها مغطى بالجمالون الأسود، ولها نوافذ مستطيلة بيضاء في كل واجهاتها. يخيل إليك أن المبنى كله سيتحول إلى نوافذ في انتظار ضوء الشمس، الضيف النادر في أغلب شهور السنة، وحتى لا تضيع أي نسيلة شعاع منه من دون أن يستفيد بها البيت وأصحابه.

يشبه الشارع الرئيسي في البلدة شارع تمشية في مصيف للأثرياء. كنت أزور محل الآيس كريم يوم الأحد وأرى صفوف الفتيات والفتية من المرحلة الثانوية، وهم يتبادلون الصخب المؤدب والمرح المتحفِّظ أمام المحل، في انتظار طلباتهم، أو يجلسون على الترابيزات المنثورة أمامه، بأرجل مضمومة تحت الترابيزة، ثم ينصرفون لبيوتهم راضين. يجاور محل الأيس كريم تلك الكافيتريا التي كنت أجلس عليها مع زملائي من الكتَّاب عند زياراتنا لكريتساوا لنحتسي البيرة

ونتحدث مع سلمان العراقي، المهاجر منذ التسعينيات، هو وزوجته يديران هذا المحل، لصاحبه الإيراني، مع عامل كردي آخر.

في أخر فروع الشجرة الألمانية، في شعيراتها وممراتها الضيقة يقف سلمان وحيدر وسهيلة يجهزون البيتزا وأطباق المكرونة بإتقان ويأتون بزجاجات البيرة مع «المزات»، مع قليل من البطاطس المحمرة. ويقترب سلمان أكثر ليسمع لغتي العربية التي كان سعيدا بها ولم يسمعها منذ مدة طويلة في هذه المدينة الصغيرة، والتي لم يغادرها منذ جاء في التسعينيات، ولا يتخيل أن تصل لغة الضاد إلى هذه الشعيرات الدقيقة على الأطراف النائية للجسد الألماني.

ألجريد، الذي سبقني في الإقامة بشهر تقريبا، كان قد ذهب إلى هذه المدينة قبل حضوري عدة مرات، لشراء تبغ البايب الذي يقوم بتدخينه طوال النهار؛ بصحبة زميلي الآخر زوفنكو والكاتب الثالث جيرمان الآتي من سان بطرسبرج، والذي سافر خارج ألمانيا يوم وصولي. هناك متجر وحيد يبيع التبغ، صاحبه ألماني، وتساعده فيه إحدى العاملات الآسيويات المهاجرات. بجانب لوازم التدخين كان يبيع الجرائد والكروت والأقلام والأدوات المكتبية، بجانب مكتبة صغيرة للكتب تتكون من ثلاثة أرفف، وله ساعات محددة في اليوم لا تزيد ولا تنقص مهما كان السبب.

ألجريد، عندما يتكلم يتأنئ، تأخذ بعض الحروف وقتا أطول داخل فمه أو على لسانه، حتى تشعر بأنها قد غرقت تمامًا ولن تخرج، ولكن بعزيمته يدفعها للأمام لتطفو وتأخذ مكانها الشاغر وسط فراغ الجملة المُنتظرة. من يقوم بالاستماع له يجب أن يملأ

بابتسامة أو بانتباه هادئ، فراغات الصمت والمحاولة للربط بين الحروف والجمل. كان يسير بسرعة تفوق سرعتي، ربما يعوض بها بطء الكلام، ودائما كنت ألهث وراءه، ليس في السير فقط، ولكن في قفزات أفكاره وشاعريتها، وتلك النماذج الحالمة للكتاب الذين يملأون رأسه بالعبارات والأشباح والحب والعزيمة.

بالرغم من أن عمر ألجريد ٣٦ عاما فقط، فإن وجهه وشعره الأبيض يشيران لسن أكبر من هذا بعشر سنوات على الأقل، بالإضافة لعينيه الخضراوين والحادتين كعيون صقر ميت. قال لي ردا على ملاحظتي هذه بشأن السن، بأن الفودكا والنبيذ هما السبب في تسلل البياض لشعره. كان سعيدا بهذه التضحية البسيطة التي تليق بكاتب! لا يفارق البايب فمه، يدخنه باستمرار، سواء كان مشتعلا أم مطفأ، ربما تيمنا بكتاب روسيا الكبار. يقطع حديقة البيت جيئة وذهابا ونافورة الدخان تتجاوز رأسه وتلف وجهه، بينما كأس النبيذ الأحمر الملآن لمنتصفه يرتج في يده اليسرى، وأحد الكتب في يده اليمنى. دائمًا أراه بالملابس الرسمية التي يهيمن عليها اللون الأسود، بنطلون أسود وقميص أسود وبالطو صوفي أسود. في البداية كنت أخلط بين روسيا وبيلا روسيا. وكان هذا خطأ عظيما مني، أن أخلط عشرة ملايين نسمة بمائة وأربعين مليون نسمة، أخلط بين المستعمِر والمستعمَر! قال لي بأن ديستوفسكي أصوله تعود إلى «بيلا روسيا» أو روسيا البيضاء. دائمًا يصحح لي المعلومة عندما أنسى وأحدثه أو أسأله عن الكُتَّاب الروس.

وصلنا لمحل التبغ، عندما عرف صاحب المحل بأني مصري

أخرج لي ورق بافرة اسمه «جيزة» ومرسوم عليه أهرامات مصر، سيتكرر هذا الفعل كلما دخلت هذا المحل. اشتريت منه علبة سجائر، والماكينة اليدوية للف السجائر، وورق بافرا وباكت دخان. كانت هذه الماكينة اليدوية الصغيرة الأداة التي ستُنسج عليها أفكاري ووساوسي وتأملاتي طوال فترة إقامتي، وسيتعلق بها «بُحْرَاني» العميق وسط أمواج نفسي، وستستهلك وقتا لتملأ تلك الفراغات الكبيرة في جملة نفسي غير المكتملة مثل الفراغات الكامنة بين الكلمات والجمل في حديث ألجريد. كي لا أضيِّع الوقت في لف السجائر؛ كنت أجهز مجموعة منها في الصباح وأضعها بجانبي على المكتب. في البداية كانت المهمة صعبة، دمج كمية الدخان المضبوط مع الفلتر الصغير داخل تجويف ورقة البافرا، ثم أقوم بترطيب أطرافها بطرف لساني. أحيانا كانت تخرج السيجارة منتفخة ومكتومة أو مهوشة وهزيلة، حتى وصلت للكود الذي أضبط به الإيقاع. في أي سفر ألجأ للف السجائر ليس فقط لرخصها بالقياس بالسجائر الأخرى، بل أيضًا لاستهلاك القلق الذي يصاحب هذا العمل اليدوي الوحيد، وفي النهاية أحصل على هذا الثوب اللامرئي الذي نسجته عبر استغراقي وتأملاتي أثناء اللف.

بعد شراء التبغ دعاني ألجريد لكوب كبير من البيرة في الكافتيريا لصاحبها الإيراني الذي يعمل عنده سلمان. تبادلنا حديثا استفتاحيا حول حياتينا، وأصر في النهاية على أن يدفع الحساب، وكانت بادرة لطيفة منه. في طريق العودة، وسط الغابات، كان صوت أوراق الشجر الجافة تتحرك على الأرض بفعل الهواء، كأنها جيوش زاحفة تعبر

على أطراف أصابعها، تصدر صوتا يحتك بحدة هذا السكون الذي كنا نتشربه في الطريق، يربط بهذه الذبذبات الضعيفة بين عائلة كبيرة صمَّاء تتكون من الجبال والغابات والمروج الخضراء والمقابر وبعض الجواميس المحملة بضروع ملآنة باللبن.

عند وصولنا البيت وجدنا «زوفنكو» جالسا على النجيل في طرف الحديقة بجانب شجرتي الكرز المزهرتين بأزهار بيضاء، التفت لنا، كان قد اعتذر في الصباح عن مرافقتنا في هذه الرحلة لأن أمامه عمل كثير، بجانب انتظاره لمحادثة على السكايب مع زوجته في بلجراد. وقفنا قليلا نتبادل حديثا ثلاثي الأطراف، ثم اتفقنا أخيرا على اللقاء في تلك الغرفة الزجاجية المستقلة المؤثثة بأثاث بسيط، والتي تقع في نهاية الحديقة والتي يسمونها «غرفة الشمس»، والملحق بها غرفة داخلية بها مكتبة ومدفأة وكرسي جلدي وثير للتأمل أمام نار المدفأة في الشتاء. كان صاحب نوبل يجلس في «غرفة الشمس» للكتابة والقراءة والاستمتاع بالشمس النادرة. كانت هذه الغرفة المكان الخارجي المحايد الذي يصلح لاجتماعات ولقاءات الكتاب المقيمين في هذا النُزل الأدبي.

على زجاج هذه الغرفة لُصقت عدة استيكرات لطيور سوداء حتى لا تصطدم به الطيور المحلِّقة العديدة من حولنا والتي تتراجع في اللحظة الأخيرة. تخيلت في الحال دماء عشرات الطيور الحالمة، التي لم تر الزجاج الشفاف، ووثقت في هذا الفضاء الممتد، وأرادت أن تتماهى معه. لا أعرف لماذا ذكَّرني هذا المشهد بكل المثاليين والحالمين، ومنهم من رأيته في مظاهرات الثورة، الذين يريدون أن

يتماهوا مع فضاء رحب من دون أن يروا هذه الحواجز الزجاجية الشفافة والحادة في آن، التي تسيِّج هذا الفضاء المفتوح.

تحتوي «غرفة الشمس» على منضدتين وعدة كراسي من الخوص وكنبة. عادة كنا نأخذ راحة من الكتابة ونتفق على موعد نلتقي فيه مساء. لم نجلس في تلك الغرفة صباحا إلا نادرا، ولم نستمتع بالغرض الذي أنشئت من أجله، بل استمتعنا بالليل، حيث الشمس غائبة. كل منا يأتي بالمشروب الذي يفضله سواء كان بيرة أو نبيذا أو فودكا، أو شايا في حالات نادرة، لدواعي الثرثرة المجانية وتسخين الكلام.

تأخر ألجريد حوالي ٤٠ دقيقة عن موعد اللقاء الليلي، جاء بسحنة متعكرة. سأله زوفنكو عن السبب فأخبرنا بوقوع حادث إرهابي في بيلا روسيا في العاصمة مينسك. فقد انفجرت قنبلة في مترو الأنفاق ومات أحد عشر شخصا وجرح ١٢٠ شخصا. وقد نفذت العملية بجهاز تحكم عن بعد، ووزن القنبلة الواحدة لا يقل عن ثلاثة كيلو جرامات من المتفجرات. كان ألجريد من قبل يحدثني عن الديكتاتوريات المتشابهة في العالم، مبارك والقذافي ولوكاشينكا، ديكتاتور بيلا روسيا، وأحمدي نجاد. وعن الثورة التي حدثت في مينسك من الذين رفضوا سياسات لوكاشينكا القمعية، وخرجوا بالآلاف ضد تجديد ولايته في عام ٢٠٠٦، وبعد أن مزقت الشرطة الأعلام التي يرفعها المحتجون ضد السلطة قام أحدهم بتمزيق بنطلونه الجينز ورفعه كعلم في وجه الشرطة، فقام باقي المتظاهرين بنفس الفعل، وبسبب هذا سموها «ثورة الجينز». الثورة المصرية كان لها عدة أسماء نباتية، ليس لها علاقة بالملابس أو الطعام: اللوتس،

الياسمين، لما لعلاقة مصر الزراعية بالنبات والإنبات. دورات موات ظاهري تحت التربة، ثم انبعاث يحدث مرة واحدة.

طيبة ألجريد طافحة على وجهه المسن، عندما يتعثر حرف في فمه يغمض عينيه، ويشيح بوجهه في الناحية الأخرى لمحدثه، ربما خجلا منه، ويعود كطفل لم ير عالم النور بعد، أو يخشاه. صوته له عمق ممتلئ بدون رنين، لذا تخرج الكلمات متشبعة ومكتملة بدلالاتها بدون أي صدى لها. أعتقد أن كتابته لها هذه الصفة، أن توصل المعنى بقوة دون أن تترك ذيولا لدلالات إضافية. عندما سألته عن موضوعه الأثير الذي يكتب فيه قال «العزلة». هاجر ألجريد من بيلا روسيا عام ٢٠٠٧، بعد تجديد ولاية الرئيس لوكاشينكا، ويأسه من أي تغيير يحدث هناك، مع زوجته الطالبة الجامعية وابنته وعاشوا جميعا في مدينة هامبورج، وأصر على أن يتكسَّب من مهنته ككاتب وقد نجح حتى لقائنا.

عندما يتحدث ألجريد عن الكتاب الروس أو البلاروسيين، تلمح هذه النبرة الساخرة. ليست سخرية موجهة للغير، بل سخرية موجهة للنفس عبر الآخرين. يحكي عن أحد الكتاب الروس عندما دعي إلى مهرجان شعري في إحدى دول أوربا التي تتكلم الإنجليزية، ظل معزولا لعدم معرفته اللغة، وطوال الوقت ظل جالسا في غرفته بالفندق، وحيدا يضع يده على خده، كما صوره ألجريد. وعندما قرر النزول لشراء حاجيات الطعام والفودكا من السوبر ماركت، عاد فلم يجد ثلاجة في غرفته، ففعل مثل الروس بأن وضع الطعام وزجاجة الفودكا على الإفريز خلف زجاج الشباك، فالجو قارس البرودة وكفيل

بأن يحل محل الثلاجة. المهم في الصباح قام ليبحث عن حاجياته فلم يجدها، لقد أخذتها الرياح إلى أسفل، وقام كل الشعراء المشاركين في المهرجان بلملمة حاجيات الشاعر الروسي، كأنها تمثل كرامته المبعثرة على الأرض، بعد أن نال قسطا وافرا من السخرية.

سخرية حزينة على الذات الروسية المعزولة، التي لا تتأقلم خارج وطنها بسهولة. الذات التي تتعثر في خطوها لتنكفئ على نفسها في النهاية، كأنها تعرف بأن مستقبلها، مهما حاولت، له نقطة في الخلف يجب أن تعود إليها ولافكاك منها، وهي الوطن والحنين إليه. يمكن أن أحدس لماذا الأدب الروسي يحتوي على هذا القدر من القدرية والمأساوية، إنها روح شرقية زرعت بالخطأ في أوربا. لا أستغرب عندما كانت إجابة ألجريد عن سؤالي عن موضوع كتابته فقال: العزلة.

ألجريد أقلنا خروجا من الإستديو الخاص به، وعندما أطرق عليه الباب الزجاجي، أتعمَّد بأن أنقر نقرات خفيفة وسريعة، بعكس طرقي الواثق على باب زوفنكو، لأني أتخيل دائمًا بأنه مستغرق في الكتابة. تصنع الكتابة حرما لا يمكن الاقتراب منه. أتخذُ عدة خطوات بعيدا عن الباب، يخرج لي بتلك الذات التي كانت تتأمل أو تصلي منذ قليل في مذبح هذه القدرية. رغبته الدائمة بأن يؤكد لي بأنه ليس روسيا بل من بيلا روسيا، نفي لا طائل منه، ربما إصراره على هذا هو نوع من الهروب من هذه القدرية والعزلة التي تسم الشعب الروسي. على الأقل لقد خرج تمامًا من هذا المكان وهاجر إلى ألمانيا، ولكن وهو يحكي عن الحادث الذي وقع في محطة القطار عادت له ذكرى هذه البلاد بكل مأساويتها وعبثية أقدارها، ظل وجهه

طوال الجلسة مقطبا، حتى إن زوفنكو عجَّل بإنهاء الجلسة الثلاثية، قبل أن تنفد المشروبات، مدعيا بأنه ذاهب للكتابة. انسحبنا معه، فلم يعد هناك مبرر للاستمرار. أطفأنا أنوار الشرفة الزجاجية وأغلقنا بابها، ومضينا كل إلى نزله. ونامت في مكانها الطيور السوداء الملتصقة على الزجاج.

صباح الخير يا ناصر. أتمنى أن تكون بخير.

مرفق عمود الغد بعنوان «في عزلتنا، نعود بدون أجنحة».

مودتي..

في عزلتنا، نعود بدون أجنحة

هناك جغرافيا تصنعها أي ثورة تضع بها حدودا واضحة بين أصحاب الثورة وأعدائها. لكن الثورة المصرية حدثت بدون انفصال في جبهات المواجهة. ميدان التحرير كان مفتوحا على المقاهي ومطاعم وكافيتريات وسط البلد المكدسة بالموظفين والسماسرة، والتي كانت تعيش حالة لامبالاة بعيدا عمّا يحدث في الميدان. في المساء كانت البارات تمتلئ بزبائنها المعتادين بالإضافة لمن جذبتهم الثورة للكحول والبوح. لم تفصل الثورة ماديا بين معسكرين زمنيين، لم تصنع ذلك الزمن الجذري الواحد والجارف الذي يكنس كل الأزمنة اليومية الاعتيادية، ليعد بلاط الروح لدورة جديدة من دورات الزمن والتراب. ربما لقِصر مدتها ومفاجآتها، لم تلحق لتربي ذاتا واحدة، أو زمنا واحدا داخل الزمن الاجتماعي للحياة اليومية، وهو المنوط به أن يدفع الحياة للأمام.

لقد صبغت الحياةُ اليومية الثورة. يمكنك أن تذهب للبيت لتأخذ وجبة سريعة، ثم تعود لتشغل مكانك الفارغ في الهتاف أو الشارع. الثورة كان بها انقطاعات كثيرة، فراغات تتخللها، فجوات زمنية وشعورية غطت عليها هذه الحشود بأجسادها ليظهر الثوب بدون ثقوب. للحظات كنا ننسى أن هناك ثورة وننخرط في حياتنا. ننسى أو نتناسى، لأننا لا نريد

أن نجعلها تمتد لتشغل كل المساحة في الذاكرة. كان هناك صراع غير مرئي بين الثورة والذاكرة. لقد صبغت ذاكرتنا الثورة بتلافيفها ومساراتها المتعرجة وهزائمها السابقة، ولم يحدث العكس.

بعد التنحي، لم يعد هناك عدو حقيقي. أصبح النظام متخفيا. تسلل الملل للثورة فعوضتها بهذا النشاط اليومي في تأليف الشعارات والأغاني لتسلِّي نفسها وسط ما يحدث. في أحيان كثيرة أصبحت الثورة عاطلة بلا عمل، تعيش فترات طويلة من الملل، لأن العدو الفيزيقي كان غائبا، لذا بدأت في أن تعادي نفسها. لم تهتز الذات من أعماقها، التغير حدث من على السطح، وربما السبب أن خروج هذه الملايين عجَّل بسقوط الرمز ولكن لم ينقذ الروح من تململها. التشارك الهائل بين الجموع جعل الوصول إلى هذه النقطة العميقة والجذرية، في اللاشعور الجمعي، حيث ينبع الرمز؛ أكثر سهولة. لذا نشعر، فقط، بسخونة تلك النقطة العميقة وسط الجموع، ونسترد إحساسنا المفقود بالتغيير. أما في عزلتنا، نعود بدون أجنحة.

ربما الثورة كانت في حاجة ماسة لأعداء حقيقيين، يعيدون للذات احترامها لنفسها. لأنهم جزء من هذه الذات بعد أن انقسم وأخذ شكلا آخر، كانقسام الأخلاق إلى ثنائية الخير والشر. يلعب «العدو الحقيقي» الدور نفسه الذي كانت تلعبه الحشود من قبل، ويمنح الذات شرف الوصول إلى قاع ثقافتها حيث الرمال واللآلئ والمراكب الغارقة والأمنيات المحترقة. تحتاج أي ثورة لعدو متجدد يحفظ توازن النفس، التي لم تصل الثورة إلى أعماقها لتصنع منها نفسا جديدة.

٣

خرجنا ثلاثتنا، أنا وزوفنكو وألجريد، للتريُّض في الغابة الملاصقة للبيت. ثلاث جنسيات مختلفة تسير في الغابة التي بلا جنسية. في أوربا دائمًا ما يأتي إليّ هذا الخاطر بأن الطبيعة أسبق في وجودها من الإنسان، أما في مصر فأشعر بأن الإنسان أسبق في وجوده من الطبيعة. غابات واسعة وأشجار، وسكون رهيف، لا تسمع إلا صوت فحيح أقدامك وهي تزيح الأوراق الجافة على الجانبين. سألت ألجريد عن فكرة «الحنين» لدى الشعب الروسي، فأجاب زوفنكو إنها أيضًا فكرة موجودة بقوة في صربيا، مرض يسري في الدم. كنت أعني بسؤالي كيف ينمو الحنين في روسيا كنبتة شيطانية وسط أوربا التي لا تعيره انتباها؟ سألني: ألا تشعر بالحنين؟ قلت له بأن الحنين له أصول شرقية. حنيننا في مصر كحنين الأطفال الذين يتمسكون بأمهاتهم، حنين معلق بالحبل السُّري. أما حنينهم في أوربا في طور ما بعد انقطاع هذا الحبل السُّري، حنين الكبار المتألم الذي بلا أم ولا حتى مرجع. هل يمكن أن أنسى المخرج الروسي تاركوفسكي في فيلم «نوستالجيا»؟ له حنين لا يشفيه العودة للوطن بل الاغتراب عنه، حنين لا شفاء منه أبدا، يزداد مع الوقت ككرة ثلج، حتى تسد كامل فتحة الكهف التي تأتي منها العاطفة!

صحبت معي بعض السندويتشات وحبات الطماطم، وكذلك

زوفنكو صحب معه Ice box بها بعض زجاجات البيرة، أما ألجريد فلم يحمل سوى الطعام الروحي للكاتب: الغليون وشنطة التبغ والتساؤلات الوجودية التي لا جواب لها. جلسنا على العشب، وعزمت على ألجريد بساندويتش لحم بارد مع شرائح الجبن الشيدر، فتناوله مني شاكرا، ودسه في فمه بدون عنت. أما زوفنكو فاعتذر عن تناول السندويتشات لكونه يحمل عدة زجاجات من البيرة عليه أن ينهيها قبل عودته، لذا لا مكان للطعام وسط هذه الذاكرة الهندسية. كنا نتكلم ونحن نائمون على العشب، يرتفع الكلام مباشرة للسماء ويكتسب زرقتها أو رماديتها، ويحلق في فضاء متسع بقدَر الإنسان. بالتأكيد تلك البقعة التي كنا نشغلها ونمد فيها البصر فلا نبصر إنسانا؛ ملك لأحد ما، يسكن في مكان ما، ويأتي ليباشر ملكيته على هذه البقعة وامتدادات البصر حولها، ولكنها كانت بالنسبة إلينا، في تلك اللحظة، ملك الطبيعة، ونحن أبناء هذه الطبيعة الخلصاء.

عندما عدنا للبيت بعد ساعة من الزمن في مناخ قارس البرودة اقترح زوفنكو أن نشرب شايا سوية في «غرفة الشمس»، أتى ألجريد ببراد زجاجي من الشاي المعطر، وأتى زوفنكو بكسرولة ملآنة بالشاي وبثلاثة أكواب. وجلسنا لنستكمل حديث الغابة الذي انقطع بسبب هطول الأمطار. كان الحديث أكثر حيوية، من الأيام السابقة، وتكلمنا عن اللغة، وذكرت أمامهما ملاحظتي عندما استمعت لقراءتهما في الندوة التي أقيمت في مدينة دورن، في اليوم الخامس لوصولي البيت. في هذه الندوة قرأ كل منهما جزءا من نصوصه بلغته: الصربية والبلاروسية. طبعا في وجود ترجمة مباشرة للألمانية. لم

أفهم شيئا، ولكن صببت جل اهتمامي لصوت اللغة. شعرت بأن اللغة التي يتحدث بها ألجريد لها صوت عميق مكتوم وليس لها صدى، أما زوفنكو فلغته لها صوتيات مفتوحة. الاثنان صدقا على دقة ملاحظتي. كنت أتجنب هذا النوع من الملاحظات المجردة التي يمكن أن تلخص كل شيء داخل رموز وأصوات وأعماق مكتومة. فهناك حياة تتمدد خارج الرمز أو الأشكال المجردة، ولا يمكن التنبؤ بعاطفتها وشقائها وحبها وألمها بالتمعن في عدة رموز مجردة.

في هذه الندوة اقتربت مني سيدة عجوز تسير بعصا في يدها ومعها رجل في الستين تقريبا عرفت بأنه ابنها، وعرفتني بنفسها بأنها أحد جيران منزل هاينريش بُل. وأخذت تحكي عن علاقتها بكاتب نوبل، وكيف كانت تراه، وأنها تجمع كل شيء عن هذا الكاتب وتحضر أي ندوة تقام من أجله، وتتعرف بأي كاتب يقيم في بيته الريفي. لاحظت أن زيجرون مسئولة المنحة التي صحبتنا للندوة تدخلت بسرعة لتنهي الحوار عندما وجدت هذه السيدة تتحدث معي، وسحبتني بعيدا بشكل ملحوظ. لم أفهم وقتها، ولكني أحسست بغرابة في وجه ابن السيدة، بريق عين زجاجية زرقاء.

طلبت من ألجريد، ونحن نحتسي الشاي، أن يتحدث قليلا بلغته الأم. استرسل في الحديث. لم أفهم شيئا بالطبع، ولكني لاحظت شيئا مهما بالنسبة له، لا تتعثر الحروف في فمه كما يتحدث في لغته الإنجليزية. إنه طلق اللسان باستثناء بعض تعثرات طفيفة لحروف، سرعان ما يتغلب عليها مثل عربة بتقطّع على الخفيف. شيء آخر لاحظته أنه لم يغمض عينيه أبدا، أو يشيح بوجهه في عكس اتجاه

محدثه كما يفعل عادة. داخل اللغة الإنجليزية يشعر ألجريد بغربته، وخجله، وبحنينه لوطنه وبكل جمله النفسية غير المكتملة. بينما اللغة الأم تعرف كيف تمنحه مفتاحها ورحمها. هذا التعارض بين شعورين يربكان جهازه العصبي. ربما أفهم من هذه الملاحظة البسيطة مدى حنين «البيلا روسي» لوطنه ذي التعداد الذي لا يتجاوز عشرة ملايين نسمة، وأن هذا الصوت العميق والمكتوم ربما يفسر هذا الحنين القدري. هذا الحنين المزدوج، الذي يؤمن به كل الروس، وأيضا حنين الخوف من الابتلاع بوصفه ينتمي لوطن صغير يريد وطن آخر أن يبتلعه. هذه الملايين العشرة بالنسبة له «أمة» Nation، كما سيصرخ في إحدى جلساتنا، قبل سفره.

صباح الخير يا ناصر. مرفق عمود الغد. طبعا بعنوان الأغنية «بلادي يا بلادي» التي صنعت الثورة وبدونها، وبدون صوت شادية في «يا حبيبتي يا مصر»، كأننا مررنا على حشود بلا روح..

أتمنى ألا أكون مغاليا في عاطفتي.. مودتي.

بلادي يا بلادي.. أنا بحبك يا بلادي

بعد التنحي تحولت المسيرات إلى حالة احتفالية، لا يحفها أي نوع من الخطر. حدث فرز جديد لهذه المسيرة الكبيرة. أصبحت تلك المسيرات الآمنة هدفا للجميع ليثبت حضوره في دفتر الثورة. من تكوين المسيرة يمكنك أن تحدس بما سيجري والشعارات التي ستردد فيها. أصبح هناك تخصص في تقسيم جسم المسيرة تبعا لنوعية المشاركين بها.

كانت هناك نقاط توقف مفصلية للمسيرات، إحداها زمنية مرتبطة بمواقيت الصلاة. عادة ما كانت المسيرة تخرج بعد صلاة الظهر، وتصادف في طريقها صلاتي العصر والمغرب. كذلك لو مرت بإحدى المناطق التي شاركت بشهيد في الثورة، مثل مسيرات الإسكندرية في شارع بورسعيد، عند مرورها بميدان كيلوباترا الذي حاز على القدر الأكبر من التوقفات والنداءات والشجن والنشيج، لقربه من بيت خالد سعيد. فجأة ينتفض جسد المسيرة، ويعود له نبضه القوي، لينادي على الشهيد. كانت جغرافية المسيرة تشكل جغرافية المدينة عبر نقاط الموت والتضحية، وهذه الشحنات الإضافية من الإحساس التي تبعث الحيوية في جسم المسيرة.

في الأيام السابقة للتنحي لم تحدث أي حوادث سرقة، ولكن بعده

بدأت تتناثر في جسم المسيرة نداءات وصرخات مكتومة، تعرت الثقوب في الثوب، التي كانت تخبئها الجموع. ربما لأن أصحابها لا يريدون أن يفضحوا جسم المسيرة الذي تسلل إليه اللصوص. كنا نشعر جميعا بالغيرة على هذه الثورة، كأن من قام بالسرقة هو ضيف شخصي على كل المشاركين فيها، وأن السرقة حدثت في بيت كل منا، كسرقة جان فالجان للملاعق الذهبية من منزل مضيفه في رواية البؤساء. داخل المسيرة كان الضيف والحرامي جسما واحدا.

أسمع كلمات الهتاف التقليدية في المسيرات. أنظر لزوجتي وأبتسم، فتبتسم لي. كان الحشد أهم مما يقال، ولكن لحظات التماهي الحقيقي في الحشد كانت تتحقق عندما يتصاعد صوت شادية، أو أغنية «يا بلادي يا بلادي أنا بحبك يا بلادي». كنت أطير وراء سحابة هذه الأغنية الممطرة، وتظل تمطر على روحي حتى بعد انتهاء المسيرة وعودتنا إلى البيت.

٤

دعانا ألجريد، أنا وزوفنكو، لوجبة مشهورة في بيلا روسيا اسمها «بليني» يتناولونها بجانب الفودكا. الوجبة بسيطة للغاية تشبه فطائر الـ«بان كيك»، الرقيقة المصنوعة من خليط الدقيق والماء والملح وبعض اللبن، ثم تقلى على النار ثم تحشى بشرائح سمك السلمون المدخنة. دخلت عليه فوجدته يقوم بقلي الفطائر في طاسة مملوءة بالزيت، وبجانبه في المطبخ الصغير صف من الفطائر قام بتجهيزها قبل حضورنا. قضيت الوقت في تصفح مكتبته وأخذت أقلب في كتبه المترجمة إلى اللغة الألمانية، حتى الانتهاء من عمله وحضور زوفنكو، الذي أخبر ألجريد بأنه سيتأخر قليلا لأنه يتحدث مع زوجته على السكايب. الغريب بالنسبة لي هذه المكتبة التي تكونت سريعا والتي حملها معه في شهور المنحة. بجانب حقيبة السفر الصغيرة التي تحوي أطقما ثابتة لا تتغير، كانت هناك حقائب أخرى للكتب. ما زال في السادسة والثلاثين وله عدة كتب وروايات مترجمة للألمانية وناشر يرسل له بشيكات، ليست متعددة الأرقام، كما يقول، ولكنها تسد متطلبات الحياة بجانب مرتبات المنح التي يعيش عليها، ليغطي نفقات زوجته طالبة الدراسات العليا في جامعة هامبورج، وابنته، وأيضا دخان غليونه وزجاجات نبيذه الأحمر.

كعادة هذه الاجتماعات فيما بيننا يتطرق الحديث إلى الأدب

والدين. اختلاف الأديان فيما بيننا يغري بالخوض في هذا الموضوع، أيا كانت دوافعه، فالتباين يولد شحنة فضول للاقتراب من هذا العالم الآخر. وعادة ما تنتهي هذه الأحاديث، خصوصا بين الأدباء، وربما حتى قبل أن تبدأ، بالقبول والتسامح مع «الآخر»، الذي هو «أنا» في هذه الحالة. ودائما أشعر بأنه قبول وتسامح مجانيان، فرضتهما مهنة الأدب وليس مهنة الحياة. لا أعرف هل أنا متجن في هذه الحالة، أم لا؟ فهناك استحسان لكل كلمة تقولها، ولأي شعيرة تحكي عنها في الإسلام. ربما الاستحسان ناتج من الخوف من المساس أو الاقتراب من الأسوار الشائكة لعقيدة الآخرين، أكثر منه استحسانا لها، أو أنه يتعامل مع الشعيرة كحالة بدائية لها مغزى فني في البناء الثقافي. ففي هذه الحالة يكفي النظر من بعيد، وإسباغ التسامح على كل شيء خوفا من أن تُتهم بالتعصب، وهي النقيصة التي لا تدانيها نقيصة لأدباء نهايات القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين. ولكن رغم هذه الاحترازات فقد كان الحديث بيننا وديا.

عندما أراد ألجريد أن يكرمنا في استضافته، أتى بطبق إضافي عليه شرائح دائرية من لحم آخر غير السلمون المدخن، ولونه بمبي أيضًا. طبعا قبل أن أمد يدي إليه سألته: «خنزير»؟ قال: «لا» بتفهم. وذهب إلى المطبخ ليأتي بالورقة التي كان محفوظا بها شرائح اللحم، وقرأ بالألمانية، التي يتقنها، وعندما أبديت عدم فهمي للغة، ذهب إلى الكمبيوتر وترجم المعنى عبر محول البحث جوجل، من الألمانية إلى العربية، ودعاني لكي أقرأ، كان مكتوبا بالعربية تبعا لمترجم جوجل: «تركيا»، يقصد «تركي» بالإنجليزية أو «ديك رومي» بالعربية.

أشعر بأن ألجريد أكثر قربا مني، وعندما شرحت له بأني أشرب الكحوليات ولكني لا آكل لحم الخنزير، حرك وجهه موافقا كأنه يقول «ولا يهمك أنا فاهم». إنها أحد الأشياء التي لا أعرف الإجابة عنها في نفسي حتى الآن، وربما تثير اندهاش الآخرين من الأجانب الذين أراهم، ولا أريد أن أحلها على الأقل في حياتي الحالية، لأنها لم تعد تسبب لي أي قلق، أو تجعلني أنظر لنفسي على أني متناقض، فهناك كثيرون لا يحبون السبانخ، وغيرهم لا يحبون المحشي، ذائقتهم الوراثية قادتهم لقوانين التحريم ولكن من وراء حجاب.

انضم لنا زوفنكو، الذي أنهى حواره اليومي مع زوجته عبر السكايب. عادة يأتي برياح صخب لطيف. كان يحمل آثار ابتسامة سخرية خفيفة خلفها فيه حوار السكايب فأعلنه قبل أن يسأله أحد عنه، وانقض على فطائر البليني المحشوة بالسلمون المدخن. كان يحمل زجاجة نبيذ في يده فهو لا يشرب الفودكا. أثار حوار زوفنكو مع زوجته على الإسكايب مناخا عائليا في الجلسة، جعل الحديث يذهب لبيوتنا البعيدة التي تركناها خلفنا وجئنا للمنحة، كأننا جنود أرسلوا في حرب بعيدة. تطرق الحديث عندما سألاني عن بيتي في القاهرة، فحكيت لهما بأنني أحب السكن في بيوت خاصة ليس فيها سكان كثيرون، فصدق زوفنكو على كلامي، متحدثا عن المشكلات التي تجلبها كثرة السكان في العمارات الكبيرة. وحكيت لهما بأنني أعيش الآن في بيت عائلي يعود لزوجتي، مكون من دورين، يضم والدة ووالد زوجتي في دور، وأنا وزوجتي وأختها وزوجها وأولادهما، في دور ثان.

عندها قال ألجريد بأنه عندما زارته زوجته وابنته في بداية وجوده في المنحة، قبل وصولي بشهر تقريبا، أحصى معها عدد الشقق التي مر عليها في حياته، فكانت النتيجة ٢٠ شقة. وأضاف بلهجة أسيانة بها تعجب، بأن كل شقة يعيش فيها ثم يتركها، يترك فيها جزءا منه. مسَّني كلامه، خصوصا بعد الكأس الرابعة من الفودكا، وأضفت له جملة من روايتي: «ولن نعود إلى هذا الجزء من حياتنا إلا بالذكريات». تدخل زوفنكو وقال بأن هذا الموضوع واحد من موضوعات الأدب الكلاسيكية. يقصد أن الحنين والتذكر من الموضوعات الأثيرة للأدب الكلاسيكي. لم استرح لكلامه، وربما كان صحيحا، ولكن اللحظة لم تكن في حاجة لأفكار من هذا النوع النظري. لا تحتاج لتصنيف مدارس الأدب، بل تحتاج لأن تسبح في هذا التيار اللاشعوري الذي سببته الفودكا وحديث الذكريات. فلتكن للحظة كلاسيكيا يا زوفنكو. دائمًا زوفنكو يريد أن يجلس، بدون تعال، على كرسي «المغترب» في الأدب الحديث، بما أن الأدب الحديث عنوانه هو الاغتراب والوحدة، والعالم السفلي الأسود الذي كتب عنه في ثلاثيته الروائية، وفي شعره. كما حدثني عنها.

عند بداية حضوره، بعد أن أدى مسرحية السخرية من الحياة الزوجية، تحدث عن القصيدة التي بدأ في كتابتها اليوم، وتحكي عن أبيه، الذي مات منذ سنوات طويلة، داخل القصيدة، خلال الحرب العالمية الثانية، واعتقاله في معسكرات اعتقال القوات المجرية التي كانت تحارب في صف هتلر، وكيف تعذب، وكيف ماتت أخته من الجوع. القصيدة إعادة لملمة لهذه الحكايات والذكريات المتناثرة

في ذاكرته، عبر الحكايات التي سمعها من أمه، وعمه الذي شارك أباه المحنة. قلت له: «أنت أيضًا تسعى للذكريات لتكتب». صدّق على كلامي، ثم أخذ يشرح كيف يعالج قصيدته، بالاقتراب أحيانا من الذكريات ثم يحيد عنها قليلا، معلقا. كنت أتفهم كلامه جيدا، فطالما يوجد راو ثان للذكريات، فالذكريات أصبحت منزوعة من العاطفة الجياشة، وهو ما يُخشى منه في الأدب، وما يتجنبه الأدب الحديث ذو القشرة المغتربة بصفة عامة.

زوفنكو أكثرنا مرحا واجتماعية بلا شك، وهو همزة الوصل بيننا جميعا، وأتذكر الأيام الأولى لوصولي، اقتحم وحدتي وجلس معي، ودعاني لجلسة جمعتنا نحن الثلاثة في «غرفة الشمس» الزجاجية. كانت هذه الغرفة مفاجأة لي في تكوينها وفي اسمها. ربما استخدمها أديب نوبل، بجانب كونها استراحة للشمس، لاستخراج وتكرير الأفكار تحت سلطة شمس العقل والحقيقة وحدهما، التي تسطع في هذه الغرفة، وجئنا من بعده نحن الكتاب، لنكمل تلك الرحلة من كشف الحقيقة.

دائمًا ما ينقر زوفنكو على زجاج غرفة مكتبي المطلة على الساحة بين الإستديوهات، وليس الباب، ليسألني أن نذهب في جولة خارجية للتمشية. ويفعل نفس الشيء مع ألجريد. ذهبنا مرة إلى الغابات المحيطة بالبيت. ومرة خرجنا على الطريق السريع الذي يصل القرية بمدينة دورن، وسرنا على حافة مابين الأسفلت والمزارع. وفي إحدى المرات وهو يتحدث مع أخته عبر الإسكايب قالت له ما معناه أن وجهه أصبح منتفخا، فحدثت له فوبيا، بأنه في سبيله لأن يفقد رشاقته، وهو يعتني بها للغاية، فشعره لا توجد به شعرة بيضاء مع أن

عمره وصل للثانية والخمسين، بالإضافة إلى أن طريقة قصه لشعره الطويل والناعم بها اهتمام زائد. من هنا بدأت تطارده رحلة التريض اليومي، نتحدث، ثم يبدأ في ممارسة تمارين بذراعيه، ويأخذ نفسا عميقا. كان يخشى صور الأدباء المترهلين، ولا يريد أن يكون مصيره مثل مصيرهم.. أنا أيضًا أخشى هذا المصير.

عندما وجه لي ولألجريد سؤالا عن القارئ الأول لكتابتنا؟ قلنا في نفس واحد: زوجتي؟ وأعدت السؤال عليه، فقال مبتسما وفتح ذراعيه كأنه يحتضن أحدا، إن زوجته تسأله كل يوم عن قصائده، وهل هي موجودة فيها أصلا؟ فرد عليها: «كل قصائدي عنك يا حبيبتي». وضحكنا من قلوبنا. زوفنكو يثير غيرتي في عدد القصائد التي يكتبها كل يوم، كما يثير ألجريد غيرتي في نور غرفته المضاء حتى الفجر، وأفكاره التي تحلق على زجاج خياله كالطيور السوداء. في يوم أخبرني زوفنكو بأنه كتب خمس قصائد دفعة واحدة. مدرَّب على الكتابة في كل الأحوال، وكذلك ألجريد، لا يضيعان وقتا، أمامهما ما ينجزانه في هذه العطلة الطويلة. أمامهما كنت هاويا، أكتب يوما، وأتوقف يوما، حتى ولو كتبت كل يوم، فهناك سؤال وأين ستذهب كل هذه الكتابات؟ فما زال أمامها رحلة على دور النشر، باستثناء هذه المقالات الأسبوعية الصغيرة التي أكتبها عن الثورة لأملأ هذا العمود الفارغ الذي ينتظرني في إحدى الجرائد المصرية. أما هما فمن هنا للناشر مباشرة، وربما هناك اتفاقات مسبقة عن هذه المشروعات التي يقومون بكتابتها في هذه العطلة الطويلة.

استمتع بهذه الصحبة..

صباح الخير يا ناصر. مرفق عمود الغد تحت عنوان: «الحلم يفاجئ التاريخ».. تحياتي.

علاء

الحلم يفاجئ التاريخ

يكفي أن تقول إنك كنت مشاركا في المظاهرة، ليتم وضعك في مكان الاتهام أو المسئولية «قول لهم كفاية إحنا تعبنا». في حديث مع أختي الكبيرة المسافرة على الدوام، تكررت هذه الجملة، وبعد احتدامات تتجنب الصدام الحاد «قول لصحابك بتوع التحرير كفاية».

كان المشتركون في الثورة بالنسبة للآخرين الذين يقفون خارج هذه الدائرة الدافئة؛ بمثابة الشبح الضخم الذي يتكلم من خلف جدار زمن آخر، وعالم آخر صاخب وملتهب وعفوي، ليس هو العالم الذي يشتركان فيه. ولكن البسطاء من الناس الذين خرجوا للثورة لم يفصلهم عنها أي جدران، لأنهم كانوا مهانين بالفعل، وصلت الإهانة لدرجة أزاحت جدار الوعي الطبقي، وأصبح اللاوعي طليقا، هو الذي يتحدث ويتحرك نيابة عنهم.

كانت هذه الفكرة تراودني قبل الثورة، واعتبرتها كقرار نهائي لا رجعة فيه، قرار ربما يحوطه اليأس من كل جانب، كجزيرة وسط المياه؛ ليس أمامي سوى أن أنصاع له؛ بأن أسير وراء أي مسيرة جماعية حتى ولو كانت ذاهبة للجحيم.

في مثل هذه الأوقات لا معنى للعزلة أو التفرد، أو الخصوصية. العزلة في هذه الحالة ستكون سجنا مضاعفا بالذنب، للتخلي عن الجموع التي أعادت بمسيرتها أواصر النسب بينك وبينها، والأهم التخلي عن حلم كبير سابق عليك بأزمنة صاغه إحساس قديم بالإهانة وبالظلم.

الجموع، وهي صامتة، كانت تمنح الأمان لأي عزلة، بل وتبرِّرها. والأكثر أن صمتها كان يمنح اليأس بعدا مثاليا غير موجود فيه. كان يطوِّع الاستحالات النظرية لتكون مهربا من اليأس. أما في حركتها فإنها ستفضح أي تخاذل عن اللحاق بها. هذا الالتحام الخطر مع الجماعة، هو ما تبقى من محاولة لتحقيق ما تخيلته أو ورثته عن طيب خاطر، وإن كان في المكان الخطأ.

داخل الخيال لا مكان للخطأ، أو توقُّعه، لأنه خطوة في عالم جديد ليست لها قواعد أو معايير. فالخيال مادة خام متعددة الأوجه والأشكال. الثورة أيضًا خرجت من هذا المكان المتخيل، جزء من مادة أي حلم فردي. المفاجأة حدثت بأن الثورة جاءت من الجزء العاقل في هذا الحلم أو الخيال، وليس الجانب اليائس فيه. الحلم بكل أشكاله يفاجئ التاريخ ويفرض عليه نفسه. ولكن للأسف هذا الجانب العاقل أيضًا لم يكن كافيا ليحدث التغيير، ربما كنا نحتاج لما هو أكبر من الحلم.

٥

انتظرتُ «زيليكا» في الصباح لتعطيني درسا في اللغة الألمانية كما اتفقنا، فقد عرضت عليّ هذا في أول لقاء لنا. ربما لن أحقق نجاحا كبيرا داخل هذه اللغة، ولكني أجرب هذا الجزء من الذاكرة الذي أملكه والمخصص للغات، كيف يستقبل أصواتا جديدة ويعتاد عليها، كما يستقبل ثقافات جديدة ويعتاد عليها؟ ربما اعتياد اللغة أصعب كونها الجزء الأرهف والأشد تعقيدًا داخل أي ثقافة. أعددت كوب القهوة باللبن الصباحي الذي أجهزه بالماكينة. رفعت أمامها كوب قهوتي فوافقت. كانت تقف أمام باب شقتي في طريقها للغرفة الزجاجية حيث مكان أخذ الدرس. كان شعرها مبلولا بسبب المطر الذي لم ينقطع طوال اليومين السابقين. في أثناء الدرس، سألتني وهي تضع يدها على فمها، هل تشم رائحة الثوم؟ أجبتها بالنفي، واستغربت السؤال أصلا. وأضافت بأنها هذا الصباح تناولت إحدى أوراق النباتات التي يأكلونها مع الجبنة، وهذه الأوراق لها رائحة قريبة من رائحة الثوم. بعد أن قالت لي هذا، بدأت أنتبه لأصوات كركبة تتصاعد من بطنها. يبدو أن هذه الأوراق لا تترك فقط رائحتها في الفم، بل وتسبب انتفاخا وعسرا في الهضم، ورغم هذا يقبلون عليها لقيمتها الغذائية العالية. صوت كركبة بطنها لم ينقطع ولم يشوش على

الصوتيات المكتومة للغة الألمانية، وسط قطرات المطر المتساقط على زجاج الغرفة، والطيور السوداء الملتصقة على الزجاج، والتي كانت تشاركنا الدرس والنقاشات وكل أسرار هذه الغرفة الزجاجية.

بعد الدرس ذهبت معها للتسوق، وهي عادة تتم صباح الجمعة، في سوق البلدة المجاورة كروتساوا. اعتذر زوفنكو وألجريد عن الذهاب معنا، كانا متعبين من سهرة الليلة الماضية، فآثرا المكوث في المنزل، ولكن زوفنكو طلب مني، وهو يقف بالشورت وبدون قميص أمام الإستديو الخاص به؛ أن آتي له من محل السجائر بخمس عبوات من التبغ وورق البافرا. دائمًا زوفنكو يخشى أن تنفد سجائره بينما شيطان الشعر يكون ساهرا يملي عليه كتاباته، يريد أن يشعر بأن أيامه القادمة، بل سنواته، مؤمَّنة بهذا الرصيد الكبير من الدخان والخيال والرشاقة.

زيليكا لها جمال حاد: الوجه الأبيض النحيف والشعر البني متوسط الطول الذي يتجاوز الرقبة، العينان الخضراوان، والجسد الممشوق، والتي تحافظ عليه بقسوة، والأنف المدبب الذي ينقر كنقار الخشب في وجه أي من ينظر إليها. كانت تلبس في ذلك اليوم فستانا مفتوحا عند الصدر، يكشف مثلثا من ثدييها، مطبوعًا عليه رسوم نباتية باللون الأسود والرمادي والبرتقالي، ومن فوقه جاكت أبيض من القطن الخفيف. في رحلة عودتنا من التسوق، كلمتني عن فاجعة ألمت بها هذا الصباح، فقد توفي أحد جيرانها ولم يبلغ من العمر سوى ٤٤ عاما. كانت قريبة جدًّا من هذا العمر الذي توفي فيه جارها اللطيف. فرش حديثها كآبة على وحدتنا داخل العربة بعد شراء الحاجيات، وعودتنا في طريق الغابات، بينما المطر المدرار يتساقط

من حولنا ويصنع من العربة كبسولة مفصولة لا تبغي إلا الفرار. كان موت جارها يشاركنا الرحلة، وربما أجلت حزنها عليه والكلام عنه حتى يكون معها أحد، وربما أيضًا جعلها لا تؤجل أيا من أعمالها اليومية للتفرغ لهذ الحزن.

عندما وصلنا لبيت هاينريش بُل من رحلة التسوق لم تذهب إلى بيتها مباشرة كالعادة، ولكن لبت دعوتي على كوب شاي. فقد اشتريت من السوبر ماركت قطعا من الحلوى المشهورة هناك، ودعوت زوفنكو وألجريد، بالإضافة إلى «جيرمان» رفيقنا الرابع الروسي، والذي كان مسافرا في الأيام الماضية، للقاء حول الشاي بصحبة زيليكا في «غرفة الشمس». كنت أراها دائمًا تستمتع بصحبة الكتَّاب، يمر عليها كتَّاب من العالمين الثاني والثالث، كل كاتب تحجز له شغفا متوقعا، قد يصيب أو يخيب، ولكنها مقبلة على هوايتها هذه بطاقة كاملة، وبحضور حيوي لا يفتر.

حاولت بدعوتي هذه أن أصنع مناخا مختلفا، للجميع، بالرغم من أني كنت مرهقا تمامًا، وأشعر بإحباط يحوط مشاعري، ربما من تأثير نسبة الكحول التي دخلت جسمي ليلة الأمس. تحدثت مع زوجتي على الإسكايب في مساء هذا اليوم، حكيت لها ما حدث. قالت ربما السبب أن هذه الحالة أتت بعد حالة من التصاعد الروحي والنفسي. صدقت على كلامها، فحديثنا بالأمس كانت له نقطة تصاعد منتشية. هذا التصاعد يستهلك طاقة، لا تشعر بفقدانها لأنها تكون محجوبة وراء لحظة الانتشاء. بغياب لحظة الانتشاء، يظهر سريعا عوار النفس وخواؤها الأصيل قبل أن تسكنها الحياة.

كانت عندي ملاحظة هي سيطرة روح من الكآبة على بيت

هاينريش بُل، عزلات طويلة، حتى من يدخله يكتسب تلك الروح الكئيبة. شيء مأساوي يحلق فوق هذا البيت، ويستسلم له الجميع، بل يغذونه بكآباتهم الشخصية، حتى عندما تقابل أحدهم خارجا من صومعته، تخال أنه أحد أفراد أهل الكهف، الذي لم ير الحياة والعالم الحي إلا منذ عقود طويلة. جيرمان كان أحد هؤلاء، محترفي الكآبة، بل الأكثر احترافا.

عاد «جيرمان»، زميلنا الرابع، من رحلة قراءة أدبية في لندن. رأيته بسرعة قبل أن يغادر، وحدث بيننا سوء تفاهم سريع. كان ثالث أو رابع يوم لوصولي، له جسم ورأس ضخمان، وظهر محني قليلا كأحدب نوتردام. كان واقفا في شباك الطابق الثاني من الإستديو الخاص به والملاصق لشقتي، بينما أنا واقف في الساحة المشتركة بين الإستديوهات. سألني لماذا لم أخرج لأشاركهم احتفالهم عند وصولي؟ كنت قد سمعت ليلا بالفعل من ينادي بصوت جهوري: «بارتي.. بارتي»، وغالبا كان هو، لأن علو صوت النداء يتناسب تمامًا مع حجم جسمه. قبل أن أجيب عن سؤاله، قال: «هل لأنك مسلم ولا تشرب الخمر؟». رددت: «كنت متعبا، هذا كل الموضوع، أما موضوع شرب الخمر فأمر يطول شرحه». لحظات وجاء التاكسي الذي سيقله للمحطة في طريقه للندن، وأُنقذت من حوار جاف له حواف حادة.

صباح الخير يا ناصر. أتمنى أن تكون بخير. مرفق عمود الغد. أتمنى ألا أكون قد أطلت عن عدد الكلمات المسموح بها.. مودتي.

علاء

ستعيش أجيال مطاردة بشبح الموت

في السنوات العشر الأخيرة قبل الثورة، كانت كل المؤشرات تحيل لحدوث كارثة. كان الحديث المكرر بيني وبين أصدقائي المهاجرين عند عودتهم وسؤالهم عما يجري، بأن الكارثة قادمة لا محالة. بجانب التوقع للكارثة الجماعية، بدأت أشعر بخفوت إيقاع طاقة الحياة التي تصلني من الخارج المحيط بي. هذا الإيقاع الذي كان يضبط حماستي ويدفعني إلى مواصلة الجهد. ربما كان كثيرون يستعجبون من أين آتي بهذه الطاقة وسط هذا الجو المحبط الذي يحاصرنا من كل جانب. كانت هناك علاقة خفية بيني وبين الخارج، التقاط لذبذبات، قد تفتقد التجانس، ولكنها بالنسبة لي كانت كافية لتدلني بأن هذا الخارج ما زال حيا، ويتنفس كل صباح، ولكن زفيره كزفير الموتى.

كنت مشحونا بطاقة ما قبل النهاية، وبفرح ما قبل النهاية، ربما لأني عقدت اتفاقا شفافا مع الموت. كان يعيش معي كعضو من أعضاء حياتي، لذا تولدت مساحة أو فضاء بين توقعي للموت، وبين الخارج الذي على وشك النهاية. هذه المساحة كانت مساحة مشحونة بالأمل، لفارق التوقيت، ولفارق النوع. هذا التجاذب بين لحظتين للموت، وللنهاية، كان يولد طاقة الاستمرار. الموت أكثر رسوخا في حياتي، والالتفات له، التفات لمكمن غريزي تكمن به طاقة للبقاء.

في لحظة الثورة تحولت كتلة الخارج إلى أفراد، إلى طاقة، عبارة عن محصلة لرفض كل فرد على حدة للموت، وفي الوقت نفسه تمنيه. بين رفض الموت وتمنيه خرجت حياة جديدة. هذه الحياة الجديدة ستكون دائمًا بين قوسين، يطاردها شبح الموت. لم يتلاش إحساس الكارثة الذي سيطر على حياتنا ووصم أجيالا بيأس لا راد له. لقد تسربت الكارثة، ويأسها، لتمنح الناس أجمل ما فيها: حس الاستشهاد. ولكنه موت مختلف هذه المرة. فلم يكن لديهم الرصيد العميق، أو المخزون، ليواجهوا أو ليتبوءا قمة هذه اللحظة، إلا بقوة دافعة آتية من إحدى صور الموت، وهي الكارثة.

سنعيش أجيال مطاردة بشبح الموت، أفكارها، وحياتها، وأحلامها، وتضحياتها، ستؤسس حياتها بين قوسين كبيرين له. لقد وحَّد الموت بين أجيال عدة، عاشت لحظة واحدة، لحظة الثورة. كان ضريبة أن نثور، أن نحيي الموت من مرقده، وندخله في نسيج حياتنا. وهذه إحدى صور المسئولية. إننا هنا نعيد إنتاج الموت، ليس كسؤال نهاية وآخرة، بل كبداية، كسؤال حياة. لقد منحتنا الثورة وجها فلسفيا لحياتنا، ولثقافتنا، لم يكن موجودا من قبل بهذا الشكل المركَّز والساطع. كان من الاستحالة أن يتم هذا إلا عبر تجربة فردية طويلة الأمد، ولكن المعجزة أنه تم عبر تجربة روحية جماعية، قصيرة الأمد، وربما هنا أيضًا مكمن الخطر.

٦

تذكرني رائحة القهوة في الصباح بزوجتي. الأبخرة تمكث في الشقة لغاية العصر، طوال هذه الفترة يطاردني طيفها، وهي تتحرك في المطبخ، لتلحق فنجان القهوة بعد الغداء، والذي عادة ما يفور، وتنظر لي بعتب رقيق، «شفت بقى». استمتاعها بالقهوة لا يكتمل إلا بعد فورانها وضياع الوش. هذه الحياة الخطرة التي نعيشها، التي تتماهى مع دورة فوران القهوة، وبها رائحة البن وأبخرته. مدوخان أنا وهي برائحة حياة خاصة نبحث عنها. لا نتكلم كثيرا عن السعادة، ولا عن الحب، ولكني أحتفظ لها داخل حياتي بحياة أخرى لا يعيش فيها غيرها، وكل ما تحبه: الرسم، الفوتوغرافيا، القهوة، التمشية، السفر، الشيكولاتة السوداء، الأحجار، الذكريات القديمة، وهذه النظرة والابتسامة الخجول عندما أداعبها بمبالغة، بكلمات حب، أو غزل، يعود وجهها لطفولة القلب الذي لا يشيخ. نكبر سويا في العمر، ولا نسأل عن الغد، وتكبر أعيننا مع أعمارنا، فلا نرى الفارق الذي حدث منذ رأينا بعضنا للمرة الأولى. فهذه الابتسامة الخجول بالرغم من أنها لا تجعل الوجه في صورته الأبهى، فإنها تكشف صورة القلب الذي لا يشيخ.

بدأت في السير حول البيت. عادة أقوم بهذه الجولة قبل تناول طعام العشاء. كي أتشارك مع أهل القرية في توقيت تناول العشاء

في تلك الغرف الزجاجية المطلة على الحديقة التي يتناولون فيها عشاءهم. بدأت أخترع وجبات جديدة، منها وجبة البطاطس مع الجمبري، مع قليل من الزبدة، والبهارات، وأضعها في الفرن لمدة نصف ساعة. أستغرق حوالي ساعة كاملة في الدوران في المربع حول البيت، نفس الطريق الذي قطعته في الأيام الأولى مع زوفنكو، ولكن أحيانا مع إضافة بعض الزيادات في الطريق من باب الفضول، أو التوقف من أجل كتابة إحدى الملاحظات. كنت أستشعر وحدتي جيدا وسط هذه الطبيعة والمروج والغابات، وأشعر بأني نقطة صغيرة جدًّا، ولكن هذا الشعور لم يسبب لي أي انكماش لذاتي. على العكس كانت هذه النقطة تنتظر أن تتحد بنقاط أخرى في الطريق، وفي الوقت نفسه كانت النقطة مكتفية بأنها نقطة لا تشعر بأي غيرة بجانب نهر الحياة المتدفق.

بدأت أدمن صينية البطاطس بالجمبري. كنت أخشى على وزني أن يزيد، فكنت أجهد نفسي في المشي حتى أفرغ مكانا لهذا الاختراع المسائي الذي أقوم به يوميا. بتناول العشاء أبدأ في مطاردة الأمل، تفرغ طاقتي الإبداعية سواء في الكتابة الصباحية أو التفكير في الوجبة المسائية أو في التحدث عبر الإسكايب مع زوجتي. بعدها أشعر بنفسي فارغة تمامًا، أذهب إلى نوم بلا أحلام. كان رصيد النفس من الأمل والاستمرار يتكون يوما بيوم، نقف يوميا في الطابور الطويل للبشرية وهي تنتظر نقطة أمل أو حماس تسقط على رءوسنا العارية لنبدأ في النشيد اليومي للحياة.

سمعت نقر زوفنكو على زجاج نافذتي. فتحت ضلفة النافذة

الزجاجية، تصاعدت رائحة صينية البطاطس بالجمبري، تشمم زوفنكو الهواء المحبوس الخارج من غرفتي، رفع أنفه لأعلى كأنه يطير وراء رائحة الطعام. ابتسم ثم أخبرني بأن هناك جلسة اليوم في غرفة الشمس الزجاجية لو أحببت أن أنضم إليهم. كانت التاسعة، فلملمت أشيائي وأخذت بعض زجاجات البيرة من الثلاجة وذهبت إليهم كما اتفقنا «بعد نصف ساعة».

توقعت وجود «جيرمان»، ولكن عرفت من ألجريد بأنه قد ذهب صباحا لمدينة كولون كي يقابل ناشره الألماني الذي ترجم روايته الشهيرة «أنا شيشاني»، والتي منحته شهرة عالمية جعلت الدعوات تطارده أينما حل. كان ألجريد مشتتا، غير مهتم بالحديث الدائر بيني وبين زوفنكو، ولا عنده الرغبة في الإمساك بأحد خيوطه، إلا فيما ندر. كأنه جاء رغما عنه وترك وراءه صفحات بيضاء مفتوحة تنتظر مداد أفكاره وكوابيسه وأشباحه وطيوره السوداء. دائمًا كان ألجريد يشعرني بأنه حاضر معنا بشكل جزئي، وأن هناك جزءا آخر يعيش بعيدا، ويريد أن يعود إليه سريعا.

دار الحديث بيني وبين زوفنكو حول رحلته الأخيرة للهند بصحبة زوجته الطبيبة، لحضور مؤتمر طبي. مكثا سبعة أيام منها ثلاثة أيام في المؤتمر، وبعدها أربع أيام لزيارة آثار ومعابد الهند. لم يقل زوفنكو كلمة واحدة إيجابية عن الهند. لم يتذكر سوى الزحام، والمياه الملوثة بالسلامونيلا، والباعة الذين يغالون في أسعار بضاعتهم، والشحاذين الذين يملأون الطرقات، والحرارة المرتفعة، والعربات القديمة المسرعة والتي تكاد تتصادم بعضها مع بعض، والطرق الضيقة بين

المدن، والتي سافرا عبرها لزيارة المعابد. وكلما أضاء السائق ليلا كشاف العربة ظهرت جموع الفلاحين وهم عائدون إلى بيوتهم بصحبة أبقارهم. «يا زوفنكو أريد أن أكون واحدا من هؤلاء الفلاحين العائدين بجانب أبقارهم، وأحد الذين سقط على وجوههم كشاف سيارتك المؤجرة».

في إحدى هذه الزيارات على الطرق السريعة، فرغ إطار سيارتهم المؤجرة من الهواء. عرض زوفنكو على السائق مساعدته، فأبى السائق وقال له: لا يصح أنت سائح. فخرج زوفنكو وزوجته من العربة لتخفيف الحمل على السائق، ولتدخين سيجارة. ووقفا على جانب الطريق بعيدا عن العربة بعدة خطوات. لحظات وبدأت العربات تتوقف في الطريق لمشاهدة زوجته الشقراء. أطفال وشباب وكبار، وكلاكسات عربات تطلق في الهواء، ويلوي راكبوها رءوسهم باتجاه هذه النقطة المقدسة في الطريق. تكونت مظاهرة على الطريق السريع بالقرب منهم، وتزايد عددها، وبدأت زوجته ترتجف من الخوف من كثرة العيون التي صوبت لجسدها، والعيون التي عرت هذا الجسد تمامًا. المهم أنهى السائق مهمته بسرعة، وأكملا رحلتهما.

الشيء الغريب أن زوجته أخذت بكاميرتها ١٠٠٠ صورة لهذه الرحلة، وكانت هذه النقطة بداية خيط الحديث بيني وبين زوفنكو، عندما سألته: هل تكتب يومياتك؟ لأنه كان يستخدم كاميرته الديجيتال باستمرار. رد: لا، للذكرى. وبدأ في شرح هواية وحب زوجته للتصوير، وكيف أفادته هذه الصور عندما طلبت منه إحدى المجلات أن يكتب عن تجربته في الهند. عند الكتابة استعان بصور

زوجته للتذكرة. وعندما سألته: ألم يعجبك شيء هناك؟ قال: الهند
بلد عظيم وكل من يكتب عنه يقول كلاما عظيما، وضم كفيه تحت
ذقنه، كعلامة الصلاة والتبجيل والاحترام لحضارة الهند، ثم أضاف:
ولكنه في النهاية رأيي الخاص وانطباعاتي الخاصة.

استغربت جدًّا أن لا تحب مكانا وتأخذ فيه ١٠٠٠ صورة، بالتأكيد
ستحمل الصور لمسة من سوء الفهم هذا. وعندما يكتب زوفنكو
عن الصور مقالا عن الهند، سيتحول سوء الفهم هذا إلى أفكار
وأحاسيس، فليست التذكِرة التي يقوم بها لتفاصيل بل لروح سائبة
خلف هذه التفاصيل. طوال إقامتنا كان زوفنكو يصور كل شيء، كل
لحظاتنا، أحسست أيضًا بأنه يصور كلامي. هناك أيضًا في مكان آخر
من العالم، رواية تكتب الآن، وأنا أحد أبطالها.

لم أرتح لكلامه، فلا التعظيم، ولا الرفض هما مكانا الكتابة عن
«الآخر» أيا كان. ربما تمسُّكه بخصوصية رأيه عند الكتابة، أو تمسُّك من
يعظِّم المكان بتسامح مجاني معروف سلفا؛ كلاهما به إزاحة لهذا الآخر
عن مكانه. كلاهما يبحثان عن نقطة محددة للكتابة عنها. أما لو تعرفت
على أحد من هناك، غير سائقي التاكسي، أو بائعي المياه المعدنية
الخالية من السلامونيللا، وأخذت تحكي بدون هذا الشعور المسبق
أو النقطة المحددة. «ربما لو لم تكن زوجتك جميلة وابنة الاستاذ
الجامعي المعروف في بلجراد، وأنت تعرف هذا يا زوفنكو، ربما كنت
ذاهبا لحمايتها هي وليس للتعرف على الحياة هناك، أو أنك أردت أن
تضيف لسجل نشاطاتك ككاتب زيارتك للهند وفهمك لها ولشعبها»،
ربما أخذت الحكاية تصنع دوائر من الحكايات الصغيرة، لتحيط بمعنى

غامض، هو جزء من تاريخ وخصوصية هذا المكان. دوائر لا تنقض على مفهوم مباشر أو سهل. ربما هنا تكون الهند قد ظهرت في ثنايا هذه الشبكة الغامضة من الذكريات والأحداث. صدق زوفنكو على كلامي. الحب يتجاوز هذه الثنائية النظرية التي فرضتهما إما تقديس الذات، وإما تقديس الآخر، للوصول إلى تسامح حديث هش.

ربما لم أوافق زوفنكو في كلامه عن الهند، لأن كل ما ينتقده هناك موجود في مصر. أحسست أن الانتقادات موجهة لي أنا. نفس التحذيرات للأجانب من المياه الملوثة، والزحام، والشحاذين، وخروج الفلاحين في الصعيد على الطرق العامة، وحملقة الناس في السيدات الشقراوات. ولكني قدرت صراحته ووضوحه. طوال حديثه يهز رأسه لليمين ليرفع خصلة الشعر المسدلة على جبهته. لمست خلف صراحته شيئا حقيقيا. ربما صدقه مع نفسه أكثر قوة وصلابة من صدقه مع الغير، ولكنه يمتلك هذه المرآة التي ربما تتحرك يوما ما في اتجاه آخر.

رن تليفون ألجريد المحمول، فأخرجه بسرعة من جيبه. تساءل زوفنكو بمرح: «زوجتك؟»، قال ألجريد وهو يضع التليفون على أذنه خارجا من الغرفة الزجاجية: نعم زوجتي. قالها بصرامة ليقطع خط الرجعة أمام ابتسامة زوفنكو المداعِبة، ففي هذه اللحظة لم يكن يتحمل الهزار. أكملت زجاجة البيرة على عجل، وأنهى زوفنكو كأس النبيذ، وانصرفنا بعد خروج ألجريد بعدة دقائق، فقد كان جو الحديث ملبدا وشائكا بعض الشيء، وبدأت تظهر فروقات في نظر كل منا للآخر. قال زوفنكو إنه يجب أن يغادر لأن شعره ما زال مبتلا

بعد استحمامه. صدقت على كلامه، وقلت جملتي الشهيرة: «إذن هيا بنا إلى العمل». لا أعرف السياق الذي اقتطعت منه هذه الجملة، ولكنها كالنبتة التي أنبتت سياجا حولها، وأصبحت جملة كونية تقف بجانبي وتحمسني، وتدفعني للحياة والعمل والكتابة في أي أرض.

الأعشاب المستحيلة

باعدت الثورة بيني وبين خط النهاية الذي كنت أشعر باقترابه الوشيك. لقد ألزمتني بأن أغير قناعاتي التي نشأت بالقرب من خط النهاية. كانت تتلبسني أحاسيس الخلاص، وتسليم العهدة. لم أصل لليأس، ولكن كان عندي أمل مراوغ، حدسي يروح ويجيء، تبعا لحساسية مكان الحدس بداخلي. كنت أجر هذا الأمل، وأشعر بعبء أن أتخلى عنه. كاد أن يتجمد هذا الأمل داخلي، ويتحول لعقيدة لها طقوس ولكن بلا روح. يمكننا أن نكفر بالأمل، دون أن نكفر بحدسنا.

هذا الأمل نشأ واقتات قرب خط النهاية. تلك الأعشاب المستحيلة التي تخرج عنوة بين أسفلت الكباري وحديده، تلك الأزهار التي تخترق الجدران الإسمنتية بدون أن تعي بأنها حية.

هناك مساحة قبل الموت، يمكن أن يعيش بها الأمل، ولكن داخل مجال الموت القريب كشهاب نفدت طاقته، وأصبح على وشك الانطفاء. لقد اتسعت هذه المساحة الآن. ربما ما أطلبه هو أن يعود لأملي طراوته، نسيانه، إلحاده، مرونته على أن يتشكل في صور كثيرة. أن يدفعني ولا أدفعه، لقد تعبت من أن أجر أملي خلف ظهري. لو كان أملا حقيقيا فسيقوم بهذه المهمة دون جهد، لأنه يرى الحياة الجديدة التي كتبت له بعد أن كان على وشك الموت. ستتوالى الحركات بدون تعب. أملي لا يصعد إلى السماء كالمسيح.

٧

استيقظت في حوالي الثامنة. لم أعمل على إيقاف جرس المنبه كعادتي لإضافة نصف ساعة أخرى، وهذا علامة جيدة بالنسبة لي، تشير بأن داخلي متيقظ أيضًا. تناولت إفطاري المكون من جبن وتوست، وقهوة باللبن، وراجعت أخبار الثورة في مصر على النت، ثم ذهبت في رحلة حول البيت. قبل أن أخرج بقليل سمعت دقات الجرس المعلق بالباب الرئيسي للنُّزل. كانت ريناتا جارتنا في البيت المجاور، والتي تعتني بالبيت، أخبرتني بأن عامل المدفأة المركزية سيمر عليّ بعد قليل لإجراءات الصيانة الشهرية. انتظرته، وصعد معي للدور الثاني حيث غرفة التحكم في التدفئة المركزية، والتي تقع ما بين غرفتي النوم تحت العلِّية، والتي تمر مواسيرها من تحت الأرض وتحت الجدران، ويوجد عداد ومؤشر لضبط الحرارة بجوار مدخل البيت.

عندما فتح العامل هذه الباب الصغير ظَهَرَ للغرفة، المليئة بالمواسير والعدادات الصغيرة، عمق لم أتوقع وجوده، وربما يفضي إلى غرفة سرية داخلية، كان يلجأ إليها المزارع وزوجته أصحاب البيت الأصليين أثناء الحرب العالمية الثانية. خصوصا أن بجوار القرية كان هناك أحد معسكرات تدريب الشباب النازي، وتلمح في الطريق عدة مخابئ، وأبراج كانت تستخدم أثناء الحرب كمنصات لمراقبة ومطاردة جنود وطائرات الأعداء!

لم يستغرق عامل الصيانة وقتا طويلا، حوالي ٢٥ دقيقة ثم أعاد عليّ تعليمات التشغيل وكيفية ضبط مؤشر الحرارة في العداد المجاور لباب الشقة. كان يتكلم الألمانية ويعتقد بأن الجميع يتكلمونها، ولكن لم أجد غضاضة في شرحه. فعلامات العداد كانت واضحة بما فيه الكفاية، وتترجم كلامه، لرفع أو خفض الحرارة، ليلا أو نهارا. أوضحت للعامل ملاحظتي حول ارتفاع درجات الحرارة بدون تدخل مني، وأن هناك «آخر» يتدخل في ضبط مؤشر الحرارة! ولكن يبدو أنه لم يفهم قصدي.

أثناء خروجي وجدت «جيرمان» واقفا على النجيل في البقعة التي تفرشها الشمس، وهو يقرأ في أوراق في يده. حييته، فحياني بسرعة، ولم يبد أي محاولة للاقتراب، فنحن لم نلتق إلا في ذلك اليوم وقبل سفره لإنجلترا مباشرة، وحدث بيننا سوء التفاهم حول الإسلام. ثم اعتذر عن تلبية دعوة الشاي مع زيليكا لإحساسه بالتوعك من أثر الطيران من مطار هيثرو في لندن أثناء عودته. ترددت قبل أن أتقدم نحوه، ولكني وجدت قدمي تأخذاني إليه. سلمت عليه مرة أخرى، وتبادلنا حديثا سريعا. تناوبتني شكوك بجفاف طبيعته، كان مشغولا أكثر بأوراقه وبالحفاظ على بقعة الشمس التي يقف تحتها وعدم الخروج منها. ولكن لم يؤثر هذا في رد فعلي الذي حاولت بقدر الإمكان أن يكون مرحبا، وودعته بابتسامة هادئة تتسع للشهور القادمة.

أخذت الطريق حول البيت. كانت هناك فجوات بين السحب الرمادية تتخللها أشعة الشمس. ووجدت مقعدا خشبيا على جانب الطريق الإسفلتي، في مواجهة أحد مراعي الخيول التي تكثر في هذه القرية. جلست للقراءة. سيكون هذا المقعد إحدى محطات

الاستراحة النفسية للقراءة والكتابة والتدخين، وأيضا لدفن أعقاب السجائر بحفرة صغيرة خلفها. مَقْدمي لفت نظر الخيول لي، فتجمعت خلف الأسلاك التي تسيج مراعيها. لم يكن بيننا إلا هذا الطريق الأسفلتي الصغير، وربما لم يقترب منه أحد لهذه الدرجة غير الكلاف الذي يعتني بها أو صاحبها. كنت كائنا غريبا بالنسبة لها لم تتعود على وجوده في هذا المكان. أخذت تنظر لي بدون أن توجه رأسها ناحيتي، وهي إحدى ميزات الخيول، والحيوانات بشكل عام تنظر لك وتحس بك بدون أن تلفت نظرك، أنها تحوط عالمك بهدوء.

في ذلك اليوم كان بصحبتي كتاب «مرحبا في صحراء الواقع» للكاتب السلوفيني سلافوي جيجيك. توقفت عند عبارته: «في التحليل النفسي، تحمل خيانة الرغبة اسما دقيقا هو: السعادة». هل السعادة هي عدم تحقيق الرغبة؟ أي أن الرغبة المنقوصة، وليست المتحققة؛ هي التي تسبب السعادة؟ أحسست براحة شديدة لهذا التفسير الذي سيجعل كل رغباتي المنقوصة وأي خيانات لنفسي معنى مقبولا اسمه السعادة. ولكن ظهرت أمامي شوكة في حلقي، فيمكن أن تفهم من الجملة أن السعادة قناع هش وكاذب لرغبات غير متحققة. يعني أن كل لحظات سعادتنا، لحظات مفتعلة، تغطية على رغبات غير متحققة، حتى كلمة السعادة يمكن التشكك في صحتها. أمام هذه العبارة المبهرة أحسست أن يومي أضيفت له كثير من المعاني من الجانبين سواء المتفائلة أو المتشائمة. طويت الكتاب على هذه الصفحة، كأني أطويه على كنز، يجب أن أطيل زمن الاستمتاع به. كأن أيضًا سعادتي هي تأجيل لزمن استمتاعي، وليس استنفاده مرة واحدة.

صباح الخير يا ناصر. أتمنى تكون أحوالك آمنة في الظروف الأخيرة. مرفق عمود الغد.. تحياتي.

الزمن يسير داخلي بدون رسالة

أشعر بأني أنتمي لجيل وسط تاريخي، جيل همزة الوصل بين القديم والحديث، ومكان الربط. لم أعش بكليتي أخلاق أي جيل، لا القديم ولا المعاصر، ولا القادم. كان لي جيلي الذاتي، والنابع من طبيعة الزمن الذي يجري داخلي. كنت أشعر بأني حامل الوجه الرمزي الشفاف لأجيال أقدم. كنت أشعر بأن الماضي يسير داخلي ليصل للمستقبل، فأنا لست إلا معبرا لأشكال من الحياة يجب أن تستمر. أشعر الآن بأن دوري، أنا وأشباهي، الذي لم يقلدني أحد إياه، قد انتهى. كان هذا الدور مسئولية شخصية، أعطيتها لنفسي. الآن أعيش مستمتعا خارج زمني. الزمن يسير داخلي بدون رسالة. أثق باللحظات التي تشتط فيها اللغة لتملي عليّ كلماتها، لأني أثق في لاوعي اللغة الذي بداخلي. أنه يعرفني جيدا، ويعرف ما لا أفهمه عن نفسي، هو الفيلم الحساس الذي تنطبع عليه أفكاري قبل أن تصل لوعيي.

يوم ٢٥ يناير كنا في الإسكندرية ليوم واحد، قادمين من سيوة، وفي طريقنا لبيتنا في القاهرة. هذا الترانزيت السريع تحول لإقامة لعدة أيام. اشتركنا في المظاهرات. وبعد أن أطلق الأمن المركزي الغازات المسيلة للدموع، اختبأنا أنا وزوجتي، مع مجموعة من المتظاهرين في شقة خالية بالطابق الأول من بيت يتكون من ثلاثة طوابق في حي سيدي جابر. كانت عيني ملتهبة، فسارعت إلى الحمام لأغسلها. كانت من الشقق القديمة

الخالية إلا من أثاث قليل. شاهدت على الحائط مجموعة صور لزواج ربما ترجع لحقبة الأربعينيات، وصورة فردية لأحد رجال الستينيات، كان التاريخ مكتوبا على الصورة. كان هناك مجموعة من الشابات والشباب في هذا المحبس. أحسست أننا في فيلم «في بيتنا رجل»، فقد كنا نتحسس وقع أقدام عساكر الأمن المركزي في الخارج، مثل عمر الشريف، ونتوقع الهجوم في أي وقت. طال انتظارنا. بادرني أحد الشباب في العقد الثالث «اقعد يا حاج استريح». لم أخيب ظنه وجلست على كومودينو قديم موجود في صالة البيت، فقد كانت قدمي اليمنى تؤلمني بشدة. صدمتني كلمته، ولكني استوعبتها سريعا.

أثناء المظاهرات كنت خفيفا، لا أعرف لأي سن أو لأي جيل أنتمي. هذه المسيرة الحاشدة، لم تكن تسير فقط في الحاضر، وإنما لها امتداد في الماضي، وفي المستقبل. إنها مسيرة عقود من الأمنيات لم تتحقق. كيف أحدد عمري وسط هذا الزمن المستعرض الآمل الذي يفرش غطاءه كخيمة على المسيرة؟ في لحظة ينزاح هذا الزمن الموحد بكليته، وينفكك، لينحاز للمستقبل، حتى بحساب من سيعيش فيه أكثر. لا يهمني كثيرا المكان الذي سأتقلده داخل جسم الثورة، أو زمن الثورة، حتى ولو كنت عابرا بها فقط، حتى ولو كان هناك سوء تفاهم في زمن اللقاء؛ فهناك دَين قديم مستحق كنت أسدده لنفسي. كنت أرى نفسي صورة داخل برواز ومعلقة على الحائط في هذه الشقة القديمة ذات السقف العالي.

٨

دعانا «جيرمان» على العشاء. في المرات السابقة التي صادفته فيها كان صامتا يجرجر الكلام بالعافية، كأنه يجر قاطرة ثقيلة تحمل حروف اللغة ومعانيها. شعرت بأنه مصاب بالاكتئاب. ما يضفي هذا الإحساس عليه بل ويؤكده، هو ضخامة جسمه والانحناءة الواضحة في ظهره، والتي لا تناسب سنه، وهي الهيئة الأكثر شهرة بين المكتئبين. منذ عدة أيام ذهب معنا أنا وزيليكا وزوفنكو وألجريد لشراء الحاجيات من السوبر ماركت في القرية المجاورة. كان صامتا طوال الوقت، وفي أثناء العودة، تقريبا في منتصف الطريق، أشار على زيليكا بأن تتوقف. كان طلبا مفاجئا. ثم نزل من السيارة وآثر أن يسير بمفرده للبيت، وطلب مني أن أضع مشترياته أمام باب الإستديو الخاص به بجواري. كان هناك بخار ما زال يتصاعد في صدره ويحب أن ينفثه بمفرده، وسط عربة صغيرة مكتظة بهواء خمسة أفراد. وهو ينزل من السيارة، لهذه المسافة البسيطة، كأنه يودعك وكأنك لن تراه بعد الآن!

ضم العشاء كلا مني وألجريد وزوفنكو وزيليكا، ثم سينضم لنا ضيفان غريبان للغاية. أعددت طبقا كبيرا من السلطة اليوناني مكونا من جبن الماعز وزيت الزيتون والطماطم وشرائح البصل الأحمر حلو المذاق مع أوراق تشبه البصل الأخضر. وأتت زيليكا برقائق مقلية باللحم المفروم. أما زوفنكو فقد جهز طبق مكرونة بالتوابل بالفطر.

في تلك الأمسية تحدث جيرمان كثيرا. تغيرت نظرتي تمامًا إليه. كان مثل زجاجة شمبانيا، نزعت سدادتها، فحدث دوي وخرج السائل فائرا فرحا ليغطي برذاذه وجوه كل الحاضرين. تحدث عن طفولته في روسيا، في جمهورية «الشيشان» بالتحديد، حيث موطنه الأصلي. كان يعمل هو وأخته في إحدى المزارع الجماعية القريبة من المدينة، التابعة للنظام الشيوعي، ليساهما في نفقات الأسرة قليلة الموارد. كانت وظيفته أن يجمع روث الحيوانات. ساعتها لم يفكر في شيء، لا في مهنته الوضيعة، ولا في الأجر البسيط الذي يتقاضاه، ولافي العمل الشاق الذي يقوم به. كان جسمه يعمل في المزرعة، بينما روحه تحلق في سماء الأحلام. كل ما كان يفكر فيه ويهوّن عليه حياته في تلك السنين، أنه يوما ما سيغير العالم. ويكمل حكايته: إنه عند ذهابه للجامعة، لم يجد ما يرتديه سوى سترة أبيه التي كانت أكبر بكثير من مقاسه وقتها.

عند هذا المشهد الدرامي الحقيقي تدخل زوفنكو، بوصفه يمثل الاتجاه الحديث في الأدب، المغترب عن أي عاطفة تقليدية؛ بشكل هازل وأداء تمثيلي: «كفى.. كفى.. سأبكي.. سأبكي». كان يتحدث وهو يضع يديه على عينيه ليسيِّل بإبهامه تلك الدموع الافتراضية التي سالت من كلام جيرمان. لم يتأثر جيرمان بسخرية زوفنكو، واستطرد في سرد تفاصيل حياته، خصوصا بعد تشجيع «زيليكا» التي كانت تستمع له بإمعان وبإعجاب خفي. بالنسبة لي بدأت عيناي تلمعان بتلك الشحنة التي قذفها جيرمان في وجوهنا. لم أكن أتوقع أن أقابل أشباها في الأحلام في هذا المكان البعيد. ألجريد كان أيضًا ساهما وهو يستمع «لبلدياته» منذ سنوات قريبة، قبل أن يحدث الانفصال وتستقل «بيلا روسيا» عن روسيا الأم.

«في روسيا لا بد أن يكون لكل شاب حلم». كان لجيرمان عدة أحلام، أحدها أن يصبح مغني روك، وبالفعل حقق حلمه وأصبح مغني روك. ثم حلم بأن يكون لاعب كرة قدم. في المدرسة الثانوية استغل المدرب قوة جسمه وضمه لفريق المدرسة في مركز المدافع الأيسر. في بداية المباراة ناداه المدرب، وأشار له على مهاجم الفريق الآخر وقال له بصريح العبارة «اقتله». فما كان من جيرمان إلّا أن قتله، فطرده الحكم على الفور في الدقائق الأولى من المباراة لخشونته المفرطة.

على ذكر سيرة أحلام الطفولة والشباب، وجه ألجريد سؤالا لي ولزوفنكو، عن أحلامنا في فترة شبابنا. قال زوفنكو: لا شيء.. لم تكن عندي أحلام. صدقت على كلام زوفنكو وقلت لم تكن لي أيضًا أحلام، كنت شخصا مثاليا وكفى. شخص مثالي بلا أحلام، كأن المثالية تغني عن الأحلام، أو هي نفسها حلم بلا صورة محددة. لم تكن لأحلامي أي شكل تتجسد فيه. استغرب ألجريد من أن هناك أناسا على ظهر البسيطة لم تكن لهم أحلام بالمعنى الذي يعرفه، هم أصحاب الأحلام المفرطة في الأدب. توقعت بعدها أنه عندما سيكشف عن سر حلمه، أنه سيفاجئنا بأحد الأحلام المستحيلة مثل أن يصبح رئيس جمهورية مثلا، مثل الحلم الذي سمعته من أحد اليساريين في مصر من الأجيال السابقة من أصحاب الأحلام المفرطة. على العكس تمامًا كان حلمه أن يعمل سائقا لعربة نفايات. وهنا تدخل زوفنكو الذي لا ينسى أبدا كونه كاتبا «الأدب أيضًا هو جمع لنفايات من الطريق».

قرصنا البرد، فقد وضعنا عدة ترابيزات في الساحة الخارجية، بين

الإستديوهات، تناولنا عليها العشاء، فقامت زيليكا وأحضرت بطانية من عربتها المركونة أمام البيت. ضحك جيرمان لسلوكها وهو الذي كان يرتدي فانلة نص كم، ونصف زجاجة مارتيني في قلبه. ردت زيليكا على ضحكته بابتسامة «أنا ألمانية». تقصد أنها تحتاط لكل شيء، وتتوقع دائمًا أن الأسوأ سيصادفها. ولكنها قالت الجملة كأنها فرحانة بهذه الهوية، بالرغم من أنها تتكلم عن أحد مساوئها أو محطات خوفها. دخلنا لنكمل حديثنا في غرفة الشمس الزجاجية، منجذبين للدفء الذي يشعه الاسم. الدفء جعل جيرمان يقفز بالحديث ليتكلم عن زوجته بعد أن وصل تقريبا للكأس العاشرة من المارتيني. وبعد أن سطعت شمس منتصف الليل في الغرفة الزجاجية. عندها تحول وجهه إلى وجه طفل، وغاص أكثر بجسده الضخم في كرسيه، كغريق فقد الأمل في النجاة، وبدأ يهذي بحب يخشى من ضياعه.

في تلك الأمسية قام جيرمان بطهي طعام العشاء كاملا. كان يدور علينا بطبق الأرز والفراخ. أحببت الأرز الروسي قبل أن آكله، بالرغم من تشابهه مع الأرز في أي بيت مصري. عندما قرأت توفيق الحكيم في كتابه «تحت شمس الفكر»، في فترة وجوده في باريس، عندما التقى بحكيم روسي كان يأكل أرزا طوال الأيام، ليوفر نفقاته، وليترك المجال لروحه لتكون عضوا أساسيا في فرق الأوركسترا التي كان يحضر حفلاتها يوميا في الأوبرا. أحسست بأن الأرز على بساطته طعام ملائكي له علاقة بالموسيقى والزهد والأرواح المحلقة في الآفاق.

استثار دفء العائلة ألجريد، وشمس منتصف الليل الساطعة؛ فشرع بالحديث عن زوجته، بأنها ما زالت تحبه ويحبها بعد عشرة

سنوات من الزواج وطفلة. عندما تقدم لها لم يكن يملك شيئا سوى باقة ورد رفعها إليها وهو جاث على ركبتيه، وقال لها في هذا المشهد المقدس بأنه لا يملك شيئا في هذ العالم سوى الكتابة، فقبلته. قبلت به لأنها تراه «أحسن كاتب في العالم»، أضاف ألجريد بحرارة روسية، أو بيلا روسية، هذا الصوت العميق المكتوم، بلا صدى، الكلمات تملأ تجويف الفم بلا زيادة أو نقصان.

تدخل «جيرمان» متهكما على بلدياته السابق «وهل ما زلت تقدم لها وردا حتى الآن؟». لم يرد ألجريد بل أشعل غليونه، بدلا من الرد. كان جيرمان حائرا وخائفا من طول فترة غيابه عن زوجته، فالمنحة تأخذ أربعة شهور، مضى منها شهر واحد فقط بالنسبة له. قالت له وهي تودعه في المطار: «أنا صغيرة ماقدرش أستحمل تغيب عني كتير، بعد كده مافيش سفر لمدة طويلة كده». كانت دموعها تبلل وجهه. أعاد لنا جيرمان حديث زوجته، ومكالماتها الحارة اليومية. كان فارق السن بينهما ١٣ عاما، فجيرمان في الثامنة والثلاثين، وزوجته في الخامسة والعشرين. كان يردد أمامنا كورد في صلاة «إنها تحبني.. إنها تحبني»، ثم أضاف: «أهم شيء أن تكون واثقا بنفسك». عند هذه الجملة المفتاح تهلل وجه زوفنكو، لأني أعتقد أن ثقته بنفسه شيء سابق على أي معرفة سواء بزوجته أو أصدقائه، أو حتى بنفسه.

آمنت «زيليكا» على كلام جيرمان، كالعادة، ثم أضاف: «حتى ولو هجرتني، سأعيش حياتي من جديد». انحياز «زيليكا» لكلام جيرمان له مبرر قوي في حياتها، فقد انفصلت عن زوجها الأيرلندي، ودائما ما تشير لأهمية فكرة الاستقلال الذاتي. كنت أحدس في كلامها نوعا

من قلة الحيلة، فهي الآن في منتصف العقد الخامس تقريبا، وربما لا أمل لها في إقامة علاقة جديدة، فهي مكتفية بتربية ولديها، فالذكر الذي تعيش في كنفه الآن هو النظام الألماني الدقيق، والذي قالت عنه: «أنا سعيدة لأني ولدت في ألمانيا»، فهذا النظام بدقته الفائقة وتوجسه الدقيق منحها أمانا جعل فكرة الاستقلال الذاتي ممكنة بدون مواجهات عنيفة مع نفسها أو مع الحياة المحيطة. أمان ما قبل التجربة.

زوفنكو كان قليل الكلام في هذه الليلة، كان متوحدا مع زجاجة الويسكي التي أتى بها، لكنه لم ينس أبدا أنه كاتب مشهور في بلده، فبين الفينة والفينة عندما يفقد الحديث المرساة ويتبحر في أفكار شفافة، عندها يحول نظره لزيليكا، ويوجه لنا الحديث «يجب أن نغير الموضوع من أجل زيليكا». يقصد أن زيليكا بعيدة عن هذا المجال الروحي للكتَّاب وموضوعاتهم الشخصية الأثيرة وربما تشعر بالملل. كان يضع دائرة حمراء حول حدود هذه الجماعة الأدبية، لا يريد أن تتماهى حدودها مع العالم المحيط العادي الذي تجلس فيه زيليكا، التي كانت تستقبل كلامه بهدوء، وهذا أهم ما يميزها «دي هموم بتخص كل الناس مش الكتَّاب بس»، وتضيف: «أنا بحب الحديث في الأدب». كان الحديث مشحونا بعاطفة الغياب عن البيت والوطن، قوي في اندفاعاته كفوران زجاجة بيرة ألمانية.

خلال يوم واحد فقط، أو كما يقولون بين عشية وضحاها، أصبح كتاب جيرمان المغلق مفتوحا في صفحاته الأولى، أقرأ فيه بوضوح لا لبس فيه. لقد نزعت سدادة الزجاجة، وخرج السائل رائقا، وظهر

الطفل البريء الذي بداخله. أضاف ألجريد مؤمنا على هذا الجو الإنساني الذي نعيشه هنا: «هذه أفضل صحبة أدبية قابلتها». هنا تدخل زوفنكو: «السبب أننا كلنا لنا عقول مفتوحة». وربما كذلك لأننا جميعا نملك قلوبا مفتوحة.

صباح الخير يا ناصر.. أتمنى أن تكون بخير. مرفق عمود الغد.. مودتي.

علاء

ستارة الدموع

دائمًا في المواقف الجماعية ما تُسدل على عيني ستارة عابرة من الدموع. تتحرك ببطء كأنها ستارة مسرح. هناك اعتقاد قديم لديّ، ولا أعرف كيف تسلل إلى تفكيري، بأن كل المشاعر الدقيقة تأتي دائمًا من حفرة عميقة داخل النفس، وتصعد بقوة مضادة لقوة الجاذبية. هذه الحفرة التي ستشهد المئات من الاحتدامات والمعارك والانقباضات والصراخ والصمت.

للجموع قانون جاذبية أقوى من أي قانون داخلي لظهور تلك المشاعر الخبيئة. إنها تنزعها من مطرحها عاليا وتلوح بها كشارة النصر، ثم تتركها لتسقط بنفس السرعة التي لا يمكن مجاراتها فيها. من منا لا يود أن يخفي دموعه، أو يمسحها بسرعة يد سارق، قبل أن يراها أحد. ربما هذه الدموع، التي تحركها الجموع، كانت مختزنة في اللاوعي الجمعي الذي يشغل عادة مكانا عاليا ومبرزا داخل النفس. في تلك المواقف نستنفد هذا المخزون من الدموع في هذه السماء الجماعية التي امتلأت بالمطر عبر عصور وعصور. هناك اعتقاد لدى المصريين بأن النيل ينبع من السماء، وهذا اللاوعي الجمعي أيضًا كالنيل ينبع من السماء، من الأحزان القديمة لهذا الشعب.

في أثناء المظاهرات لم تنتشر على عيني هذه الستارة ولا مرة. كانت الدموع تتحرك تحت زجاج العين وليس خارجه، تتحرك خلف خشبة

المسرح، كدواء ملطف ضد الالتهابات المزمنة. وضعت الجموع غطاء زجاجيا شفافا على هذه الحفرة النفسية. حتى في يوم التنحي، وأنا أسير وسط حشود ميدان التحرير، حاولت أن أجامل هذه الوجوه الباكية التي كانت تعبر سريعا بعيني كأني أقف في نافذة قطار. كانت الدموع عصبيَّة، كأنها تقول لي «هنا ليس مكاني»، وربما للمرة الأولى ألحظ نضج غياب الدموع.

٩

قبل العشاء الذي دعانا إليه جيرمان، بقليل، حضرت جارتنا العجوز في البيت المجاور هي وابنها، وهما اللذان قابلتهما منذ عدة أيام في ندوة القراءات الخاصة بزميليّ في المنحة زوفنكو وألجريد في نادي «الأسود» بمدينة دورن. حضرا العشاء بدون دعوة كأن جيرتهما للبيت تمنحهما الحق في الدخول والخروج في أي وقت وأي موعد! كانا يسكنان في فيلا تبعد عدة أمتار عن البيت، وسط صف من الفيلات الأنيقة المشابهة ذات الطابقين، ويفصلها عنا هذا الطريق الإسفلتي، ولهما أرض مزروعة أمام فيلتهما ومجاورة لنزل هاينريش بُل، لا يفصلنا عنها إلا سور رفيع من السلك. كانت السيدة تذهب خصيصا للعمل في أرضها وللعناية بها كي ترى صاحب نوبل كل صباح عن قرب وهو يتجول في حديقة بيته، حيث نجلس الآن. كان هاينريش بُل، كما ذكرت السيدة، شخصية متحفظة يحافظ على مسافة مع الآخرين، ربما كان يستمع لفلاحي القرية، ولكنه قليل الكلام. تحدثت أيضًا عن المشاهير الذين حضروا لزيارته: هيلموت كول مستشار ألمانيا الأسبق، والأديب والمعارض الروسي ألكسندر سولنجستين الذي تم تصويره أمام الشقة التي أسكن بها الآن، وأشارت السيدة للشقة.

أحبت السيدة الأدب من أجل جارها الأديب صاحب نوبل، احتفظت له بـ ١٢ سيرة ذاتية تتكلم عن حياته، كأنها تريد أن تخترق

هذا الجسد القريب منها، وترى مسارات الحياة ونقاطها المضيئة والمظلمة بداخله. وكما تصرح دائمًا بأنها تعتبر المرجع الحي العائش حتى الآن لهاينريش بُل. وربما هذه الجيرة هي التي منحت حياتها وذاكرتها معنى وقوة وثباتا، في الوقت الذي بدأت فيه أعطاب الذاكرة تهاجمها في أنواع أخرى من الذكريات. ما زالت حزينة حتى الآن لأنها لم تحضر لحظة وفاة أديب نوبل، فقد كانت مسافرة في اليونان مع زوجها، الذي رحل، وعلمت من هناك بنبأ وفاته. كان هذا منذ ٢٦ عاما في ١٦ يوليو ١٩٨٥ أثر عدة عمليات أجراها في ساقه وعاد بعدها لهذا البيت الريفي ليودع الحياة من هناك. وذكرت السيدة جملته الشهيرة بذاكرة حديدية قامت زيليكا بتصويب بعض كلماتها: «لقد عرفت أن الحرب لن تنتهي أبدًا، طالما ظل ينزف في مكان ما جرح سببته هذه الحرب». هذا الجرح المستيقظ الذي تحدث عنه أديب نوبل، ظل يرافقني أثناء مكوثي هناك، أبحث عنه وأتحسس دماءه السائلة بأثر رجعي في الحياة من حولي وفي داخلي.

أثناء العشاء أمدتني السيدة بمعلومات عن تاريخ المنطقة والقرية، وعن الشقة التي أسكن فيها التي كانت ملكا لزوجين من الفلاحين لم يكن لهما أبناء، وأعادت عليّ القصة المكررة، وعن ذهابهما لدار المسنين وشراء هاينريش بُل للشقة، ليضمها للإستديوهات الأخرى ويصنع هذا النزل الفكري. ولكنها أضافت أيضًا حكايات ومغامرات أخرى حدثت في هذه الشقة انتهت إحداها بمأساة!

كان لهاينريش بُل أربعة أبناء، مات اثنان مبكرا، والآخران عاشا، أحدهما كان نحاتا. وعندما سألتها عن سر وجود هذه الكتل الصخرية الكبيرة الخام المتناثرة في الحديقة حيث كنا نجلس، قالت إنها تخص

الابن النحات، ولكنه لم ينحتها، فظلت في مكانها بعد أن مات الأب وترك الولدان القرية. تشعر بغرابة وجود هذه الكتل الصخرية الخام، ولولا حكاية السيدة لقصة هاتين الصخرتين، لتخيلت أنهما صخرتا عذاب هاينريش بُل اللتان كانتا يضرب فيهما رأسه، أو أنهما كضلعي هيكل قديم كانت تقام فيه الصلوات وتقدم الأضحيات. فلونهما الأسود ونمو الأعشاب عليهما أحالهما لمعنى شعري ضارب في القِدم.

أيضًا هناك تمثال خشبي آخر يقع في نهاية الحديقة، بالقرب من أرض الجيران المزروعة بشجر التفاح. تشعر بأن هذا التمثال الخشبي مستبعد ومهمل. أيضًا سألت السيدة هل هذا التمثال قد قام الابن بنحته؟ أجابت بقوة: لا. التمثال يشبه جسد امرأة له استدارات وبروزات عدة. تشعر بأنها امرأة لها أكثر من ثدي، أحدها في قدميها والآخر في ركبتيها. وربما تراه أيضًا ككتلة أنثوية غير منظمة، وهذه البروزات مثل دروع ضد شيء خارجها. هذا المعنى الأخير هو ما فطن أو فهمه هاينريش بُل عندما رأى التمثال، كما تقول السيدة، والذي أتى به أحد النحاتين إهداء لصاحب نوبل، بعد حصوله على الجائزة عام ١٩٧٢. لقد رأى هاينريش بُل فيه حسا ذكوريا طاغيا، عبر كل هذه البروزات، وهو ما كان يقف ضده في حياته وأدبه. ليس هذا فحسب، ولكن الطامة الكبرى التي جعلت هاينريش بُل يقصي التمثال على أطراف الحديقة كابن منبوذ، أنه عندما أخذ بالدوران حول التمثال لمح صليبا غائرا داخل هذه البروزات الكثيرة كأخدود. ربما لم يكن مقصودا من النحات أن ينحت هذا الصليب، ولكن بقايا البروزات وكثرتها تركتا في الخشب هذا الصليب الغائر، وربما العقل الباطن للنحات ترك آثاره على الجسد ووضعه على الصليب. هنا

استشاط هاينريش بُل غضبا، فكل حياته كانت مكرسة، مثل نيتشه، ضد المسيح والكنيسة والمؤمنين والتقاليد البالية، لذا كان محاطا بموجات من الكراهية من أبناء تلك القرية الأثرياء المحافظين، ولم يكن محبوبا سوى من الفلاحين البسطاء.

قبل وصولهما للبوابة الخشبية للنزل، عرفت بمقدم السيدة من صوتها القوي، كانت تسير بمسند يحوط جسمها وله عجل، وأحيانا كانت تستخدم عصا معدنية، وهو المسند الذي يصاحب كبار السن المنتشرين بقوة في القرية. تحتك العجلات الصغيرة بالمربعات الصخرية للأرض، فتصدر صوت أزيز له تأثير عصبي. كنت ما زلت بغرفة المكتب، أزحت طرف الستارة الحمراء فرأيتها من ظهرها. نزل جيرمان للجلوس معها، وانضم اليهم ألجريد وزوفنكو، ولكني آثرت عدم الخروج، ربما خجلا. دقائق وجاءني زوفنكو بحسه الأبوي الذي أحبه، ونقر على زجاج غرفة المكتب، ودعاني للخروج. كنت محتاجا لمثل هذا النوع الأبوي من التشجيع. ابن السيدة الذي لحقها بعد ذلك مهندس في حوالي الستين، غير متزوج، ويعيشان سوية في هذا البيت. مهنته صناعة ورق البنكنوت وتصديره لأمريكا، فالقرية والقرى والمدن المجاورة مثل مدينة دورن، بها العديد من مصانع الورق. يبدو السبب في كثرة الغابات واستخدام لحاء الأشجار الكبيرة لاستخلاص مادة السيليولوز المهمة في هذه الصناعة. يهوى الابن أيضًا التصوير الفوتوغرافي، وقد زار مصر، وأراني صورا جيدة، صحبها معه لمعرفته بوجود كاتب مصري جديد، أبيض وأسود، التقطها في معبد أبيدوس بسوهاج.

حالة من الحالات البائسة في الحياة، ابن تجاوز الستين يعيش،

في قرية نائية، مع أم تجاوزت الثمانين، وتعاني من أعطاب في الذاكرة، فأحيانا تتذكر كل شيء، وأحيانا أخرى تنسى كل شيء، لذا لا يفارقها أبدا هذا الابن، كما أخبرني، فأعراض النسيان تأتي مصاحبة برعشة واكتئاب، وعدم اتزان في الحركة. وكنت مستغربا من أنها تحفظ كل شيء عن مرضها بدقة، بالرغم من حالات النسيان الطويلة التي تنتابها وعندها لا تخرج من البيت، ويتولى الابن رعاية هذه الذاكرة المسافرة.

الابن كان يخيفني قليلا عندما يتكلم. تشعر بوجود جني صغير لم يأخذ حقه في ممارسة الشر. له وجه مستطيل عليه ذقن رمادية مشذبة بدقة يتخللها اللون الأبيض، وبدون شارب، وعينان زرقاوان دائريان مثل أمه، عليهما نظارة مربعة شفافة تزيد العين وضوحا. يرتدي ملابس كلاسيكية، جاكت بدلة مربعات صغيرة ومن تحته قميص يغلق أزراره حتى الحلق. للابن ضحكة غريبة، هادئة ولكن لها رنين، كأنها تخرج مصحوبة بلغز لا يعرفه سواه. يداه كمنجلين يحركهما باستمرار ليحش الأعشاب الضارة في الطريق، فأصابعه الحادة والصغيرة والمتصلبة التي تتعامل مع ورق البنكنوت الحساس، يحركها بقوة ذات اليمين وذات اليسار كأنه يقلب قطعة لحم على شواية. أما الأم فقد غارت عيناها للداخل قليلا، ومر على منطقة العينين خطوط عرضية من التجاعيد تبدأ من الأذن وتنتهي عند الأذن الأخرى كأنها عُصابة على العين. نفس العُصابة من التغضنات والكرمشة تتكرر عند منطقة الفم. وترتدي ملابس كلاسيكية، جاكت مربعات كبيرة أحمر وأبيض، من تحته بلوزة حريرية وتايير أسود من أسفل. الجزء

المشترك بين الأم والابن هو تلك التقطيبات الثلاث مابين الحاجبين، شديدة الوضوح عند الأم، تشير للمكان الوراثي المشترك بينهما. في هذه الجلسة شعرت بأني في حضرة أجاثا كريستي أو أحد أبطالها من أصحاب الألغاز الساحرة.

صباح الخير.. مرفق عمود الغد.
تحيات وسلامات من ألمانيا الممطرة.

صورة جماعية

لم تخل المظاهرات، في الأيام الأولى للثورة، من الرغبات الشخصية، برغم أنها تتحرك باتجاه موت معلق في الهواء، إلا أن رغبة الخلود لم تغب. لأول مرة كانت هناك رغبة جلية من الجميع بأن تؤخذ لهم صورة، يقفون أمام الكاميرات بلافتاتهم، بل ينادون من معه كاميرا ليصورهم، يريدون أن يكونوا عنصرا من صورة كبيرة كانت تتكون في تلك اللحظة. وهي حالة جديدة في مصر. ترافقت رغبتا الفرد والجموع. كانا من قبل على طرفي نقيض لسبب بسيط هو أن الجموع كانت «صورة» للجموع وليست جموعا حقيقية بالمعنى الحادث الآن في مصر. كانت غائبة على المستوى الفعلي والحياتي والشعوري. وأيضا كان الفرد «صورة» للفرد، حدوده تتكون كرد فعل سلبي لهذه الجموع السائبة التي كانت تسمى في الثقافة الرفيعة بالقطيع. كان الفرد، أو أي فردية، تخشى طغيان هذا المفهوم، تدافع عن نفسها، وتكونت أدبيات كثيرة مولودة من رحم حالة الدفاع هذه.

في العادة كان من تؤخذ له صورة يسألك عن الميعاد الذي ستأتي فيه لتسلمه إياها. حتى ولو كنت كاذبا أو مجاملا، فسيصدق بأن صورته سترد له وسط هذا الطوفان البشري الذي يلغي المكان والزمان، ليبرر أمام نفسه لحظة التخليد الزائلة التي شاركها مع آخرين. تتحدد مواعيد وتؤخذ عناوين، ثم يتلاشى كل هذا. تذهب هذه الأوراق الصغيرة التي كتبت فيها العناوين مع الأوراق التي توزع من طرف ائتلافات عديدة تضيع

فيها مبادئها ومطالبها ومخاوفها وتختفي. الجميع كان يريد أن يوقع بصورته في دفتر حضور الثورة. حالة استعراض ولكن مدفوعة الثمن، صورة خالدة بإطار مذهب من الموت المتوقع. في الأيام الأولى للثورة كان هناك موعد نفسي قابل للتصديق، ولا يقبل المساومة أو التسويف. كانت الثورة ميعادا مفتوحا للجميع.

١٠

يوميا كنت أستيقظ مبكرا، أقوم من النوم وبداخلي فرح صغير في بداية اليوم الجديد. أهبط من الدور العلوي حيث أنام للدور الأسفل حيث أكتب. هذا الانتقال من مستوى لآخر أسعد به، وأحيانا أخلق أعذارا تافهة للصعود للطابق العلوي مرة أخرى والنزول منه عدة مرات في اليوم. لا أعرف السبب بالضبط، سوى أنه نوع محبب من استنفاد الوقت. أبدأ بتجهيز إفطاري، أضع شريحة التوست في «التوستر»، وأجهز غلاية القهوة لأستقبل أول رائحة في يومي بعد معجون الأسنان. أنتظر صوت التوستر وهو يلفظ الشريحة لأعلى. أتحرك داخل مجال وحيد، أستمتع به، أصطدم بحدوده القريبة، كل تماس يولد أحاسيس دافئة يحملها هواء ساخن، تتجاوز هذه الحدود بمراحل. وحدتي هنا بلا حدود، وربما لهذا السبب أستمتع بها.

وأنا في طريقي لغرفة المكتب لبداية يوم العمل، في أحد الصباحات، وتصفح أخبار الثورة في مصر، أزحت الستارة الحمراء الطويبة كالعادة التي تقع على يمين المكتب. لمحت جيرمان يقطع المساحة الخالية المسفلتة بالطوب الصخري والتي تتوسط النزل جيئة وذهابا. كان مرتديا ملابس سوداء كاملة. البنطلون والقميص، والحذاء، حتى النظارة. كانت أناقته لها شكل محدث في سوداويته. كان في انتظار التاكسي الذي سيقله لمحطة القطار ومنها لمدينة

كولون حيث سيقضي يومه هناك. تبادلنا حديثا قصيرا وتمنيت له يوما سعيدا في كولون. كانت الشمس ساطعة وحاضرة بقوة داخل المستطيل الذي يتحرك فيه. ومرة واحدة يبدو أنه نسي التاكسي وغيره من الأمور، وخلع الجاكت ثم خلع قميصه وفرد ذراعيه، ليستمتع بتلك الشمس النادرة في أوربا وفي روسيا بالتحديد. كان منظره مثل إنسان ليوناردو دافنشي الذي رسمه فاردا ذراعيه، وفارجا قدميه، وهو الوضع الهندسي الأمثل للإنسان، حيث تنفك كتلته الرأسية وتتحول إلى خطوط وزوايا دائرية مستعيدا دورانه مع الكون.

جيرمان بنصفه الأعلى العاري ذكرني أيضًا ببطل فيلم تاركوفسكي «أندريه روبليف»، الذي خلع قميصه عندما أمطرت السماء، وظل منتشيا وهو يتلقى هذه الجرعات من السعادة وهي تتساقط على جلده العاري في عز الشتاء. عدة مرات ألمح جيرمان واقفا في شباكه في الطابق الثاني عاريا بنصفه الأعلى بينما تمطر بغزارة. كان يصطاد طرفي الطبيعة: الشمس والمطر وهو عار، اللحظتان اللتان يشعر فيهما بميلاد جديد، وأي ميلاد جديد يحتاج لعري، حتى ولو كان لدقائق. علاقته بالشمس كأنها صديق لم يره منذ زمن بعيد، يتحسس نبضه ويحاول أن يستعيد علاقته به، يخلع له ملابسه، لتنطبع بصمته بقوة على جلده.

دقائق ووصل التاكسي، ورمى لنا جيرمان بابتسامة وحيانا بأطراف أصابعه كحاوي بعد انتهاء حركته الساحرة.

قررنا ثلاثتنا، أنا وزوفنكو وألجريد، أن نخرج فترة ما بعد الظهر للتنزه في الغابة المجاورة لنتناول وجبة خفيفة هناك. الاقتراح كان من جهة زوفنكو، والسبب أن ألجريد سيسافر بعد يومين إلى هامبورج

شهور يقضي فترة الأعياد مع زوجته وابنته، بينما زوفنكو سينهي المنحة بعد أسبوع تقريبا، بما يعني أن هذا اللقاء هو آخر لقاء بينهما.

ذهبت بمفردي إلى كيرتساوا لشراء بعض الحاجيات الخاصة بالنزهة ومنها شرائح من سمك السلمون المدخن التي يحبها ألجريد. أعددت سندوتشات لي ولألجريد الذي أعلن لنا أن ثلاجته خاوية قبل السفر لهامبورج. كل العلامات التي مررت بها كانت مختلفة هذه المرة، فأنا في مهمة شخصية، وأسابق الوقت، لأصل مبكرا لأجهز الطعام. خلال هذا المشوار السريع فقدت حاسة الضيف المتأمل.

تمددنا على العشب، صحبت معي بطانية كنت قد اشتريتها في أحد التخفيضات. بدأ الحديث بيننا متشعبا في كل شيء، حكيت لهما عن الصحراء في مصر، وعلاقتي بها، ومدى اختلافها عن الغابات وهذه المساحات الشاسعة من الخضرة. وسط الغابات تشعر بأن الطبيعة تطردك خارجها، فأنت زائد عليها في كل الأحوال، لا تحتاجك. ربما الصحراء تشعرك بنفس الإحساس، ولكن ليس من ناحية الجمال الشخصي المكتمل لها، ولكن من خلال حضور عضوي لإحساس النهاية، الزوال الذي يفرض نفسه على الإنسان داخل هذه الصحراء المتقشفة. من يجوب الصحراء، يحاول أن يتجاوز إحساس النهاية هذا ليجعله مألوفا، لذا يعيش تجربة روحية عميقة للغاية في سبيله لهذا التجاوز، بدون رغبة منه في إثبات أي شيء، وكذلك بدون انفصال عن ذاتيته، التي تذوب وسط هذه الرمال.

أما الغابات وهذه المساحات الطبيعية الجميلة فهي ترمز بأنها أبدية، وليس هناك عالم آخر أكثر جمالا يقف وراءها، لأن الجمال

كله تحقق داخلها. هناك فارق طفيف بين الأبدية والنهاية. ربما أبدية الغابات، والطبيعة الصلفة بشكل عام، تفرض على الإنسان الملفوظ خارج حدود جمالها بأن يسلك مثل «الابن المنبوذ» الذي يسعى لكي يفرض رأيه وذاتيته وفرديته على الطبيعة. أما الصحراء، فقسوتها وصلفها باطنيان، لأنها غير متبرجة، فتدعو إنسانها بأن يتصالح، بل ويغوص، مع هذه النهاية. بأن يكون بقدر الإمكان قريبا من الخط الذي سينتهي عنده السباق، ومتشوقا لرؤية، أو خائفا، من تلك المساحة التي يقطعها العداء، بخطوات لاهثة، بعد خط نهاية السباق الطويل.

كان هذا ملخصا لحديثي ومقارنتي بين الغابة والصحراء. تشعب الحديث أيضًا إلى النساء، فقد سأل ألجريد، بعفوية، لماذا لا يستضيف بيت هاينريش بُل نساء كاتبات؟ رد زوفنكو: «عشان عايز تنام معاهم طبعا؟». فاحمر وجه ألجريد من الخجل، مع ابتسامة حيية، وأخذ عدة أنفاس متتالية من الغليون الذي لا يفارقه، ومعه زجاجة الفودكا. ألجريد عنده حق، فالقرية النساء بها قليلات للغاية، وأغلبهن كبيرات السن. توجد روح أنثوية غاربة، لا توجد أي مظاهر لغنج وشبوبة. تسلل الحديث إلى زيليكا. بدأت شعائر النميمة الرجالية. قال ألجريد ساخرا إن جيرمان قال لها: «أنت ملكة بيت هاينريش بُل». حدث هذا قبل مجيئي، ويبدو أن لهذا السبب عندما حضرت زيليكا لتناول العشاء معنا في اليوم السابق، جاءت وهي تعرف ما يدور تحت قشرة هذه العقول الأدبية من أفكار، فكان الجزء العلوي من صدرها مكشوفا بمساحة مثلث سمح متساوي الأضلاع. ضحك زوفنكو من ملحوظة ألجريد، وقال يبدو أن جيرمان يريد أن ينام معها.

بالنسبة لي «زيليكا» خارج صنف النساء المفضلات، بالرغم من أنها تصغرني بعدة سنوات، إلا أني أشعر بأني أصغر من هذا الوجه بكثير، وأستحق إحساسا أنثويا مختلفا أكثر شبابا. ربما هو خطأمني في تقدير عمري الخارجي. ثم انزلق الحديث أكثر عندما قال زوفنكو إن جيرمان ربما ذهب لكولون لينام مع امرأة في أحد الفنادق. وعقب على هيئته قبل السفر، ولباسه الأسود ونظارته السوداء، مشيرا بخبث أنه يعد نفسه لمقابلة خاصة.

بينما نحن نحتسي البيرة وممددون على العشب، أمطرت السماء. مع كل زخات مطر وسط سحب رمادية يقفز اسم تاركوفسكي، عراب هذا التطهر الطبيعي. كان رأي ألجريد ابن بلدته فيه سلبيا بشكل ما. قال إنه مخرج كبير، ولكنه ليس المخرج المفضل له. يمكنني أن أحدس سبب عدم حبه لتاركوفسكي، ربما لأن أفلامه تمثل روسيا الباحثة عن حقيقة الإيمان والشك بشكل عام، وهو يرى هذا الاتجاه دينيا ولا يمثل جيله، فهو لا يؤمن بأي عقائد، وصدق زوفنكو على كلامه «أنا أيضًا ليس لي عقيدة».

في متوالية الإجابة عن الإيمان، انتظرت أن يوجه لي زوفنكو نفس السؤال «وأنت هل لك عقيدة؟ أو هل أنت مؤمن؟». ولكن لحسن الحظ تدارك شيئا ما حدسه تجاهي، وغير من مسار الحديث. فقد كان المطر يشتد بشكل يدعو للجري للاختباء تحت الأشجار. جرى زوفنكو في البداية ناحية الشجرة القريبة، بينما مكثت أنا وألجريد ممددين لدقائق في مكاننا على العشب نتطهر بأثر رجعي. نظر لي زوفنكو نظرة ضاحكة كأنه يقول ما معناه: «خلِّي تاركوفسكي ينفعك». دائمًا ما يلتقط زوفنكو نقاط الضعف الأدبية في الآخرين،

والتي ربما في نظره تعطل تطورهم الأسلوبي. «ما زلت يا زوفنكو أعيش في هذه المنطقة التي يعيش فيها بطل تاركوفسكي أندريه روبليف، الباحث عن الإيمان، والذي يريد أن يتوحد مع الطبيعة ويتلقى هباتها، مهما كانت، بسعادة وفرح. يبدو أن هذه المنطقة الشائكة، لن يكون لها حسم خلال حياتي على الأرض».

كنا نعيش في هذا البيت كأنه دير به أربعة رهبان من بلاد مختلفة، بدلا من أن يقوموا بالصلاة، استبدلوا بها الكتابة، كل واحد داخل قلايته، يتهجد من أجل أن يمنحه الله فيئا في نهاية اليوم. نخرج أحيانا من قلاياتنا، نتبادل بعض الحديث، نشرب سجائر، وكئوسا من دم المسيح، ثم نعود مرة أخرى. إحساس ذكوري عارم يخيم على المكان. تذكرت الفيلم القديم الكوميدي، الذي يذهب فيه أربعة رجال إلى مكان ناء ليبتعدوا عن النساء اللاتي سببن لهم كثيرا من المتاعب. كأنها عقيدة جديدة شعارها «فلتسقط الستات».

سألت زوفنكو عن علاقته ببنتيه، الكبيرة عندها ٢٢ سنة، والصغرى ٢٠ سنة، وهل لديهما أصدقاء ذكور. قال الكبرى لها صديق أما الصغرى لا. وأضاف أنه يتعامل معهن بعقل مفتوح. عند هذه الجملة تذكرت فهمه لجملة «عقل مفتوح» التي قالها عندما رد سبب انسجامنا بعضنا مع بعض، لأننا نمتلك جميعا هذا العقل المفتوح. في أحد الأيام طلبت منه ابنته الكبرى أن تذهب لصديقها في إسبانيا، فوافق على الفور، ومنحها النقود اللازمة للسفر. وهن صغيرات، يحكي، كان يأتي إليهن قبل النوم، ليحكي لهن إحدى الحكايات ويمنحهن قبلة ما قبل النوم. إحدى حكاياته الأسطورية، أنه سأل ابنته الكبرى وكانت في الثالثة عشرة من عمرها، ما هو

أهم شيء في الحياة؟ سؤال معجز كسؤال أوديب. احتارت البنت، وفكرت كثيرا، فقال لها وهو يضحك «أن تملكي ثديا كبيرا وممتلئا»، خجلت البنت، ضربته بالمخدة على رأسه. كان يحكي وهو مبتهج بهذه العلاقة المفتوحة مع بنتيه، ويحاول أن يتلافى فيها كل أخطاء الحرمان التي عاشها شباب جيل زوفنكو، في الماضي، تحت سيطرة يوغسلافيا تيتو حتى سلوبودان ميلوسيفيتش وقنابل الناتو.

الديكتاتوريات والثورات: روسيا، يوغلاسافيا وغيرها؛ كانت مشتركا بيننا. أن ننظر للماضي دائمًا في غضب ونحاول في الحاضر أن نصلح أخطاء هذا الماضي الجغرافي والسياسي. كانت هذه الخطوط والتقاطعات تجمع بيننا وتقرب طرق التواصل. يبدو أن العالم كله كان يعيش تجارب متشابهة حتى ولو كان بعيدا بعضه عن بعض. بنات زوفنكو أعرفهن جيدا بدون الأثداء الكبيرة التي يتمناها لهن، والقلب الجائي لألجريد ووردته التي قدمها لزوجته لتقبله زوجا، أعرفها جيدا، واكتئاب وحب جيرمان للمطر، أيضًا أعرفه جيدا. كنا بشكل ما ضحايا أنظمة سياسية شمولية، ربطت فيما بيننا برموز مشتركة، وعاطفة مشتركة، وكنا جميعا في لحظة تفسخ نبحث فيها عن هوية جديدة، ما بعد الانهيار الكبير، أيا كان مصدره أو مبعثه أو مكانه.

صباح الخير يا ناصر. عمود الغد..
خالص مودتي..

الجموع إحدى صور الغناء القديم

ربما تواجه ذوات الذين اشتركوا في الثورة، أو غالبيتهم، مجموعة من الأسئلة المؤلمة. هذه الذوات كانت تعيش قبل الثورة في حالة عزلة مطبقة، وأخذت تبني لنفسها تصورات ونظريات وتجمع الأدلة من هنا وهناك حول مشروعية هذا المسار المعزول من العيش. وبالتالي بَنَت وتبنَّت تصورات، في أغلبها سلبي، حول علاقتها بالجموع.

طوال فترة الهجر من الجموع تحولت هذه الذوات، أو أغلبيتها، إلى ذوات مهجورة، تبحث عن الوصال، الذي لم تحققه حتى مع أبسط أشكال الجموع وجودا، فعشقت نفسها بضراوة. وإلا كيف تبدد تلك الطاقة من الغضب والاستبعاد؟ العشق إحدى الوسائل للتحقق، وللتبادل، وأيضا لتبديد الغضب المجاني الذي لا ذنب لأحد فيه. عشق من طرف واحد. الغضب أيضًا كان موجها ضد هذه الذات في صورة العشق. أو أن الحب تخفى تحت الغضب. ازدادت المسافة بين الذات الفردية وبين الآخرين، أو الآخر، أو الجموع. أصبحت مسافة مملوءة بالشك والارتياب والتوجس، بالرغم من أن الجموع، كانت في الماضي القديم جزءا مكملا لهذه الذات، وغيابها عنها يعد بترا في إحدى الوظائف الأساسية لها. بتر عضوي لمعنى أصيل، فعاشت طوال حياتها تحن إليه، كما تحن لغنائها القديم.

أغلب التضحيات التي حدثت في الثورة، لم تكن ملكا لأصحابها فقط، ولم يكونوا يقومون بها، إلا وهم مدفوعون بهذه الجموع، بمزايا

هذا العضو المفقود. الذات بدأت ترتجل وضعا جديدا لم يكن في حسبانها إلا كخيال محض، وكأن ارتجالها جاء في محله تماما.

كانت التضحية إحدى أدوات الوصل بين الذات الفردية والجموع، بين الجسد الشخصي وجسد الجماعة، كالأضحية التي تصل ما بين الأرض والسماء. ربما ليست الطريقة المثلى للتواصل، وربما في المستقبل، بعد أن نوفي حقنا في الموت والتضحية، نرتجل طريقة أخرى للتواصل مرتبطة أكثر بالحياة كحياة، وليس كموت. أي فعل جذري، غرضه أن يعيد أشكالا قديمة من الوعي، ومن التضحية، أسئلة أساسية غُيبت عن المشهد والكلام، لتضعها من أول وجديد على مائدة الجدل والنميمة في الحياة اليومية. كعلاقة الذات والمجموع، وأسبقية الضرورة عن الحاجة أو العكس، وعن وضع الأخلاق في حياتنا اليومية.

١١

في إحدى رحلات المشي اليومية حول البيت، لاحظت في الطريق إحدى «حدائق البيرة» التي يقيم فيها شباب القرية حفلات الموسيقى، وبالخارج كانت هناك عدة عربات حديثة وموتوسيكلات. كان المكان عبارة عن حديقة كبيرة في إحدى الفيلات. كان عدد العربات والصخب الصادر من الفيلا تتناسب طرديا مع قرية هادئة على الأطراف. ولكن الجميل ظهور وجه شاب لهذه القرية العجوز. بعد عودتي تناولت العشاء مبكرا من السأم، ونمت قليلا على الكنبة في غرفة الكتابة. سمعت نقرات زوفنكو على الزجاج، فتنبهت وخرجت له، ودعاني للجلوس بالخارج قليلا. ثم نادى على جيرمان، ظهر بنصفه العاري، كالعادة، من نافذة الإستديو في الطابق الثاني، وأشار بأنه سينزل سريعا.

جلسنا في الحديقة، بجوار الكتل الصخرية الخاصة بابن هاينريش بُل والتي لم تُنحت بعد، فالجو كان جميلا والسماء صافية. كان هناك بعض السأم يخيم على الجلسة. ربما سفر الجريد لهامبورج أثَّر فينا جميعا، وجعلنا نرى بأن صحبتنا على وشك الانتهاء. هناك عناصر كانت تتفاعل طوال هذه الفترة، وهذه النقاشات الطويلة، وتتداخل بعضها مع بعض، لتكون مركبا جديدا، كل منا مشارك بجزء فيه، وغياب أي منا سيؤثر لا شك في الباقين، سيحل الرابطة بينهم،

ويجعل كلا على حدة يشعر بوحدته مرة أخرى، ربما هذا ماكنا نشعر به هذا المساء، أننا لا نعرف بعضنا جيدا، أو أننا لا بد وأن نتعرف على بعض من جديد. كل هذا بسبب سفر ألجريد.

ولكن كانت الليلة تخبئ لي مفاجأة غير متوقعة. سمعت كلمة «إنشاء الله» بالعربية على لسان جيرمان. كذبت أذني، وسألته هل تعرف معنى هذه الكلمة؟ قال: نعم. وهنا كانت المفاجأة.. فبعد حديث فاتر عن الإسلام، وسبب نزول القرآن، واللغة العربية الرسمية، واللغة العامية، والفارق بينهما، وسؤالهما، هو وزوفنكو، هل كل الأقطار العربية تفهم لغة بعضها البعض؟ وهي الأيقونة المكررة في كل أسئلة الأجانب. بعد كل هذه المقدمات الأولية التي يجب أن تشرحها للآخر، فاجأني جيرمان بأن أباه مسلم. نعم أبوه مسلم واسمه «عمر علي»، وهو أصلا من إقليم الشيشان، الذي يدين أهلها بالإسلام.

بدأت أربط بين اسم كتابه «أنا شيشاني»، وبين موطنه. حكى جيرمان بأنه وهو صغير كان أبوه يأخذه لمدرسة خاصة لتعلم اللغة العربية ومبادئ الإسلام، طبعا كان هذا يتم سرا في وجود الاتحاد السوفيتي القديم، الذي لم يكن يعترف بأي أديان. كان المعلم يعلمه اللغة العربية والقرآن على لوح أردواز. وظل السؤال عند جيرمان معلقا في سقف طفولته وحتى الآن، ولا يجد له إجابة، لماذا كان المعلم يستخدم هذا اللوح الغريب؟ كره جيرمان من صغره الإسلام، وطلب من أبيه أن يكف عن ذهابه لهذه المدرسة. وافق أبوه على اختيار الطفل. وعندما سألته هل لديه اسم آخر غير «جيرمان» قال نعم «سليم خان». تذكرت لماذا قال لي جيرمان في اليوم الأول إنني

ثم أحضر حفلهم لأني مسلم لا أشرب الخمر، قالها ساعتها بصيغة السؤال الذي يحمل أيضًا بداخله الإجابة أو الإدانة.

برغم هذا الحديث الذي له خيوط متعددة ومتشابكة يمكنها أن تمده للساعات الأولى من الصباح، ولكن كان هناك دفء وحرارة مفتقدين في الحديث، لأن جيرمان كان برغم من صيغة التساؤل التي يغلف بها كل أسئلته، كأنه طفل بريء، كنت ألمح من وراء هذه الأسئلة إدانة مقنَّعة. كادت أن تورطني في أخذ موقف الدفاع. وحكى عن زيارة قام بها لمصر ذهب فيها إلى مدينة شرم الشيخ كمعظم السياح الروس الذين يستوطنون المدينة. وهناك تعرف على فتاة قبطية في السادسة عشرة من عمرها، وأخذ يحكي عن جمالها، ولغتها الإنجليزية الممتازة، ورقي تعليمها، والشرارة التي تولدت بينهما، ومدى إعجابها به. لا أعرف هل سيكون له نفس الرأي لو كانت الفتاة مسلمة؟ هل جمالها وتلك الشرارة التي تولدت بينهما سببها أنها غير مسلمة؟ أنهينا الجلسة سريعا، الزمن الذي تجرع فيه جيرمان أربع زجاجات من البيرة، وضعها أمامه على المنضدة حتى قبل أن يبدأ الحديث.

١٢

بعد عدة أيام قضاها كل منا في قلايته؛ مرت علينا زيليكا بعربتها الفولكس واجن الإستيشن في السادسة والنصف لتأخذنا معها لمقابلة صديقتين لها في «مطعم بارك» بمدينة دورن. ذهبت أنا وجيرمان، فقد ذهب زوفنكو صباحا لمدينة كولون لمقابلة أحد أصدقائه الشعراء القادمين من صربيا.

في العربة سألتنا «زيليكا عما فعلناه في الأيام السابقة، فقلت لها لا شيء جديد، سوى أننا خرجنا إلى الغابة، وتمشيت بمفردي مرة أخرى، وأضفت هازلا، وزارتنا ثلاث دجاجات في البيت. كنت أريد أن أبين لها سكون الحياة من حولنا. وبالفعل كانت هناك ثلاث دجاجات يأتين من بيت جارتنا المجاور في تمام الخامسة من كل يوم ويمكثن للسابعة، بعد أن يلتقطن خير حديقتنا، ثم ينتقلن للممر المعشب بيني وبين إستديو ألجريد الخلفي، الذي سميته «ممر الدجاج». ولما كان ألجريد غائبا فلم يجدن طعاما فعدن إلى بابي الأمامي منتظرات.

عندما سمعت زيليكا هذا ضحكت باستغراب. لصوت ضحكتها صوت آلة حادة. وقالت عندما تكون في أيرلندا لا تقول ثلاث دجاجات، لأن «دجاجة» هو صفة الفتاة الصغيرة، فهذا معناه أنكم زارتكن ثلاث فتيات صغيرات في البيت. كان صوتها ينضح بغيرة مكتومة. كانت تغار من مجاز الدجاجات الثلاث. ربما كانت «زيليكا»، الدجاجة العجوز، بفستانها الأزرق السماوي المفتوح عند الصدر

والذراعين، كانت تتمنى أن تكون إحدى هاتيك الدجاجات. «بس دي مش دجاجة، دي ديك رومي معتق»، قلت في سري.

تعرفنا على صديقتي زيليكا: أنكا، وهافا. شككت من اسم هافا، أن صاحبته تنتمي لأصول يهودية. أخبرتنا زيليكا، في العربة ونحن عائدون بعد نهاية اليوم، أن أصولها إسلامية من ألبانيا. عندما تذكر كلمة أصول تعرف أنها شيء أصبح متروكا في مكان آخر وبعيد لا يمكن استعادته. والد هافا من الأجيال التي جاءت ألمانيا للعمل بطلب من الحكومة، وكانوا يسمون هذه العمالة الوافدة في الثقافة الألمانية «جاست أربايتر»، أي «العامل الضيف». ولكن هذه الجملة اختفت تمامًا من القاموس الألماني، ولم تعد تستخدم لحساسية عنصرية آسنة في المصطلح؛ فالعمال لم يعودوا ـ بعد مرور أربعين أو خمسين عاما ـ ضيوفا، أصبحوا يسمون فقط «مهاجرون». كانت هافا، أو «حواء» بالعربية، والتي لها ملامح شرقية، شعر أسود فاحم وبشرة قمحية، تدخن سيجارة نسائية رفيعة وطويلة، مطابقة لاسمها «إيف» «إي في إي». وأشارت للاسم على علبة السجائر كبديل عنها، عندما طلبت منها إعادة اسمها على مسامعي مرة أخرى لأني لم أسمعه جيدا.

جلسنا كفريقين، جيرمان على يميني، وزيليكا على يساري، وفي الجهة المقابلة من المنضدة جلست أنكا أمامي مباشرة، وعلى يمينها هافا في مواجهة زيليكا. وهكذا سار الحديث طوال الجلسة تبعا لترتيب دخولنا عليهم. جيرمان كان خارجا عن مربع الصداقة الذي تكون تلقائيا. كان خروج جيرمان عن المربع يصيغ نوعية وحدة كلامه، كشخص «خارج عن المجتمع»، (أوت سايدر). في البداية سألته هافا: «هل أنت متعب؟»، قال: «لا، لست متعبا، لقد صحوت في

الساعة الثانية ظهرا، وطوال النهار كنت جالسا في البيت، ولكن وجهي يعبر دائمًا عن التعب، وربما يوحي بأني حزين أو مكتئب، ولكني لست كذلك». ألقى جيرمان خطبة طويلة بإحساس لا مبال حاد، وفي نهايتها حرك يده اليمنى كأنه يقول «هكذا هي الحياة». كان يتمدد في حديثه وينجر لموقف تحد، لم يتبين آخره جيدا. لم يكن سؤال هافا يحتاج لكل هذه الخطبة الدقيقة والمفصلة عن إيحاءات وجه جيرمان، ولكنه يبدو أنه كان متوترا، أو أن ملاحظة هافا جعلته متوترا وأعادت له صدى مشاعر سلبية كوَّنها الآخرون، من قبل، عن وجهه.

لن تكون المعركة الوحيدة بينهما. كانت أنكا تنظر لي بهدوء وهي مبتسمة، وجهها طوال الجلسة كان ينبئ عن سلام داخلي. بينما جيرمان يتكلم في خط قطري للمربع مع هافا. نظرات أنكا الهادئة قطعت هذا المسار المتوتر من الحديث. أحسست داخلي ببعض الخجل من تركيزها عليّ، سألتها: «هل الأدب من ضمن اهتماماتك؟»، قالت: «نعم، ولكنه ليس الاهتمام الوحيد، أنا لا أحب التحدث عنه،أحب الصمت». بادرتها: «هل أنت بوذية؟»، ضحكت بهدوء. عيناها زرقاوان وشعرها بني غير منسق كشعر امرأة ذكية تعرف أن هناك جمالا في هذا الشعر غير المنسق. لم أسألها عن عمرها، ولكنها صدمتني أيضا عندما عرفت أنه ٤٥ سنة. يعني أصغر مني بخمس سنوات، كيف؟ كنت أراها أكبر مني أيضًا، كما حدث مع زيليكا. دائمًا أرى نفسي أصغر مع من يقاربونني في العمر، خصوصا من النساء، أو ربما طفلا! هناك شيء بداخلي يقاوم العمر، أو شيء لا يشيخ، ذلك الطفل الذي يريد تدليلا وحدبا من النساء، ويطلب منهن أن يعاملنه بأمومة.

سألتني أنكا عن الثورة التي حدثت في مصر، وماذا أضافت لي. بدأت أشرح لها ما حدث، ورويدا رويدا انسلخت عن المكان الذي أجلس به، وكانت روحي وجسمي في مصر، في إحدى مسيرات القاهرة أو الإسكندرية. وأخذت أشرح لها بصوت متجاوز مبلل عن الهتافات والمشاعر التي كانت تحيط بي من هذه الجموع الحاشدة، وصوت زوجتي الذي لأول مرة يخرج عاليا وواضحا وقويا في الهتاف الجماعي. عندما قفز اسم زوجتي على لساني، عندها حدث شيء لم أتوقعه من نفسي، بدأت الدموع تتسرب إلى عيني بهدوء وتنسج ستارة مائية. لم أتوقع أن يحدث هذا، ولا أن أحس بالدفء الذي يجعل الكلام والدموع متضافرين كوشيجة واحدة. في بداية الجلسة كنت أشعر ببعض الخجل، وأتلفت يمينا ويسارا، وأشرب بسرعة من كأس البيرة، وأدخن كثيرا. لم تكن هناك أي علامات لما سيحدث بعد قليل، وأن هذه الحديقة الألمانية بأشجارها الكثيفة ستكون حضانة لرجل في الخمسين من عمره، يخطو نحو نصف قرن جديد لن يكمله.

قبل أن أبدأ حديثي، كان جيرمان قد استأذن ليقوم بجولة في «البارك»، لأن الطبيب نصحه بذلك، أن يتريض مع اكتئابه، يسحبه ككلب بيتي أصيل، ويصحبه معه في جولة طويلة، ويتركه يفعل ما يشاء، يبول على العشب، يقف ليتحسس روائح حوله، يعوي بدون سبب، أو يقتفي آثار كلبة، إلى آخره من مهدئات الاكتئاب. كان يشعر بالزهق من الجلسة. وربما غياب جيرمان هو الذي أتاح لي التحدث بحرية، فقد كنت أنا وأنكا على ميعاد خاص للحديث،

منفصلين عمّا حولنا. أخرجت أنكا كيسا من المناديل الورقية من حقيبتها الجلدية، ومدت يدها ناحيتي كأنها تسربه لي من تحت المائدة حتى لا يلاحظ أحد. للمرة الأولى أجد الدموع بهذه السهولة منذ قيام الثورة. الدموع التي بحثت عنها في مصر، لتخرج من تلك الحفرة النفسية، وجدتها أمام أنكا، كأنها تحتاج لآخر غريب لتظهر أمامه. الدموع هنا لا تعبِّر عن ألم شخصي، إنها تستدعي المكان الخبيء الذي كان البخار يتكثف فيه، وتجعله مرئيا. الدموع حوار، كما يقول الفيلسوف الفرنسي فرانسوا ليوتار. كان عليَّ أن أسافر كل هذه المسافة لأقابل هذه الدموع، هذا الميراث الخاص لكل منا من نهر النيل. الدموع أيضًا تحتاج لمسافة حتى تتحرر، ويسقط منها الحزن أو الفرح، فالاثنان أمَّما الكثير من الدموع لصالحهما.

عندما سألتني أنكا عن مصير الثورة بعد ظهور بشائر سيطرة الإخوان المسلمين عليها؟ كنت ما زلت متفائلا: فليكن، رددت، لقد أزاحت الثورة الغبار عن نوع من الفكر المعتدل في المجتمع، الذي سيقاوم أي تطرف مستقبلي. ثم أضفت بأني «أحمل خبرة الثورة الشخصية في داخلي، والتي لن يسرقها أحد مني، ويمكنني أن أحملها من مكان لآخر، حتى ولو ماتت في مكانها الأصلي». ضبطت نفسي مرة أخرى وأنا أعود لنفس الموقع الفردي القديم لمفهوم الثورة! ربما وأنا أشرح وجهة نظري الحماسية لأنكا، كنت أسير، في حلمي، مع «شعب كامل يسير فوق المياه».

وصل جيرمان، واستأذنت للذهاب للحمام، فقد ضغطت أكواب البيرة الثلاثة على مثانتي، وهناك في الحمام، وقفت أمام المرآة بضعة

ثوان لأتثبت من ملامح وجهي وأضاهيها بوجهي الذي أعرفه. عدت من هناك وجدت الحديث مشتعلا بين جيرمان وهافا، فقد ذكر أمامها كلمتين لا تحبهما لأنها تعمل في مؤسسة لتوطين المهاجرين في ألمانيا. الكلمتان هما «جاست أربايتر»، و«نجرو». هاتان الكلمتان اللتان تحملان روائح عنصرية آسنة، ورجته ألا يستخدمهما في حديثه. قال جيرمان إن الكتَّاب لا يمنعهم شيء عن استخدام أي كلمة، المهم هو السياق الذي توجد به الكلمة، وليس الكلمة في حد ذاتها. ردت هافا بكلام لم أفهمه كله فقد كنت شاردا بعض الشيء. ولكن ردها كان يحمل مواجهة صريحة مع جيرمان. حاولت أنكا وزيليكا وقف هذا الحديث المشتعل.

في العربة ونحن عائدون للبيت حملنا زوفنكو من محطة القطار في دورن، قادما من كولون، وسألنا عن جلستنا، فذكر له جيرمان أننا كنا بصحبة صديقتين لزيليكا. وهنا صاح زوفنكو متسائلا «كلهم كانوا ستات؟»، ضحكنا جميعا حتى زيليكا، فقد كان يتشوق للحديث مع امرأة. بعدها دخلنا في سكون وسط ظلام الطرق السريعة في الريف الألماني. يبدو أن السكون قد كثف مشاعر الذنب عند جيرمان عمّا جرى أثناء الجلسة، وأيقظ مسيحه من فوق الصليب. كنت أعتقد بأن الأمر لن يطول معه لهذا الحد. أخذ يكرر اعتذاره لزيليكا لأنه تحدث بهذه الطريقة مع هافا صديقتها. هونت عليه زيليكا الأمر.

نزلنا من العربة وودعنا زيليكا، فما كان من زوفنكو إلّا أن دعاها لتناول قدح من الشاي. ولكنها اعتذرت لضيق الوقت. في كل مرة توصلنا زيليكا للبيت يدعوها زوفنكو، وهي تعتذر. هذا لم يجعله

يأس من الاستمرار في تقديم الدعوة. في البداية حسبتها كرما في الضيافة، ولكن مع تكرارها، وأحاديثه السابقة التي تركزت عن النساء، بدأت أشم رائحة غرض آخر يختفي بحذق وراء دعوة شرب الشاي.

كانت جارتنا العجوز، التي تقتني ١٢ مجلدا عن السيرة الذاتية لهاينريش بُل، تتربض على مسندها أمام بيتنا. رمقتنا بعين صقر يرى في الظلام. سألناها عن صحتها، قالت «اليوم أفضل من الأمس» لا نعرف ماذا كانت حالتها بالأمس أو أول من أمس، أو أول أول من أمس، ولكنها لا تتذكر سوى هذا الأمس. ألقينا عليها تحية المساء «جودن نخت».

أصر زوفنكو أن نتناول زجاجة بيرة جميعا، بعد أن غير خطته بعد اعتذار زيليكا، في الغرفة الزجاجية قبل أن ندخل لكهوفنا. كان يريد أن يعرف تفاصيل ما حدث في كافيتريا البارك في دورن، وهل هناك تربيطات نسائية حدثت في غيابه، ليضيفها لروايته التي يكتبها عن هذه الصحبة، وإلا ما السبب في إصراره على مقابلتنا هناك في طريق عودته من كولون. أثناء الجلسة نام مسيح جيرمان من جديد على صليبه وربما فقد توازنه أثناء سيره على الماء، وعاد وصب جام غضبه على الغرب وكيف يقتتل على كلمة عنصرية داخل قاموسه بينما هو يبيد شعوبا كاملة من «النجرو». وتحدث زوفنكو، بعد أن اطمأن لعدم وجود تربيطات نسائية؛ عن سنوات الحرب في صربيا، زمن الرئيس ميلوسيفيتش، وكمية القنابل الرهيبة التي سقطت من سماء بلجراد المرصعة بالنجوم، وطائرات وصواريخ حلف الناتو.

صباح الخير يا ناصر.

أرسل اليك عمود الغد. أتمنى أن تكون بخير.. تحياتي.

شعب بأكمله يسير على الماء

يذكر إنجيل متى أن المسيح عليه السلام طلب من تلاميذه أن يسبقوه ويعبروا بالقارب للضفة الأخرى من بحيرة طبرية حتى ينتهي من صرف الجموع التي كانت تسير وراء معجزاته. وبعد أن صرفها وصلى منفردا، وكان التوقيت في الربع الأخير من الليل؛ ذهب للقاء تلاميذه. كان قارب التلاميذ قد وصل لمنتصف البحيرة، وتتلاعب به الأمواج من شدة الرياح. لحق المسيح بالقارب سيرا على الماء. طبعا مس تلاميذه الرعب والخوف عندما رأوه على هذا الوضع، وظنوا أنه شبح. فطمأنهم بأنه ليس بشبح ولكنه المسيح. ولكن بطرس، أحد تلاميذه الاثني عشر، ظل متشككا. فقال له بطرس: «إن كنت أنت، فمرني أن آتي إليك ماشيا على الماء» (متى ١٤ ـ ٢٩). فأمره المسيح، فنزل بطرس من القارب، ومشى على الماء متجها نحو مخلصه، ولكن شدة الرياح، وارتفاع الموج، أدخلا الخوف والشك في قلبه مجددا، عندها بدأ يغرق، وطلب من الله أن ينجيه. عندها مد المسيح يده وأمسك بيد بطرس.. «فمد يسوع يده في الحال وأمسكه وقال له يا قليل الإيمان لماذا شككت؟» (متى ١٤ ـ ٣٢).

أثناء الثورة شعرت بأن شعبا بأكمله كان يسير على الماء. عندما فقد بطرس إيمانه بالمسيح عليه السلام، ولو للحظة، لم يعد هو الذي يسير على الماء، وإنما الماء هو الذي يسير فوقه. عندما حولنا بصرنا عن مسيح الثورة إلى الأمواج المتلاطمة من حولنا، بدأنا نشعر بالغرق

كما حدث مع بطرس. عندما حولنا بصرنا عن الآخر، عن هذا الضمير الجمعي، الذي كنا نؤمن به، أو كان هو يؤمن بنا، طوال أيام الثورة الثمانية عشر؛ فقدنا مرشدنا الجمعي، وبدأت تظهر مخاوفنا وخرائط العزلة الشخصية للمجتمع ولجماعاته وطبقاته. وبدأنا نشك أصلا في أننا سرنا يوما على الماء بدون أن نغرق. هناك لحظات لا يجدي فيها الشك، تحتاج فقط للإيمان، كي تأخذ مسارها وتكتمل. كلنا كنا بطرس في تلك اللحظات المؤقتة التي شكك فيها في معجزة المسيح.

١٣

لجيرمان بعض التصرفات التي لا أفهمها. مثلا، تركه لزجاجة ويسكي في الغرفة الزجاجية مع بعض الأطعمة الأخرى، لعدة أيام. وفي يوم آخر أتى بطبق من العنب، تناولنا منه عدة حبات، ثم تركه أيضًا على المائدة في الحديقة ليومين. وعندما وصلت في أيامي الأولى، كانت بقايا آثار «البارتي» التي حضرها ألجريد وزوفنكو، وجيرمان قبل سفره لإنجلترا؛ ما زالت موجودة على المائدة في الغرفة مع حبتين من الكمثرى تناوبت عليهما الشمس والطيور السوداء الملتصقة على الزجاج، عدة أيام قبل أن يأخذهما زوفنكو. ظلت هاتان الحبتان تذكراني به في غيابه. وفي إحدى المرات، في أثناء غياب جيرمان، بينما كنت جالسا مع ألجريد وزوفنكو في الغرفة الزجاجية، قال زوفنكو بخجل إنه سيأخذ حبتي الكمثرى، فحرك ألجريد رأسه موافقا، كأنه يقول هذا الأمر لا يعنيني، كأنه ميراث جماعي يجب أن تسأل جميع الورثة قبل التصرف فيه. تحولت هاتان الحبتان إلى قضية تحتاج لسؤال وسماح! حبتان من الكمثرى لا يتركان هكذا للعفن أو للتحول إلى رموز في لوحة. دائمًا هناك طعام يخلفه جيرمان وراءه، وأحيانا شرابا كزجاجة نبيذ أو أماريتي. نسيان أو تكاسل، أو لامبالاة.

جسمه الضخم، يرجع أصوله لوالده الذي كان يعمل ملاكما في

بوالده.
أحد الأيام. وقد مارس أيضًا جيرمان الملاكمة لسنوات اقتداء
له أخلاق الملاكم، فقط في اللحظة التي يضع فيها يديه أمام وجهه
ليصنع سدا أمام هذه الضربات المتتالية. ربما وظيفته كملاكم سلبي
بدأت مبكرا في حياته. عندما يتكلم عن الماضي تلحظ نبرة السخرية
التي يغطي بها مرارة تلك الأيام. يسحل بسخريته هذه الأيام على
أرض خشنة. رحلته من جامع لروث الحيوانات، ثم جامع للفراولة
في المزارع الجماعية، للبدلة الواسعة التي ترجع لأبيه التي دخل
بها الجامعة، ليكون في النهاية كاتبا معروفا في الشيشان، ويترجم
عمله الأول للغات عديدة، ويدعى لمؤتمرات وندوات قراءة في
كل أنحاء أوربا، ويقرأ عمله رئيس الجمهورية، ويحذر في خطبه
الشعب، الذي لا يزيد تعداده عن مليون وربع مليون نسمة، كلهم
من المسلمين ما عدا أقلية مسيحية لا تزيد عن آلاف؛ من قراءة هذا
الكتاب الذي يشتم فيه شعبه.

يحمل الاسم «أنا شيشاني» ازدواج الدفاع والاعتراف وربما
التنصل في آن. المعنى الأخير وصلني بعد حواري مع جيرمان.
الكتاب على هيئة مذكرات عن سنوات الحرب والموت، نشر بعد
تقسيم الاتحاد السوفيتي ومغادرته لجروزني العاصمة باتجاه المدينة
الكبيرة سان بطرسبرج، لدراسة القانون والعيش هناك بعيدا عن موطنه
الذي غزاه الإسلاميون وأصحاب اللحى وعصابات المافيا السوداء.
أعتقد أن هذه النقلة الكبيرة في حياته هي التي جعلته يبدو منغلقا
على نفسه، لا يعرف ماذا يفعل بكل هذا الذي آتاه. لقد تعرت بلده
وهويته جغرافيا، بعد الانفصال عن الاتحاد السوفيتي والحروب التي

خاضتها ضد روسيا بوصفها وارثة الاتحاد السوفيتي القديم، بداية من عام ١٩٩٤ . ثم جاء هذا الانفصال ليعري هوية تلك الأقلية التي لا يمكن أن تصنع هوية متماسكة بالنسبة له، لا الوطن الصغير ولا الإسلام. كان يكره الاثنين، لذا ترك بلده في أثناء الحرب وسافر حيث وجد حياته في روسيا العدو الذي حارب بلده ثم عاد وتحالف معه مؤخرا ضد طوفان التطرف الإسلامي.

بحثت عنه على الشبكة العنكبوتية عند عودتي لشقتي، أول ما طالعني مراجعة في موقع صحيفة الجارديان الإنجليزية الشهيرة كتبته شاعرة من أصول مجرية، تتحدث فيه عن تجربتها مع الكتاب المليء بالعنف والشعرية في آن. تحكي في مشهد من الكتاب، أن الكاتب وصديقا له كانا ذاهبين في مشوار عمل في مدينة سان بطرسبرج، وصادفهما في الطريق ميدان للرماية، دخلا فيه، وقام الكاتب بممارسة هوايته في التسديد على الأهداف، فأصابها جميعا. فما كان من أحد الحاضرين إلّا أن سأل صديقه باندهاش: «هل صديقك قناص؟»، فكان رد صديقه: «لا، هو شيشاني». وربما من هنا جاءت التسمية، أو إحدى دلالاتها. فالشيشاني بطبعه قناص؛ كونه عاش حربا مريرة مات فيها الآلاف، وكان القتل والتفجير يجري في الشوارع يوميا. وعرفت من المقال، وليس منه، أن أباه وأخته قد جرحا من جراء هذه الحرب. ليس هذا فقط بل تذكر الكاتبة في نهاية المقال «أن الراوي يرسم بورتريهات حميمة لأطفال وكبار وأناس عاشوا معه طفولته وشبابه، فقط لنكتشف، في النهاية، أنهم هم أيضًا قد قتلوا». كان جيرمان يحمل على ظهره المحني وداخل روحه ذنب كل هؤلاء المقتولين

من أصدقاء طفولته وشبابه. جميعنا كنا نحمل آثار دماء تنزف وراءنا في بلداننا. ربما مسئوليتنا الشخصية عن هذا الجرح النازف هو الذي منح لصداقتنا أن تتعمق بأسرع مما كنا نتصور.

قال زوفنكو إن جيرمان شخصية «إيجويستك»، يقصد هؤلاء المولعون بالأنا الداخلي أو «الإيجو» الخاص بهم. لم أوافقه تمامًا في هذا الرأي، هو لم يصل بعد لهذا المكان، وربما لن يصله أبدا. هذا المكان مفضل لمن لا يرى نفسه في مرآة حياة أخرى. أما حياة جيرمان فهي مجروحة بعدة حيوات، منذ طفولته مع روث الحيوانات، ثم شعوره الكامن بالذنب من هربه من حرب الشيشان وجرح أبيه وأخته في هذه الحرب، وموت العديد من أصدقائه. لم يبق هناك مكان يتمدد فيه الإيجو الخاص وسط برك الروث والدماء والموت. كلها شفرات حادة منسية داخل لحم هذه الحياة، وهذا الإيجو، وتجعله مفتوحا للخارج دائمًا. حتى ولو ظهر للعيان هذا الاهتمام والولع بنفسه، فهو اهتمام يخفي قلقا ما، عند كل من عاش حياتين مختلفتين، من أن تظل طبقات كل حياة موجودة بآثارها النفسية والمادية وروثها على أرض هذه الإيجو.

دائمًا زوفنكو عنده قاموس يقرأ منه، ويخرج منه توصيفا لكل الحالات من حوله. هل السبب هو هذه الحالة العلمية التي تصنِّف كل شيء، أم أن استسلامه وتصديقه الكاملين لها بصفتها حالة عامة يمكن أن تنطبق على الجميع.

خرجنا أنا وزوفنكو وزيليكا للتسوق. مشاوير التسوق أصبحت مملة ومكررة. الجديد هو هطول الأمطار، عادت أوربا لثوبها المعتاد، للون رمادي كابٍ، بالتأكيد له دخل في تشكيل نفسية كتابها وكتاباتهم.

أحب أحيانا هذا الجو، هذه النفسية المنغلقة على نور داخلي أو ربما التي تتوق لنور داخلي يضيء العتمة الرمادية للنفس. ذكر ألجريد، عندما خرجنا للتنزه في الغابة، أنه يحب المناخ المظلم، ولا يحب ضوء النهار أبدا. قالها وهو يهز الغليون، عندما غابت الشمس، كأنه يطرد شبحا طال مكوثه. عند عودتنا من رحلة التسوق المكررة، دعا زوفنكو «زيليكا» لتناول الشاي. وافقت أخيرا، فلم يحن بعد موعد عودة أولادها من المدرسة. قمت بعمل الشاي وأتى زوفنكو ببعض المعجنات، وجلسنا ثلاثتنا في شقة زوفنكو بجوار مكتبه وسريره المرتب بعناية فائقة، كأنه مصيدة مفتوحة. جلسنا نتحدث عن أشياء الحياة المختلفة التي تقترب أنفاسها من وجوهنا، خصوصا عند سقوط المطر الشديد.

سألتني زيليكا هل تخاف من أنك بلغت الخمسين؟ قلت لها حتى الآن أرى نفسي طفلا، وصدَّق زوفنكو على كلامي، أن قلبه ما زال طفلا، بالإضافة أن له بنية وراثية جيدة، فلا يشتكي من شيء، ولم يعمل عملية من قبل. وأخذ يسرد مميزات فصيلته الوراثية. يبدو أن «زيليكا» هي التي تخاف من بلوغ هذه السن، فهي في منتصف العقد الخامس، وعلى أعتاب قريبة من هذا الرقم المصمت الكامل، ونصف قرن فارغ لن تبلغ نهايته.

اهتمامها الزائد بالحديث عن أولادها، وأن حياتها ممتعة في الريف، في وجود والديها وأخواتها وأولادهن، تشعر بأنها تتحدث عن عائلة في الريف المصري لها أفرع عديدة. عندما صحبت ابنتها ذات يوم، أثناء مرورها علينا، رأينا أمامنا فتاة ناضجة جميلة، لا تشبه زيليكا، ولها أنف مدور شرقي قليلا وليس أنفا مدببا نقَّارا مثل زيليكا،

ربما يعود لوالدها الأيرلندي. وعيناها خضراوان وليستا زرقاوين مثل عيني زيليكا. كانت الفتاة تنظر لنا باستهجان شديد، ربما كانت تعاقبنا جميعا كوننا لم نمنح والدتها دفئا يوازي تعبها من أجلنا.

عندما كانت زيليكا تأتي لمصاحبتنا لأي مشوار، دائمًا ما تذكر بأن لديها ارتباطات أخرى، ويجب أن تذهب بسرعة. كأننا نأخذ وقتا ثمينا منها، بالرغم من أنها هي التي تعرض خدماتها علينا. فسر زوفنكو هذا الأمر، الذي يملك قاموسا نفسيا لقراءة حياة الناس، بأنها تضع قناعا، ولكنه مكشوف أمامه، على الفراغ الطويل الذي تشعر به في غياب الرجال. الدليل على رأيه، أنها تبذل طاقة جبارة معنا، بدون مقابل مادي، وهذا غريب في أوربا. سألت زوفنكو، وما علاقة الطاقة بكونها متبرعة؟ كنت أعرف الإجابة، ولكن أحببت أن أرى المدى الذي يتحرك فيه خياله بالنسبة لزيليكا. قال: «لو كان عندها رجل بينام معاها كل يوم ماكانش هيبقى عندها طاقة تعمل أي حاجة، أمّال هي جاية ليه بتشتغل معانا، عشان شايفة أربع رجالة، قالت يمكن تلاقي حظها مع واحد مننا». ثم أضاف: «اسألني أنا عن الستات».

١٤

عندما يضبطني زوفنكو وأنا أتحدث عن الثورة في مصر بلهفة وعاطفية، يقول لي «أرجوك ما تكونش فرحان كده». «ولكن يا زوفنكو اعتبرني مثل جيرمان من هؤلاء الفارين من الثورة، جئت هنا كي أكتب عن حلم شهور الثورة الأولى»، أجيب. يقصد أن الثورة عندما تأخذ مداها وتتحول لحياة يومية، فإنها لا تتحرك على طريق الأحلام الواسع الذي تخيلناه جميعا. ولنا العذر في أن تنفجر صرة الأحلام. الثورة تخلف خيبة أمل للجميع، ليس بسببها أو بسبب مثالية الناس، وإنما لأن هناك مستويين من الأحلام، لا يتقاطعان إلا نادرا. مستويان كانا شيئا واحدا أثناء الأيام الأولى للثورة، أما بعدها فكل يأخذ طريقه. لا أعتقد أن هناك ثورة كاملة لا تخلف خيبة أمل. أي ثورة مهما كانت دمويتها أو نقاؤها، هي ثورة ناقصة. لأنها تعيش على قوس زمني واسع مثل قوس قزح، ولأن هناك ماضيا لا يمكن التغاضي عنه، يقتات على هذا الكائن الجديد.

الثورة في لحظة بدايتها، وفي امتدادها عبارة عن أحاسيس طائرة في الهواء. تحتاج لأن تحلق إليها. أما عندما تدخل في الحياة اليومية فقد تفقد هذا البريق واللمعان، وتتخلى عن قدسيتها، لتكون واحدة من البشر العاديين. الثورة هي أيام الحب الأولى، هذا هو التفسير الشعري الذي تناولته مع زوفنكو في «غرفة الشمس» مساء اليوم.

فقد حكى لي مجددا عن التحولات العنيفة في صربيا، التي بدأت في ١٩٩٠ عندما أراد ميلوسوفيتش أن يستقل بصربيا خارج حدود يوغسلافيا. في تلك السنوات التي امتدت لعام ٢٠٠٠ حين سقوطه؛ أمر ميلوسيفيتش أن تزحف الناس إلى إقليم كوسوفو لاحتلال مكان به كان يعود في الماضي للصرب وله أهمية تاريخية عندهم. هذا المكان كان ساحة لمعركة دارت بين العثمانيين والصرب عند احتلالهم لأوربا، ومات كثير من الصرب هناك. هذا الحدث يرجع للقرن الرابع عشر. طبعا انهزم الصرب في هذه الموقعة أمام جحافل العثمانيين، ولكن بقيت ذكرى هذه الموقعة التي هزموا فيها، إشارة وعلامة على قِدم وجودهم في هذا المكان، بل استحقاقهم بأن يكونوا دولة مستقلة بالدماء التي ضحوا بها لوقف العدوان التركي. نهر الدماء الذي سال هناك لجنود الصرب، ظل مستيقظا طوال سبعة قرون، حتى وصل جزء منه طازجا ونديا لخيال ميلوسيفيتش.

المهم رفض زوفنكو أن يذهب في هذا الزحف المقدس الحديث، بسبب وجود أصدقاء له في كوسوفو والبوسنة وغيرها، وربما هذا عرض حياته المهنية للخطر. كانت بداية نزعة قومية حادة انتهت كما هو معروف بضرب الناتو لصربيا واعتقال ميلوسيفيتش، ومشاركة الحزب الديمقراطي، الذي كانت الولايات المتحدة الأمريكية تدعمه، والذي كان مناوئا لحزب ميلوسيفيتش، الاشتراكي ذي النزعة القومية. هنا كانت بداية الثورة في ٢٠٠٠، مظاهرات في الشارع ضد النزعة القومية وحزب ميلوسيفيتش الاشتراكي الذي عاد مرة أخرى للحكم بالانتخابات. تلخيص سريع لأحداث دامت عشر سنوات، ولكن خلاصة زوفنكو مما حدث أن الثورة ربما جاءت

بيعض الحرية، ولكنها لم تغير الإنسان كلية، خلال هذا العقد. ربما نحتاج لأكثر من عقد حتى تظهر آثارها.

أشعر بانجذاب ناحية الحديث مع زوفنكو عن الثورة في صربيا، كالمجرم الذي يحوم حول مكان الجريمة باستمرار. أحب هذا الحد الأدنى من الأمل الذي يغلف كلامه، لأن أي ثورة في النهاية لن ترقى لمستوى الحلم الشخصي. صندوق أحلامها سيقتسمه كثيرون. سيظل هناك هذا التناقض وهذه المرارة من شيء ضائع لم تحققه الثورة أو فاتها أن تحققه بالرغم من مروره أمام أعين الثورة. هل الثورة هي السبب؟ أم هو نظام فكري يجب أن يتغير؟ ألّا تكون هناك أحلام أكبر من الواقع. كيف وهذه الأحلام هي نفسها التي صنعت الثورة، فلماذا تتخلى الثورة عنها وهي صنيعتها. سيظل هذا التناقض بين الحلم الشخصي والحلم الجماعي بالرغم من أن الاثنين التحما معا لبعض الوقت. ولكن هذا الوقت استثنائي بكل المقاييس.

ربما الثورة جاءت من فكرة فردية بالأساس ثم تعممت. يعني أنها تحمل بداخلها هذا العطب والفساد وأنانية الحلم الفردي، والمتعة الزائلة. إنها باترون موسع للحب. عندما يحدث الإشباع تفقد اللذة معناها. اللذة والسعادة كما يقول محلل النفس الفرنسي «لاكان» هي الإحساس بالنقصان والسعي للحصول عليها. لذا أيام الثورة الأولى هي الزمن المقدس، الذي نحن للوصول إليه بالرغم من علمنا بأننا لن نصل. قال لي صديق بعد انتهاء فترة المظاهرات ضاحكا أنه أصبح عاطلا بلا عمل. لا يمكن أن ننظر للحياة اليومية بعين الثورة الحالمة، الإنسان هو الإنسان، حتى ولو اتسعت مساحة

الحرية من حوله، بالرغم من أن الثورة جزء موسع من لذته وحلمه للحياة، إلا أنه عندما يراها مشخصة أمامه، يقول «لم أتخيلك هكذا، أنا لا أعرفك».

كنا وحيدين أنا وزوفنكو في هذه الليلة بعد سفر جيرمان لسان بطرسبرج، في إجازة قصيرة، ليرى زوجته الشابة التي اشتاقت له كثيرا، وبث له هذا الاشتياق عبر مكالمات عديدة. أخذت الأفكار تعصف بجنبات الغرفة الزجاجية وتتجمع أكثر حولها المزيد من الأفكار والطيور السوداء. لم أعد أخشى أن يصاب حلمي عن الثورة في مقتل. فهناك طريقان للأحلام، لا بد وأن أعرف أنهما لن يلتقيا، إلا في الحد الأدنى. هناك أيضًا ثورتان؛ الثورة داخل الحياة اليومية، والثورة داخل الحلم الفردي. الأخيرة أعرف كيف أجعلها تعيش، لأنها عاشت من قبل، وإن كان بطرق مختلفة، وربما الآن بعد ما حدث. بالتأكيد هذا الحلم الفردي استفاد ووسع من حيزه، ولم يعد حلما يائسا، فقط مجرد حلم، أصبح قابلا للنسخ. وربما في المستقبل، يتحقق، ربما، أو لا يتحقق، فمجال نفوذه يمكن التفاوض حوله. أما ثورة الحياة اليومية فلا تحتمل التأجيل ولا يمكن التفاوض حولها. الثورة ليست لليوم ولكن للمستقبل. إننا الآن عبيد لهذا المستقبل الذي فتحته الثورة، كصحراء تيه يجب أن نقطعها لنصل أو لا نصل. لا أعرف بدقة أين تجرنا الكلمات والمصطلحات الجاهزة.

هناك فرق حاد بين الثورة الشخصية والثورة الجماعية. ظاهريا ربما تبدوان شبيهتين، ولكن داخليا هناك صراع بين الذات والمجموع، والذي لن ينتهي ولن تحله ثورة أبدا. ربما استمرار هذا الصراع شيء أعمق من أي ثورة، لأنه يغذى فكرة الوجود نفسها التي بها كثير من

الأخطاء. هذا الصراع أو التناقض أحد أسباب استمرار الوجود نفسه، والثورة ليست إلا عرضا من أعراض هذا التناقض الأبدي، عرضا من أعراض الوجود، وليست أصله.

كان زوفنكو سعيدا بالحديث، وسعيدا باقتناعي بوجهة نظره ولو جزئيا، وبدأت أرى فيه مزيدا من الحالة الأبوية التي يسبغها على حديثه، كل هذه التحذيرات وجدت مكانها أخيرا داخلي. كنت أنتظر من يقولها، آخر غريب، حتى لا أتهم نفسي بأني مضاد لحلم حلمنا به كثيرا، حتى أصبح كعضو وراثي في أحلامنا الجماعية التي نخرج بها للحياة. ولكن يظل هناك شيء مؤرق وخارج أي جدل ونقاش وتفسير، وهو هذه الملايين التي خرجت، ألا تعبر عن شيء؟ ألا تمثل شيئا؟ وإن لم تمثل شيئا، فهذا معناه أننا في مسرحية كبيرة اسمها الحياة، الثورة أحد فصولها النادرة. مسرحية يائسة نؤدي فيها أدوارنا بدمائنا؟ كنت أستبعد قليلا هذا اليأس في كلامي، ولكنه للأسف كان حاضرا كحضور العقل الباطن.

كنت مطمئنا لعبثية زوفنكو لحد ما. كان يشبع جانبا في نفسي له نفس العبثية من أي شيء، حتى ولو كان هذا الشيء: ثورة. جانبا يريد أن يتراجع، ويشد الزمن للوراء. بدأت ألمح سببا لصمتي طوال الشهور الماضية. قال لي زوفنكو في نهاية الجلسة: هل تريد أن تصنع شيئا جيدا لوطنك؟ قلت له ونحن نسير كل منا في طريقه لشقته: أريد أن تكون فكرتي عن الحياة أحد مكونات هذا الوطن. يبدو أنه كان يرى فيَّ بوضوح هذا الشخص المتحمس الحالم الذي يعيش في البرزخ بين الحلم الفردي والحلم الجماعي.

صباح الخير يا عزيزي. مرفق عمود الغد.
نهارك سعيد.

قلب مضيء

أتذكر هذا اليوم بقوة. توقَّع الجميع أن مبارك سيتنحى في خطابه الذي أذيع قبل التنحي بيوم. كنت مع زوجتي وصديق لي في شقة صديق ثالث مطلة على ميدان التحرير. الشقة كانت تغص بعشرات من نجوم المجتمع، صحفيين، وفنانين، وممثلين وممثلات، وكتاب، ومصورين أجانب ومصريين، من كل الأعمار والطبقات. عيون شاخصة وأجهزة كمبيوتر مفتوحة على الأرض وفي الأركان، وعلى الأسرَّة. مصريون من طبقات اجتماعية مرتفعة تراهم للمرة الأولى، ربما كنت تصادفهم فرادى في الشارع، ولكن هذه المرة كانوا مجتمعين. انتابتني مشاعر خفيفة بالغربة، عادة أشعر بها في الأماكن الفاخرة غير المألوفة، أو عند سفري للخارج؛ بالرغم من حالة اليفوريا التي كان يعيشها الجميع وتوحّد بينهم وبين طبقاتهم واختلافاتهم أيا كانت. هذه الغربة التي شعرت بها لم تخص شخصيتي وحدي، وإنما كانت تشخص تلك المسافة، التي لم تلغها نشوة الثورة، بيني وبين هذا المجتمع النخبوي.

كانت هناك غرفة بها تليفزيون وأمامه ما لا يقل عن خمسة عشر أو عشرين فردا يشاهدون قناة الجزيرة، في مساحة لا تتجاوز ٤ × ٤ مترا. انسللت منها إلى الشرفة لأكون قريبا من الميدان. كانت تحدث بجانبي وقائع علاقة استثنائية تتشكل وتتداخل مع أصوات هدير الحشود في الميدان: فتى وفتاة في حوالي الثامنة عشرة من عمرهما، من طبقتين مختلفتين تمامًا، يتناجيان وسط هذا المناخ التضامني، ومن أسفل

تتصاعد الهتافات. صنع الهتاف خلفية مسرحية وحَّدت بين الفتي والفتاة اللذين كانا من الصعب أن يلتقيا في ظروف أخرى ويتبادلا النجوى والهمس والنشوة على أطراف أصابعهما. كان الهواء عليلا، لارتفاع الشرفة، ولهذا الحشد البشري. كان الميدان عبارة عن انتفاضات لقلب كبير مضيء، في كل بقعة منه نبضات تتشكل عبر الآف الأجساد المنتفضة.

الخوف الذي تولَّد أيام الثورة كان يحاصر نوعا نادرا ونفيسا من المتعة الهاربة. كل من قابلتهم في الميدان كانوا يصرحون بعفوية خالصة أنهم لن يخرجوا إلا شهداء أو أن يتنحى مبارك. هؤلاء كانوا يشعرون أيضًا بنوع من اللذة، فجرها الخوف والترقب، بجانب الموت الذي ينتظرونه. ربما الموت نفسه حاصر هذه اللذة وقبض عليها أخيرا داخل الجسم، ولن يفرط فيها، كما كان الميدان محاصرا من مصر كلها، كمكان للموت واللذة معا. أخيرا اكتشفت مصر، وحاصرت داخلها مكان اللذة والموت، واللذين كانا غائبين لزمن طويل.

١٥

اللون الأسود لشعر زوفنكو يُعد إحدى مشكلاته في الحياة، لأنه يذكره بالاحتلال العثماني لأوربا لمدة خمسمائة عام. يقول متعجبا وهو يعدد على أصابع يديه العشرة أفراد عائلته ذوي البشرة البيضاء والشعر الأصفر «أبويا أبيض وشعره أصفر، أمي بيضا وشعرها أصفر، أختي بيضا وشعرها أصفر، جدي أبيض وشعره أصفر... إلخ»، إلى نهاية هذه القائمة التي عاصرها. ولكن هناك قائمة أخرى لم يعاصرها، ربما ترجع للجد الخامس، كان شعرها أسود وبشرتها قمحية. هذا الأثر التركي جعل زوفنكو مختلفا وسط عائلته، وعائلة زوجته، بل وسط كثيرين من بني جلدته من الصربيين. مكوث العثمانيين في أوربا لخمسة قرون بالطبع كان مثار حنق لزوفنكو، ولكنه حنق مبطن بإعجاب لقوة هذا الآخر، الذي ما زال تتوالد آثاره في تلك التربة الجديدة، وتتوالد أيضًا جراحه التي خلفها.

جلسنا في الصباح في شقته قبل الذهاب إلى مدينة كولون للفسحة. فقد قررنا في يوم سابق أن نذهب سويا لكولون، وقد رافقتنا زيجرون المسئولة في المؤسسة المانحة. دار الحوار حول موسيقى الغجر التي يحبها زوفنكو والتي يسمعها باستمرار. من الوهلة الأولى عرفت زيجرون اسم المغني، من صوته المنبعث من جهاز كمبيوتر زوفنكو. قالت إن أحد أجدادها كان من رومانيا. طبعا عندما اقتربنا

من موضوع الاحتلال العثماني، تولدت حساسية في الحديث، كأني مسئول عن هذا الاحتلال أو أتحمل بعض آثاره بصفتي مسلما. لم يقل زوفنكو هذا، وبالتأكيد لا يقصده، ولكن أحسست داخلي ببعض التحرج عندما أوغل في وصف قسوة سلاطين الأتراك. ربما المشكلة ترجع لي أنا، كنت أريد منه أن يقفز فوق هذا الموضوع بسرعة كأني أمسكت سطح مكواة ساخنة. تدخلت زيجرون، ويبدو أنها لاحظت، أو لم تلاحظ، تحرُّجي، وقالت إن الرومان فعلوا بأوربا مثلما فعل العثمانيون. أتى لنا زوفنكو، الحريص دائمًا على الرسميات فيما يخص الضيافة، ببعض الفاكهة الطازجة والجافة مع القهوة.

يناديني زوفنكو مازحا بلقب «كوليجا علاء»، يقصد «الرفيق علاء»، وهي بعض آثار الفترة الشيوعية المترسبة من عهد تيتو والاتحاد السوفيتي. وكذلك ينادي ألجريد بلقبه «كوليجا باخاريفيتش». هذا النداء لائق جدًّا بألجريد ومظهره المتقشف وغليونه المشتعل باستمرار. عندما أسمع نداءه لألجريد أشعر بأننا في مستعمرة شيوعية منسية على حدود الزمن. تلك القرية الصغيرة في الريف الألماني الثري، على الحدود مع بلجيكا، كُتبت بإيحاء من ذاكرة عاشت في مكان آخر. الذاكرة وحدها من لها الحق في أن تتمدد في الزمن. كم من أماكن عاشت فيها، كم من أماكن صنعتها الذاكرة ودستها في حياتنا كأنها أماكن نعرفها وقمنا بزيارتها. كم من حيوات تسربت بهدوء أيضًا لحياتنا. الذاكرة هي التي تحفظ التعدد وليس الوعي. عند الموت تتحرر الذاكرة وتستقل، وتسير وحدها بدون مرجع. تصبح جزءا من ذاكرة جماعية.

انتهينا من حديثنا ومن القهوة والفواكه الجافة. كان زوفنكو على وشك المغادرة ويريد أن يفرغ ثلاجته المليئة بالمسليات وبمحفزات الكتابة كما يقول. لذا كان كرمه فائقا. ذهبنا إلى كولون بعربة زيجرون الفورد. المسافة حوالي ٦٠ كيلو مترا. كانت زيجرون تتعامل مع العربة بخشونة، وبعدم توافق، كأنها تنتمي لعالم خاص غير عالم السرعة هذا. في العربة أصابني سكون الطرق السريعة. كانت تصل لي في المقعد الخلفي بعض العبارات المتبادلة من حديث زيجرون وزوفنكو، بينما المطر يتساقط على زجاج العربة، ومن بعيد تحلق مجموعة من الطيور السوداء فوق أحد الحقول.

أخذتنا زيجرون لزيارة نهر الراين. عندما أقبلت عليه تذكرت رائحة من نهر النيل. الطريق أمام الراين كله حدائق عامة يجلس فيها شباب الجامعة والسائحون، حياة مدينية لها إيقاع يخلقه كل هذه الحركات والمسارات للناس العادية. ثم انتقلنا لزيارة الكاتدرائية الشهيرة بكولون. الكاتدرائية لها مشهد مهيب، عندما تمر أسفلها، ترى بوضوح تلك النحوتات الدقيقة، وملايين التفاصيل. برغم كل هذه التفاصيل، التي من المفترض أن تمنحها الدفء الديني، تبقى لها حدة ملحدة، كأن روحك، وأنت تراها، تسير على زجاج مكسور. الأتربة جسّمت وأبرزت تلك الحواف الحادة.

هذه الكنيسة ذات الطراز القوطي كانت إحدى منارات العصور الوسطى للمسيحية. في الكاتدرائية وقفت زيجرون تحت تمثال العذراء وأوقدت شمعة، ووضعت قطعة نقدية في صندوق معدني. تقدم زوفنكو ووضع قطعة معدنية أخرى في الصندوق المعدني،

وأشعل شمعة ووقف أمام تمثال السيدة العذراء بخشوع. ملت عليه وسألته «لماذا أشعلت شمعة للعذراء وأنت لا تؤمن بأي ديانة كما تقول؟ قلتها بابتسامة ملتوية، وشوشني في أذني، وهو يضع ذراعه على كتفي، ليحافظ على سرية بوحه: «عشان زيجرون». يقصد مشاركة منه لزيجرون المؤمنة. عند هذه التقاطعات البسيطة، تتضح شخصية زوفنكو، التسامح حتى مع عدم إيمانه! ليس هناك رأي قاطع وحدود واضحة يقف عندها، ليقول هنا وهناك. هناك تداخل، وربما هذا ما أكسب شخصيته نكهة خاصة.

كان عندي فضول أن أسأل زيجرون عن جارتنا العجوز مسز لودفيج وابنها مستر ديتيليف، وعن حقيقة ما تذكره هذه السيدة عن سيرة حياة هاينريش بُل. ضحكتْ وقالت إن أغلب الكلام غير حقيقي، فلا تصدقوا كل كلامها. تذكرت محاولتها أن تسحبني من الوقوف مع السيدة وابنها في الندوة التي أقيمت في نادي «الأسود». وأكملتْ حديثها بتحذيرنا من ابنها، وذكرت واقعة منذ زمن كان هو بطلها: أن هناك كاتبة كانت مقيمة من قبل في أحد الإستديوهات، كان يأتيها هذا الابن في أوقات غريبة من الليل وينقر على بابها. قال زوفنكو إنه يشك بأن الابن مريض بحالة نفسية مثل حالة بطل فيلم «سايكو» لهيتشكوك. صدق حدسي في الابن، فحركاته ونظرته وهيئته، كما أحسست من قبل، تعود لشخص وقف نموه في زمن سابق، ربما عندما كان شابا، وحتى الآن هو يسير بملابس ومراهقة هذا الشاب.

في شوارع وحواري كولون، أخذ زوفنكو يعلمني الطرق، وكيف أسير، وكيف أقطع التذاكر، ويدلني على أماكن المطاعم التركية

المفضلة. كأن عليه واجبا أن يعلمني، وأنا مستسلم له ولنصائحه، عن محلات الملابس «التي تحبها النساء»، ومحلات الملابس الداخلية أيضًا لو أحببت أن اشتري شيئًا لزوجتي. كل شيء، كل شيء، لم يترك محلا إلا وأشار له وحدد لي موقعه بدقة من محطة القطار، المركز الذي كنا ندور حوله. كنت أسير في هذه الرحلة بصحبة زوفنكو وزوجتي التي لن تحضر، والتي سارت معنا روحها وذائقتها بدون أن تغادر مكانها في القاهرة. وأتخيل لو حضرت وسرت معها على خطى زوفنكو، بالتأكيد سيكون هو ثالثنا بينما هو جالس في مكتبه في بلجراد يناجي ملائكة الشعر ويداعب بنتيه من وراء زوجته الطبيبة. داخل المستقبل، كلنا حاضرون، وأيضا كلنا غائبون.

في القطار ونحن عائدان إلى بيتنا في القرية في لانجنبرويخ، بعد أن ودعنا زيجرون التي تسكن في كولون؛ نظر لي زوفنكو: «كوليجا علاء، هتعمل إيه لوحدك لما أسافر؟». كان متبقيا أسبوع فقط وينهي زوفنكو منحته. كنت متأثرا، ولم أشأ أن أقول له كلاما مؤثرا. اكتفيت بالابتسام. ربما هو من كان متأثرا أيضًا بالرغم من أنه سيعود لعائلته. كان يذكر أمامي المتاعب التي سيلاقيها عند عودته ومطالب زوجته وابنتيه التي لا تنتهي. طريقته في الكلام عن زوجته تجعلني أضحك غصبا عني. قلت له «لسه فاضل أسبوع».

بالتأكيد افتقدت زوفنكو، وافتقدت زوجتي في مصر، وافتقدت الجموع في الشوارع، ولكني كنت داخل وحدة متسعة تسمح بافتقاد بلا ألم. افتقدت نقراته الليلية على زجاج غرفة مكتبي، ودعوته اليومية للنقاش، وسلوكه الأبوي معنا. كان هو الخيط الرابط بيننا، ومن

الصعب أن يقوم أحد منا بدوره، فجيرمان يريد من يُخرجه من القوقعة التي يعيش فيها، وألجريد لا يخرج من غرفته، وإن خرج، لا يكون إلا في المغيب، عندما أشم رائحة دخان غليونه في الممر المعشب، ممر الدجاج الفاصل بين شقتي والإستديو الذي يسكن فيه. وأنا لا أملك تسامي زوفنكو، وأبوته اللطيفة خفيفة الظل. كانت زيجرون ذكرت في الصباح ونحن جالسون عند زوفنكو أن هناك كاتبا صينيا سيحل محله في بداية شهر يونيو، وسيصطحب معه زوجته وابنته. بينما زيجرون تحكي، كنت أرى هذه العائلة الصينية وأنا جالس بينهم على العشاء وابنتهم تعلمني اسماء الأطعمة بالصينية وطريقة صناعة أشكال وطيور بطريقة الأوريجامي. الذاكرة حرة الآن، شفافة، تتنقل بين عدة أزمنة كأنها مسافرة حقيقة في الزمن.

عدت من كولون على مفاجأة جميلة، فقد وجدت أمام باب شقتي بوكيه ورد أبيض داخله رسالة «سأكون في الجوار في الغد، وسوف أمر عليك في تمام السابعة».. الإمضاء: «أنكا».

صباح الخير يا ناصر.

مرفق عمود الغد «مساء الخميس ١٠ فبراير»، يوم من الأيام التي لا تنسى، اعتقد بأنك كنت حاضرا يومها في ميدان طلعت حرب.. تحياتي.

مساء الخميس ١٠ فبراير

خرج مبارك على الشاشة ولم يتنح. انقلبت القهوة ووقعت الكراسي على الأرض، وصرخ أحد الجالسين في الصفوف الأولى «أحا»، وقام وهتف مع آخرين بقوة ضد صورة مبارك في التلفزيون. خرج الجميع للشارع وحالة غضب تقودهم للسير الطويل في المدينة لمحاصرة هذا الغضب. الغضب تحول إلى رغبة في المحاصرة. حصار كل أماكن السلطة. وحصار الغضب في كل نفس. لقد سلب مبارك منهم تلك الليلة لحظة الفرح المنتظرة. ذهب البعض إلى محاصرة مبنى التلفزيون، والبعض الآخر لمصر الجديدة لمحاصرة القصر الجمهوري.

أصبحت صورة مبارك صورة نيجاتيف لمصر كلها، تنظر لهذه الملايين، وجها لوجه، كل على حدة. صار شبحا يطارد الجميع. لقد حُملت شخصيته بقوة وأسطورية، ما كانت له أثناء سنوات حكمه. كان الجميع يسخر منه، ولكن عند نزعه، ظهرت، أو أُسْبغت عليه صفات أكبر من حجم شخصيته. ربما السبب هو السلطة التي يلبس قناعها.

في ميدان طلعت حرب كانت هناك فتاة أرستقراطية، تأثرت بما حدث، تلف الميدان وترفع إصبعها الوسطى كعلامة احتجاج ضد الخطاب. وآخرون اعتلوا تمثال طلعت حرب في منتصف الميدان،

وأخذوا يهتفون. حالة تسلق التماثيل، حدثت أيضًا في الإسكندرية في باب شرقي. عندما اعتلى المتظاهرون تمثال الإسكندر، بدون أي دلالة رمزية لهذا الاعتلاء. الثورة تحتاج لمكان أعلى لتتمكن منه، لتفرض سيطرتها أو صوتها. من هناك ترى الواقع بشكل مجرد وعاطفي.

ذلك المساء في ميدان طلعت حرب، جلست مع محمد السيد إسماعيل ابن التاسعة عشرة من الدرب الأحمر الذي أنهى عمله في ورشة الدوكو التي يعمل بها في التاسعة، وجاء ميدان طلعت حرب ليتفرج على الثورة كما قال. جلسنا على الأفريز الحديدي أمام مكتبة الشروق. مرت أمامنا تلك الفتاة الجميلة التي ترفع إصبعها الوسطى احتجاجا على عدم تنحي مبارك. لم يكن هذا المشهد مستغربا وسط ما يحدث، ولكنه لفت نظر محمد السيد إسماعيل، ولا أعرف هل وجد له تفسيرا أم لا.

بعد هذه الأمسية المشهودة والحوار الدافئ ظل محمد يتصل بي مرارا على فترات متباعدة، بعد انفضاض الثورة والميدان، لا لشيء سوى أن يسأل عني ولذكرى تلك الأمسية في نفوسنا، في كل اتصال يتكرر نفس السيناريو: «أنا محمد السيد إسماعيل من الدرب الأحمر».. ثم يصمت قليلا «فاكرني يا أستاذ».

١٦

«جئت لأسترد علبة المناديل»، قالتها بضحكة خجولة. دعوتها للدخول وشرب القهوة. كانت أباجورة غرفة مكتب زوفنكو مطفأة. كان هناك تقليد أن أي زائر لأحد منا يعتبر زائرا للجميع، ويجب أن ندعو الجميع للترحيب به. كان تقليدا غير مكتوب، ولكن له قونه. كل شيء قابل للقسمة، حتى الوحدة. حمدت الله أن زوفنكو بالخارج. بعد شرب القهوة تجولت أنكا في البيت. كانت قد زارته منذ عدة سنوات في أثناء حضورها لقراءة أدبية في تلك الساحة أمامه. شعرت بتحرجها، فدعوتها للتمشية بالخارج. في أثناء سيرنا أمام البيت كان رادار مدام لودفيج وابنها ديتيليف مصوبا ناحيتنا ولا بد أنها سجلت في أرشيفها هذه الزيارة، وربما فسرت الثلاثين دقيقة التي قضتها أنكا في شقتي بتفسيرات عدة. أحيانا كثيرة كنت أشك في أن هذه السيدة تكتب تقارير عن بيت هاينريش بُل، وزائريه من الكتّاب، ترسلها له في مثواه الأخير، كي لا تنقطع صلتها بكاتب نوبل!

أتت بها دموعي الهاربة التي سالت أمامها. لم أدعها تنام في تلك الليلة. شعرتْ بأن هذه الدموع موجهة لها بشكل شخصي، رسالة مفتوحة يجب أن ترد عليها، وطوال الأيام السابقة كانت تفكر في الرد المناسب. كانت تؤرقها حياتها الخالية من الدموع، ولكنها ليست خالية من الحزن. كانت تحضر جلسات يوجا أسبوعيا عند

إحدى صديقاتها في المدينة المجاورة، تعلمت أن تضبط حزنها على إيقاع حياتها، كلما زاد كلما اجتهدت أكثر في التدريب ليعود لمنسوبه الذي يحافظ على حياتها، وتمنح تلك البحيرة، التي تنظر فيها أثناء درس اليوجا، استقرارها. نست هذا النوع من الدموع التي تنساب بدون عوائق. تركت التدخين منذ سنوات بعيدة، ولكن في أثناء سيرنا داخل الغابة شعرت برغبة متأججة في التدخين، طلبت مني سيجارة، أشعلتها، كنت أقاوم الشعور الرحمي الذي تفرضه الغابة، هذا الالتفاف حول نفسي ككرة ماء، كنت أتعلق بها كشاهد على لحظة نفيسة في حياتي، كنت أستدعي فيها زوجتي عبر هذه السيدة، «أنكا لو تعرفين أن روحك منذ يومين كانت ممرا لي، كما أن روحك الآن معبر لأنفض قانون الغابة هذا، وأقاوم التفافي حول نفسي. هذا الطفل الذي بكى أمامك يا أنكا كان يقف وراءه شعب كامل، لا يعرف كيف يخفيه في غربته، شعب كامل سار فوق الماء وصدق أن هناك معجزة وعندما شك في نفسه سقط».

أرادت أنكا الاستماع لي أكثر، أشارت بأنها كانت محرجة قليلا في حضور زيليكا وهافا، وأرهقها أكثر حوار صديقي جيرمان مع هافا، لذا أرادت أن تسمعني بعيدا عن كل هذا. كانت ملابسها قريبة من الملابس التي كانت ترتديها في مطعم البارك، ألوان زرقاء مع ورود بيضاء، وجاكت أبيض خفيف من أعلى، بجانب البالطو السميك الذي لا يفارق أي مواطن ألماني. جلسنا على العشب، كانت نداوته تصلنا بنقطة عميقة في الأرض تجري فيها المياه بعد أن تتجمع في دورتها الأبدية لتصعد من جديد. بدأت تسرح في

تلك البحيرة الداخلية التي تركز فيها أثناء درس اليوجا، استفاقت مرة واحدة وطلبت مني أن أصف لها شعوري لحظة البكاء التي حدثت. أخبرتها بأنه شيء يفوق وصفي، البكاء كان حوارا بطريقة ما كما يقول فرانسوا ليوتار، أحد الفلاسفة الفرنسيين. كنت أبعث رسالة للطرف الآخر من وجودي، كانت هذه المياه تعود وتتجمع في مكان ما لتصعد في دورة جديدة. الدموع يا أنكا كانت دورة من دورات الحياة، وليس الحزن. تستمع ولا تعلق أو تجادل، ربما كنت ألمح على وجهها علامات دهشة، ولكنها تلك الدهشة التي تسبق التصديق. دخنت أكثر من سيجارة ذلك اليوم، كأنها تلتهم تلك الرغبة التي استيقظت داخلها مرة واحدة. ولكن لا لكي تستأنف حياتها مرة أخرى ولكن لتخمدها بالتخمة إلى الأبد، كأنها طفل تسد فمه بالشيكولاتة، فوق طاقته على الاستمتاع، كي لا يبكي.

طال بنا الوقت واستطردت مرة أخرى في سرد مجموعة من المشاعر المختلطة، ثم قطعنا الطريق للبيت، كان هناك مجموعة من الفتيات لا يتجاوزن الثامنة عشرة في رحلة تريض رصينة بخيولهن قادمات في الطريق المعاكس. سلمت أنكا على إحداهن. نزلت الفتاة من فوق الحصان وتبادلا الحوار، سرحت بيدي على رأس الحصان، يشبه الحصان الذي أقف أمامه كل صباح وأطعمه التفاح في الأرض المجاورة. عادت الفتاة مرة أخرى لامتطاء حصانها. لم أسال عن ذلك الحوار السريع الذي دار بينهما، خمنت أنها ابنة إحدى صديقاتها.

عدنا إلى البيت مرة أخرى، كانت ترى أن حزنا كامنا في هذا البيت

هو السبب في هذا البكاء. فتحت لها اللابتوب وبدأت أفرجها على الصور وفيديوهات الثورة التي صحبتها معي. كانت مندهشة، بالرغم من الصور التي كان التلفزيون يعرضها هناك عن مسيرات الثورة، ولكن هنا كانت قريبة من أشخاص تعرفهم وتعرف حكاياتهم. كانت تسألني عن كل كبيرة وصغيرة. وسألتني عن صورة لزوجتي داخل المظاهرات، ولكن للأسف لم نجد لأنها هي التي كانت تقوم بالتصوير. ولكن في أحد الفيديوهات كان صوت أنفاسها المتهدجة يصحبنا في رحلتنا في استعادة فيلم الثورة.

شاهدنا ذلك الفيديو الذي صور موت أحد شباب الإسكندرية. عندما يتقدم الشاب في شارع ضيق بحي المنشية حتى يصل لنهايته، يقف أمامه على الناحية الأخرى من الشارع اثنان من القناصة بملابس سوداء. خطوات الشاب وحركة جسمه بها هذا الاعتداد الشعبي بالنفس. عندما وصل الشاب لهذه النقطة من المواجهة يبدأ في فتح السويتر الذي يرتديه، ليعري، رمزيا، مساحة جديدة في صدره أمام البنادق المصوبة إليه. يكاد الشاب أن يخلع السويتر، ولكنه يتراجع في اللحظة الأخيرة ويكتفي بأن يشكل السويتر مع جسمه شكل الجناحين. تسمع صوت تهليل لجموع غير ظاهرة «الله أكبر، الله أكبر». بعد أن أدى الشاب دوره، التفت يمينا في طريقه للدوران والتراجع. ثم أعاد صدره مرة أخرى في مواجهة البنادق. في تلك اللحظة لم نسمع صوت طلقات الرصاص إلا من تهاوي جسد الشاب. كان تهاوي جسمه على أرض الشارع له صوت دويٍّ مكتوم. القناصة لم يترددوا في إصابة هذا الصدر المستفز. ربما لو لم يخلع

الشاب السويتر، ليقف كالطائر أمامهم الذي ينتظر الرصاصة. سدد القناص الضربة إلى قلب الطائر مباشرة. ولم يعد هناك وقت لألم جديد. كانت أنكا تتفرج ويدها على فمها لتكتم حجم الصدمة والألم.

كان اهتمامها حقيقيا بما حكيته لها، ربما الحياة الهادئة التي تعيشها هنا سلبت منها أشياء كثيرة. كان حلمها في الجامعة أن تكون راقصة باليه. التحقت بأحد المعاهد بعد دراستها للعلوم الإنسانية في جامعة كولون، ولكن لم تكمل حلمها. عادت من كولون، وتزوجت من زوجها الذي يعمل بالمحاماة، وتخصصت بعدها في العلاج الطبيعي، والتحقت بالعمل في مستشفى في مدينة قريبة تبعد ساعة تقريبا عن دورن حيث تسكن. فسرت استغرابي من الانتقال من العلوم الإنسانية للعلاج الطبيعي، بأن الحياة تحمل أيضًا هذا التناقض، أو الانتقالات المربكة. لا توجد حياة حقيقية لا تكثر بها مثل هذه الانتقالات العنيفة، كما قالت. ولكني لم أكن مستغربا من تحولاتها من العلوم الإنسانية للعلاج الطبيعي، فهي الإمكانية الوحيدة للإحساس بالتحول، بعد أن سكنت الحياة وسارت على قضيبين واضحين حتى المحطة الأخيرة. فهذه التحولات العنيفة، لو شئنا وصفها بهذه الصفة، هي مصدر الحيوية في هذه الحياة. كنت مستغربا من استسلامها لهذا القطار القدري الذي ركبته، وركبته شعوب كاملة من قبل. لم أفصح لها عن تفاصيل استغرابي، اكتفيت بالموافقة.

قنعا، هي وزوجها وابنتها، بحياة المدن الهادئة. وسارت الحياة الأكثر هدوءا تشد في ركابها بقايا صفائح، وأجراس، وعلب مستعملة، وأحلام وأصوات وإحباطات. كانت تسمع في يومها أصواتا تأتي

من مصدر غير معروف، ولكنها لا تزعجها. علاقتها بابنتها الوحيدة وبزوجها كانت على خير ما يرام، ولكن الأصوات لم تتوقف. بدأت في التدريب على اليوجا لتغرق في هذا الصمت الذي تتمدد فيه ذاتها لتلامس حدود الذات الكونية. كانت مؤمنة بحضور هذه الذات الكونية وحمايتها لها، والتي تحتاج لصمت أعمق حتى تتحمل هذه العلاقة. كانت البحيرة تكبر وتتسع في جلسات اليوجا، حتى بدأت تخرج منها أسماك ملونة. حتى في وجود هذه الأسماك الملونة لم تختف تلك الأصوات، بل علت حدتها وأصبحت تشوش على استقبالها لأصوات الحياة الأخرى. كانت في نهاية يومها تجد دموعا سائبة على الفراش بدون أن تدري بأنها تبكي. كانت تبكي بدون أن تريد أن تبكي. كأن هناك شخصا آخر يظهر في النوم ويبكي مكانها، لذا ظلت موهبة البكاء معطلة لهذا الشخص المستيقظ على الدوام.

أخذنا راحة بعد مشاهدة الفيديوهات، وصور الثورة. صنعت سلطة يونانية، كان عندي في الثلاجة بقايا من جبن الماعز، والطماطم ذات الطعم الماسخ، والخيار كبير الحجم، وشرعتُ في تجهيز العشاء، بينما جلست أنكا متعمدة على الكرسي الدوار في المكتب الخاص بي تعيد مشاهدة الفيديو السابق. كانت غارقة في الصمت. بدأت أركز على صوت الملاعق والسكاكين وصوت حركتي في المطبخ. كان صمتا منذرا. أوقفت سيمفونية الأصوات النشاز، واقتربت منها وربت على ظهرها وناولتها علبة المناديل، التي منحتني إياها من قبل، ثم تراجعت وتركتها وحيدة في الغرفة وذهبت إلى المطبخ.

كان تساؤلي لنفسي في تلك الأيام: من أين أتت دموع الخمسين

هذه؟ هل هي فائض لمشاعر وزخم وجموع الثورة؟ هل هي تكفير عن الشعور بالذنب لسفري بينما الثورة دائرة وزوجتي هناك؟ هل لاسم زوجتي شفرة تستقبلها تلك البحيرات تحت جسدي؟ ولكن لم أشعر بالخجل منها، لم تكن كدموع أخرى وراثية كانت تخرج في غير ميعادها، دموع أنانية تستعجل في الخروج حتى لا تفلت الحياة من بين أيديها، أو تبكي الحياة قبل أن تمضي. ولكن ستارة الدموع هذه لم تصادفني أثناء السير في مظاهرات الثورة، ربما لأن الحدث يريد نسخة جديدة من الدموع، غير النسخ السابقة. كانت الدموع تتحرك تحت زجاج العين وليس خارجه، كدواء ملطف ضد الالتهابات المزمنة. تلك الدموع القديمة التي رافقت رحلة حياتي، ودخلت في كل الاختبارات التي مررت بها، حتى أصبحت مستقلة عني، لها شخصية كالمرآة الحساسة التي تعكس سطح النفس. وربما هو السبب أنها لم تصبح فقط مرآة لسطح نفسي أنا فقط، بل لأنكا أيضًا، التي رأت في دموعي تاريخا شخصيا بلا دموع، شيئا ضائعا منها. ربما عندما تتحرر الدموع من أنانية الطفولة تتحول إلى سطح مائي شفاف، متعدد الأوجه والانعكاسات، كالديوراما، يمكن أن يجد فيه الجميع عملاتهم وصور حكاياتهم الضائعة التي صاحبت الأمنيات.

قالت لي، عند انصرافها وهي تقبلني على خدي، ثم تحتضنني بعطف كأني والد هذا الشاب الذي رأته منذ قليل، أو أحد أبنائها المفقودين: «أنا مدينة لك بالكثير». سيكون هناك متسع لتسديد هذا الدين.

١٧

أصبحت لغة الإشارة بيني وبين زوفنكو، أحيانا، هي الوسيط عندما يتطرق الحديث لأساليب الأنظمة الديكتاتورية السرية للقضاء على معارضيها. طبعا كان يحكي عن فترة حكم سلوبودان ميلوسيفيتش، وكيف كان يصفي معارضيه تحت الترابيزة. الطريف أنه عندما يغمز بعينه اليسرى، ويرجع برأسه للوراء، وكذلك عندما يخفض يده لمستوى أقل من العادي وهي مفرودة، يقصد التصفية تحت الترابيزة.. الموت المجرد بدون دماء وهو يجري في أحاديثنا؛ بجانب حركات أخرى، توضح المستوى السفلي المظلم الذي يحيك فيه أي نظام مكائده ويصفي معارضيه ويشيد يوتوبيا تعذيبه. لا يتوانى زوفنكو أن ينبهني كل يوم، بسبب أو بدون سبب، أنه يخشى أن يكون كلامه عن الثورة قد أحبطني. فأرد عليه نافيا، وأشكره على حديثنا. تكراره هذا الأسف، جعلني أتشمم قليلا فحوى كلامه، لا أن أشكك في رأيه في الثورة المصرية التي أحكي له عنها، بل هو من النوع الذي يعيد ويكرر الشيء نفسه عدة مرات ليعيد تذوق حكمته في فمه. التحذير الأبوي المستمر، لا لشيء سوى الاستمتاع بأهمية كلماته.

التكرار عند زوفنكو له وجه آخر غير أبوي، خصوصا عند حديثه عن زوجته الذي يصاحبه أداء تمثيلي مرح، يجعلني أضحك هذا الضحك الذي لا يخرج إلا وسط سياق حميم يمثلنا جميعا كغرباء

عن هذا المكان. داخل رحلتنا في هذه القرية الألمانية الصغيرة اكتشفنا هذا السياق الحميم. دائمًا الحديث عن زوجته يرتبط بأنها تطلب منه أشياء دنيوية، وهو ككاتب زاهد، لا وقت عنده إلا للأشياء ما فوق الدنيوية، لذا يسايرها في أشيائها الدنيوية رغما عنه. يظهر أمامي الوجه الذي لا يقدر أن يظهره أمام زوجته. التقاطه لضحكي، عندما تأتي سيرة زوجته الطبيبة الأرستقراطية ووالدها الأستاذ الجامعي في جامعة بلجراد، جعله يكرر هذا المشهد كثيرا ليجعلني أضحك وأضحك، ويعرفني أكثر ويقترب مني أكثر عبر موهبة الضحك العميقة التي نمتلكها جميعا كمعجزة إلهية. هذه الصورة التي حاول أن يروجها عن زوجته، وانتمائها لعالم أرستقراطي منفصل عن عالم الكتابة والشعر، يبدو أن هذه الطبقة لم تبدأ في استعادة مكانتها إلا بعد تفكك الجمهورية اليوغسلافية القديمة، وعندما بدأت كل دولة مستقلة تبتكر طبقتها الأرستقراطية من العدم الشيوعي. كانت زوجته من تلك الطبقة الجديدة التي تجمع بين خليط من العزلة الأكاديمية التي تعود لأبيها، والتربية المحافظة، والتفوق العلمي، بجانب جمالها الذي كان مثل حبة الكرز الغائرة داخل كأس الشمبانيا الاحتفالي.

ولكن بجانب هذه الصورة السابقة، خلَّف لي زوفنكو انطباعا مختلفا تمامًا عن زوجته، ربما من عشرتي اليومية له، أراها الشخص المسئول فعليا عن البيت، بنشاطها الذي يوجه له زوفنكو باستمرار طعنات باسمة. يصفها بأنها شخصية فائقة النشاط، يقولها بشكل كأنه أحد عيوبها. دائمًا يردد «Slowly Slowly»، في أي موقف، عندما نسير أو نقوم بأي فعل أو نحتسي الشاي أو البيرة. «لم يعد هناك وقت

يا زوفنكو لكي نسير بالرَّاحة، كلنا مدفوعون بإيقاع ليس إيقاعنا».
دائمًا يردد أننا نريد أن نستمتع، يجب أن نستمتع، استمتع، فلنستمتع، فلنخرج لنستمتع، فلنشرب لنستمتع، المتعة المرتبطة بالراحة بالنسبة له، حبة الكرز المنسية في كأس شمبانيا فاتر. هناك حس بائت في رغيف استمتاعه هذا، كأنه يكرر مقولة فلاسفة قدامى كانوا يقدسون المتعة، ولكن ليس متعة الجسم بل متعة العقل، وذلك السائل السحري الذي يتسرب بين تلافيفه مصاحبا لهذه المتعة. دائمًا يؤثر الراحة ولم ألحظ شيئا يمارسه بهمة ونشاط، طبعا غير الكتابة. حتى القراءة لا يستمتع بها إلا وهو ممدد على الأرض أو مسترخيا على السرير. في الأيام المشمسة كان يقرأ على نجيل الحديقة وهو ممدد تمامًا كأنه جالس على البحر، وربما يذهب في إغفاءة لا يقوم منها إلا على صوت صهيل «عائشة»، تلك الفرسة التي تسكن في الأرض المجاورة.

ولكن أيضًا هناك صورة أخرى خلف صورة زوفنكو المسترخية فوق رمل المتعة، صورة عائلة كبيرة لها متاعبها المزمنة وزوج أخت سمين يجلس على مقعدين في المائدة العائلية، وأخت عينها حمراء متورمة باستمرار وتريد أن تنفصل عنه، وأم حائرة تجلس طوال النهار أمام التلفزيون ولا تدري حجم الانهيارات التي تحدث من حولها في الخارج، ولا عدد القنابل التي سقطت على بلجراد يوم ٢٤ مارس عام ١٩٩٩ عندما أغارت طائرات حلف الناتو فوق صربيا وبلجراد، لمدة ٧٨ يوما متواصلة قضتها أمام التلفزيون.

لم تهدأ الطائرات من إرسال حمولتها من القنابل المحرمة على بلجراد، كان وقتها يعمل في محل متخصص في الشرائط الموسيقية

الحديثة، كان مشروعه الفني بشراكة أصدقاء له. هذا الرعب الذي خلفته الحرب في أول قصف لبلد أوربي بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت بداية لتكسير عظام أي قوة تقف أمام أوربا موحدة، ليست في التجارة فقط ولكن أيضًا في الهوى السياسي اليميني. فالرئيس ميلوسيفتش كان من بقايا الهوى الشيوعي اليساري. خسائر هذه الحرب ودمارها لم يجد أمامه سوى جيل زوفنكو، الجيل الوسط، وأجيال أصغر منه، ليرتطم به ويفرغ فيه قوة الصدمة الأولى. كان يبلغ وقتها أربعين عاما ومتزوجا منذ عشر سنوات تقريبا، وفي بداية تثبيت أقدامه في حقل الأدب، وأجبر على التطوع في الجيش الصربي لمحاربة قوات حلف الناتو ولكنه هرب. كل هذه الأمنيات والبدايات لجيله، كان العالم وأقداره ينظرون لها نظرة غير متعاطفة تمامًا. كان النزاع الظاهري هو رغبة الناتو في انفصال إقليم كوسوفو المسلم ذي الأغلبية ذات الأصل الألباني وفصله عن صربيا، وهو بمثابة القلب منها. بالطبع رفض ميلوسوفيتش، المتعصب لعرقه السلافي، الإذعان لها، حتى وصلت الأمور للمواجهة المباشرة. كل ذلك حدث بسبب تلك الكتيبة الصربية التي قتلت هناك، أثناء عقود الاحتلال العثماني، وما زال جرحها نازفا في ثنايا الذاكرة الصربية، طبعا بجانب الشعر الأسود والبشرة القمحية لزوفنكو اللذين أتيا من هناك أيضًا.

شاءت الظروف أن أشترك مع زوفنكو في عدة مغامرات قبل سفره وعودته لبلجراد، ليظل حاضرا لما بعدها بسنين. ذهبنا سوية إلى قرية إشتراسا القريبة من قريتنا والتي تسكن فيها زيليكا. مرت علينا زيليكا في النُّزل في السادسة والنصف، لتصحبنا لأحد احتفالات

أهل القرية. كتبت زيليكا في الإيميل الموجه لي ولزوفنكو، «سأمر عليكما بالعربة في السادسة والنصف لمصاحبتكما للاحتفال، ولكن في العودة سترجعان سيرا على الأقدام». وصلنا ساحة الاحتفال، كان هناك العشرات من أهل القرية مجتمعين، وفي أحد أركان الساحة هناك ركية نار كبيرة حولها دائرة من جذوع الخشب بغرض الجلوس. وهناك في أقصى الساحة جرار يحمل في مقطورته مجموعة من الأطفال والشباب يلبسون زيا موحدا يغنون ويوسدون فيما بينهم شجرة طويلة مزينة بالشرائط الملونة أقدامها تتجاوز حدود العربة بمراحل. كانت كل الأعمار حاضرة بداية من الأطفال والمراهقين والكبار والعجائز. في الساحة كانت هناك مقطورة عربة أخرى بها عدة أجهزة دي جي وسماعات ويقوم أحدهم بتشغيل الموسيقى.

سألت زيليكا عن اسم هذا الاحتفال، فأجابتني بأنه «عيد العشاق»، الذي يتخذ من هذه الشجرة الطويلة المستلقية على جنبها في المقطورة أيقونة له. في هذا اليوم يقوم الشاب بقطع نوع معين من الأشجار اسمه البتولا، وأحيانا يسمونها شجرة مايو، من الغابات المنتشرة حول القرية، ثم يذهب لبيت حبيبته ويضعها أمام الباب، بعد أن يزينها بالشرائط البيضاء والحمراء والزرقاء، تعبيرا عن الحب. الشجرة هنا تقوم مقام الوردة. بدأت الصورة تتضح بالنسبة لي عن طبيعة هذا العيد. دخلت شجرة الاحتفال الكبيرة المحمولة على المقطورة وبدأ الجميع يشارك في رفع وتنصيب تلك الشجرة المزينة بأوراق وشرائط ملونة وسط الساحة. تشبه شجرة الحظ اليابانية، التي تكتب الأمنيات في تلك الأوراق الصغيرة ويتم تعليقها بها.

طول الشجرة لا يقل عن ٢٠ مترا، ويتم تثبيتها في حفرة في الأرض. لحظة رفع الشجرة ووضعها في الحفرة هي إشارة لبداية الاحتفال الذي لا يتضمن غير هذا الطقس، بجانب احتساء البيرة بجرعات مهولة وسماع الموسيقى والرقص والالتفاف حول راكيات النار في أحاديث جماعية. طول ثقل الشجرة استدعى مشاركة الجميع حتى تستقيم في وضعها الأفقي، والذي سيستمر شهرا كاملا وسط الرياح والأمطار وأمنيات الحب. وقفت أنا وزوفنكو مع زيليكا ومجموعة من صديقاتها، جميعهن يتشاركن في أزمة منتصف العمر. يبدو أن منظرنا الخمسيني، أنا وزوفنكو، لم يجذب سوى نساء منتصف العمر.

وسط أزمة «منتصف العمر» هذه وأعراضها الجانبية؛ قضينا الليلة. وسط مشكلاته وإحباطاته وتخوفاته، وجبل الصفائح المستعملة والفرص الضائعة التي يجرها في ذيله فتصدر جلبة لا يسمعها إلا المثيل، حتى ولو جاء من الجانب الآخر من العالم. دار الحديث عن الأولاد وسنهم الخطر. جميعنا نتخفى وراء سيرة الأولاد في هذا السن، نتكلم عنهم أكثر مما يجب، كأننا نذر الرماد في العيون حتى لا يرانا أحد، نشعل النار ونربي الدخان حتى لا يرى أحد النار الحقيقية الكامنة في داخل كل منا، والتي يغذيها الخوف من المستقبل.

كانت زجاجات البيرة تدور فيما بيننا بسلاسة متناهية. كل فرد من الدائرة يقوم بشراء البيرة للجميع.. وهكذا. كانت هناك خيمة مخصصة للمشروبات وأخرى للطعام. اقترب مني أحد رجال منتصف العمر أيضًا، وطلب مني سيجارة، وحكى لي، بوصفي غريبا، عن تفاصيل هذا اليوم لقاء هذا الدين الصغير. قال إن ابنه ذا

الستة عشر سنة، طلب منه أن يرجع متأخرا قليلا للبيت، هو وأمه، لأنه سيدعو صديقته للبيت في هذا اليوم. وأكمل حديثه شارحا لي طبيعة هذا الطقس المقدس: حول هذه النار، وأشار لراكية النار في زاوية ساحة الاحتفال، ينام الشباب والفتيات العشاق حتى الصباح. ثم صمت. انتظرت أن يكمل، نظر لي وضحك ضحكة مفتعلة، كأنه يقول لي: بقية الحكاية معروفة.

لم أتنبه لزوفنكو الذي كان يقف بجواري حول الترابيزة الدائرية، لم يتوقف عن احتساء كئوس الشنابس وزجاجات البيرة. بدأ الدم يصعد لوجهه، دفعه لأن يرقص في مكانه. استأذنت زيليكا منا ومن صديقاتها بسبب تأخر الوقت، وضرورة أن يذهب ابنها للنوم. ربما هذا السبب لم يكن مقنعا لي. يبدو أنها شعرت ببعض الغيرة لأن الحديث طال بيننا وبين صديقاتها اللاتي عرفتنا عليهن منذ قليل. برغم هذا الجو القروي، تشعر بمساحة مفتوحة لأي شيء، علاقة، قبلة خاطفة، ميعاد في الأيام القادمة.. كل الاحتمالات كانت قائمة.

لم يتبق في مجموعتنا من صديقات زيليكا سوى اثنتان، إحداهما صغيرة نسبيا عن منتصف العمر أو متشعبطة به رغما عنها، ربما كانت في نهاية العقد الرابع. وكان معها صديق، يذهب لفترة يشرب ويعاكس البنات ويرقص بمفرده على أنغام الموسيقى، ثم يعود ليقبلها. والأخرى شقراء، كانت طوال الوقت مشغولة بالبحث عن ابنتها، كأنها دخلت في متاهة لن تخرج منها. ربما حرجها من صحبة الأغراب دعاها لتضع ابنتها التائهة بيننا.

اقترحت الصديقتان أن نذهب للداخل لأن البرودة زادت في

الخارج. كان هواء الحقول التي تحيط بنا، والتي مررنا بها طوال الطريق من قريتنا حتى وصلنا، تدفع بموجات من الصقيع المحمل بروائح الزرع. لم تعد راكية النار التي تقع خلفنا، ولا النار التي في جوفنا، ولا النار الغاربة في جيل «منتصف العمر»؛ قادرة على أن تمنع تأثير هذا الهواء المصقع. تبعناهما ناحية المبنى الذي يحتوي بداخله على بار. كان الجو بالداخل دافئا. بدأت البيرة تلعب بالرءوس، ذهبت للبار واشتريت لصُحبتنا الرباعية أربع زجاجات من البيرة، فقد كان الدور عليّ في الشراء. كان زوفنكو مبتهجا بهذا الجو الاحتفالي. كان في حالة من النشوة والتحنان لأي شيء، كل فترة ينظر لي ويقول: «أنا فخور بصداقتنا، فلتسقط الحدود بين العالم».

بمجرد أن عدت بزجاجات البيرة ووضعتها على المنضدة، لم أجد الفتاة والسيدة، اللتين كانتا بصحبتنا، فقد ذهبتا إلى طاولة بجانبنا يجلس حولها مجموعة أصدقاء من أهل القرية. احترت بالزجاجات الأربع ماذا أفعل بها، منحت زوفنكو زجاجتين وأنا زجاجتين، ووضعناهما على المنضدة، لنعوض غيابهما المفاجئ. علق زوفنكو على انصرافهما المفاجئ بأنهما خجلتان من الجلوس معنا أمام أهل قريتهما. بالفعل كان رأيه صحيحا، فتجاهلهما الغريب والمفاجئ لنا لم يكن له ما يبرره سوى هذا السبب. جال زوفنكو ببصره في المكان، فوجد على يمينه على بعد خطوات طاولة يقف حولها ست فتيات. قال لي سوف أذهب «وانت تبقى تحصلني». ضحكت وقلت له: طبعا طبعا. لم ينتظر مني إجابة، ووجدته مزروعا بينهن. عاد بعد برهة وطلب مني نقودا واشترط أن أعطيه إياها بدون أن يلحظ أحد.

ذهبت معه للحمام وأعطيته ٥٠ يورو. عاد للفتيات وأتى لهن بكئوس من البيرة. كنت أرى تعبيرات وجهه من الطاولة التي أجلس عليها. بدأت أشعر بحرج خشن من جلوسي بمفردي، في تلك الأثناء أتخيل وجهي متغضنا ومرسوما عليه ابتسامة جبسية أكبر من مقاسه.

دخل أحد الرجال، أصلع الرأس يضع على عينيه، في هذه الساعة من الليل، نظارة سوداء، ويرتدي فانلة كت بدون أكمام، على بنطلون برمودا قصير لونه بيج يصل للركبة، وعلى كتفيه رسومات لأكثر من وشم. سلم على الجميع، يضم قبضته ويوجهها لقبضة الآخر. اقترب من زوفنكو، وقال له بدون مقدمات، كما سيحكي لي زوفنكو بعد ذلك، «دي أختي ما تقرَّبش منها» وهو يشير لإحدى فتيات المجموعة التي تحيط بزوفنكو، وفهم من حدسه بأنها بوصفها الأجمل والأكثر إثارة فستكون في مرمى تصويبات زوفنكو الغريب. فربما سيجذبها هذا الغريب بشعره الأسود الناعم وبشرته القمحية أكثر من شباب قريتها قليلي العدد والطموح. بين فينة وأخرى كانت السيدة الشقراء التي كانت بصحبتنا منذ قليل توجه لي من مكانها نظرة اعتذار عن خذلانها لنا، وجلوسها مع أهل قريتها. كنت مستمتعا بمراقبة زوفنكو وحركاته مع الفتيات. انغماسي في هذا، جعل مقاس ابتسامة وجهي تعود لمقاسها الطبيعي وذاب شعور الخجل تمامًا مع رغاوي البيرة.

فجأة تطور الأمر.. وجدت إحدى الفتيات، غير الفتاة الهدف التي سعى لها زوفنكو وجعلته يستلف مني خمسين يورو، تميل عليه، وتسحبه لمربع خال وقليل الإضاءة بجانب الطاولة، ويبدآن في الرقص وتبادل القبل الحارة. لم تدم الرقصة سوى دقائق، ثم عاد

زوفنكو للطاولة حيث أجلس وقال: «يجب أن نذهب حالا». لم أفهم ماذا حدث مع هذه الفتاة ليجعله يقرر الذهاب فورا. مال عليّ بوجه زالت منه آثار النشوة، «أنا شخص واضح، سألتها أنتي راجل ولا ست. قالت لي ست، بس أنا متأكد إنها راجل من جوه على شكل ست». لم أتمالك نفسي من الضحك. ماذا حدث يا زوفنكو، قال «حسيت أني ببوس واحد راجل، هي هيرموفروديت، لا راجل ولا ست، أنا ليا خبرة طويلة في اكتشاف الشواذ».

لو امتدت النشوة برأس زوفنكو لدقائق إضافية، وغطت على رادار اكتشاف ذبذبات الشواذ، كما يقول؛ لكان اصطحبها معنا الى البيت، وحياني وهو يبتسم، بينما الفتاة تأخذ طريقها على السلالم في بيته للطابق الأعلى، حيث السرير الدافئ، بجوار المكتب، المرتب والمنصوب باستمرار، بينما أنا آخذ طريقي لشقتي الباردة، وبعد أن أطفأ النور، وبدأ في ارتشاف الفتاة جزءا جزءا، حتى يصل للنصف السفلي، هناك سيفاجأ بقضيب يخرج من بين أسنان الفرج المفترض. يجري هابطا السلالم الخشبية بسرعة من شدة المفاجأة ويفتح باب الإستديو هربا من هذه الفضيحة التي ستطول وسيتردد صداها في بيت هاينريش بُل في مستقبل الأيام والسنوات. ولكانت زيليكا ضحكت كثيرا على عدم خبرة زوفنكو في التفريق بين الدجاجة والديك.

طوال رحلة عودتنا للبيت في التاكسي الذي طلبناه، بدلا من العودة سيرا على الأقدام كما اقترحت زيليكا؛ ظل زوفنكو يكرر تلك الواقعة وأنا في المقعد الخلفي غارق في ضحك هستيري مكتوم.

صباح الخير يا ناصر.

سعيد جدًّا بردود الأفعال على عمود «شعب بأكمله يسير فوق المياه».. مرفق عمود الغد بعنوان» قلب الطائر».. مودتي.

قلب الطائر

من المشاهد الملهمة في الثورة، ذلك الفيديو الذي صور موت أحد شباب الإسكندرية. تسمع صوت فتاة تتحدث مع أمها في إحدى الشرفات، ويبدو أن أخاها هو الذي صوَّر المشهد، لا يظهر صوته إلا مرة واحدة، لانشغاله بالتصوير. يتقدم الشاب في شارع ضيق بحي المنشية حتى يصل لنهايته، يقف أمامه على الناحية الأخرى من الشارع اثنان من القناصة بملابس سوداء. خطوات الشاب وحركة جسمه بها هذا الاعتداد الشعبي بالنفس. تقول الفتاة «بصِّي يا ماما ماشي إزاي.. ده اللي ماشي ده». عندما وصل الشاب لهذه النقطة من المواجهة يبدأ في فتح السويتر الذي يرتديه، ليعري، رمزيا، مساحة جديدة في صدره أمام البنادق المصوبة إليه. يكاد الشاب أن يخلع السويتر، ولكنه يتراجع في اللحظة الأخيرة ويكتفي بأن يشكل السويتر مع جسمه شكل الجناحين. تتعجب الفتاة من جرأة الشاب عندما يصل لهذه النقطة «أحييه إيه ده!!».

تسمع صوت تهليل لجموع غير ظاهرة «الله أكبر، الله أكبر». بعد أن أدى الشاب دوره، التفت يمينا في طريقه للدوران والتراجع. هل بالفعل كان يبغي التراجع؟ ربما خاف في هذه اللحظة أن يعطي لهذه البنادق المصوبة الفرصة لضربه في ظهره. تردد ثانية، ثم أعاد صدره مرة أخرى في مواجهة البنادق. لحظة صعبة لا يمكن التراجع فيها. بخطواته قارب الموت ونظر له عينا بعين. في هذه الالتفاتة السريعة، ربما نادته الحياة أو

رأى في الموت القريب ما لا يتحمله عمره. كانت عين الموت تحدق فيه من الناحية الأخرى بحسابات أخرى. لقد جذبها صدر هذا الشاب. في تلك اللحظة لم ألحظ صوت طلقات الرصاص إلا من تهاوى جسد الشاب. كان تهاوي جسمه على أرض الشارع له صوت دوي مكتوم. تصرخ الفتاة «أحيه.. مات.. مات»، بينما صوت الأم موجهة كلامها من بعيد للقناصة الذين تكاثروا في هذه اللحظة تلبية لنداء الدم: «ليه كده يا حيوان.. منكم لله». بالنسبة للقناصة لم يترددوا في إصابة هذا الصدر المستفز. ربما لو لم يخلع الشاب السويتر، ليقف كالطائر أمامهم. سدد القناص الضربة إلى قلب الطائر. لم يعد هناك وقت لألم جديد.

١٨

في احتفال «عيد العشاق» قابلت إحدى صديقات زيليكا وتعمل مدربة يوجا، وكانت تعمل من قبل كمتطوعة، في بيت هاينريش بُل، ترشد خرفان البيت من الكتّاب على الحياة الجديدة وكيفية جلب طعامهم من المولات القريبة. يبدو أن هذا هو السن المناسب للتطوع والتضحية بالوقت. تحدثتْ هذه السيدة بإسهاب عن مستر ديتيليف وأمه. لم أفتح الموضوع معها، أو حتى زوفنكو، ولكنها كانت متحفزة بهدوء لتشريحه على منضدة علم النفس. قالت إنه ربما يكون شاذا جنسيا، لأنها أثناء عملها، تتذكر، عندما كان يغيب خارج البيت، كانت والدته تقول لها إنه عند صاحبه لعدة أيام في دسدولدورف. زوفنكو كشف هواجسه ناحية هذا الرجل، الذي لا يستريح له بتاتا، بأنه يشك بحاسته الكامنة وراداره بكونه شاذا. وعندما سألته كيف حدست، قال حركات يده أنثوية للغاية، بالإضافة لأدبه الجم مع الآخرين. صدقت مدربة اليوجا على كلام زوفنكو وقالت إنه يسعى لكسب ود الآخرين، حتى يصل لدواخلهم وعندما يتأكد من تمكنه منها ينقض كالفريسة الجائعة طالبا لحقه في الحياة.

اسم «ديتيليف» كان اسما غريبا بالنسبة لي، يشبه الأسماء المرتبطة بنشاطات سرية: قتل، تجسس، تهريب نقود، مافيا. قريب من الأسماء التي تستخدمها أجاثا كريستي ويتتبعها هيركول بوارو مخبرها السري

عن أحد القتلة النفسيين، الذين لا يشبعون رغبتهم في القتل إلا لدوافع ثانوية جدًا في نظر الناس، ولكنها جوهرية في نظرهم. كان ديتيليف واحدا من هؤلاء، وبالتأكيد هذا الخبل الخفيف الذي نلاحظه على أمه ودخولها في حوارات وموضوعات تتناسل بعضها من بعض بدون لحظات صمت، أظهر هذه السماء الملبدة بالثرثرة التي يعيش تحتها ديتيليف، مع أمه، في البيت.

حدثت حادثة طريفة وكان بطلها زوفنكو كالعادة. حضر مستر ديتيليف للبيت حوالي السابعة. طرق على الباب، وفتحت له، وأهداني صورة لي قد التقطها عند زيارته لنا، وكذلك صورة للبيت من أعلى. استغربت تمامًا كيف التقط هذه الصورة من أعلى. كنت سمعت من مدربة اليوجا، أن والدته تحتفظ بتليسكوب في بيتها تراقب به ما يحدث وراء زجاج نوافذ القرية. كنت أجهز لعشائي، تقدم خطوتين داخل الشقة، لاحظ رائحة العشاء، فتراجع للخلف خجلا بدون أن يستدير وكنت قد تركت الباب مفتوحا ليسهل صرف هذا الشيطان. في أثناء رجوعه القهقرى، وجدت أمامي صوفيا مدربة اليوجا ذات الأصول الهنغارية تظهر فجأة. لم يكن هناك موعد بيننا، سوى طلبي منها في عيد العشاق أن تعلمني اليوجا. كادت أن تصطدم به بدراجتها. شعر ديتيليف بحركة عيني المنبهة له، نظر فوجد صوفيا أمامه، تراجع بشدة عندما رآها كأنه رأى شيطانا.

بعدها توجه إلى الإستديو الخاص بزوفنكو، كان نور الأباجورة مضاء في الطابق الثاني دليلا على أنه مشغول بالكتابة أو بالاستمناء على أحد أفلام البورنو. انتظرت على الباب لأشاهد ما سيحدث. كانت صوفيا قد تسللت للداخل ووقفت في الصالة خلفي تشاهد

مشاهدتي لتلك التمثيلية القصيرة. فتح زوفنكو الباب، ويبدو أنه لم يتوقع أن يكون مستر ديتيليف هو الطارق، لأنه خرج مرتديا شورتا قصيرا، وفانلة كت، يرتديهما في البيت عادة. ولكن عندما رأى مستر ديتيليف أمامه، رد الباب بسرعة، كامرأة فتحت الباب بلباس النوم ظنا منها أنه زوجها، وطلب منه الانتظار دقائق. عاد بعدها محجبا مرتديا بنطلونا طويلا، وفانلة بأكمام طويلة. وتحدثا على الباب بدون أن يدعوه للدخول وسلمه الصور الخاصة به. لقد خشي زوفنكو أن يكون جسده مصدر إثارة لمستر ديتيليف وبعدها لن يتركه إلا بعد أن يجهز عليه. أثناء تلك المناورة السريعة يبدو أن زوفنكو لمح دراجة صوفيا المركونة أمام شقتي، وربما لمح شبحها من وراء النافذة، المهم أنه تيقن بأن هناك شبح امرأة يحوم في المكان.

«هل ما زالت عندك الرغبة لتعلم اليوجا»؟ قالتها صوفيا بخجل.

يبدو أنه في غمرة النشوة في عيد العشاق طلبت منها أن أحضر أحد دروسها لليوجا. إذن لقد جاءت بنفسها لتعلمني. كنت أريد أن أقترب من بحيرة أنكا التي تخرج منها الأسماك الملونة. كنت قد انتهيت من إعداد العشاء، ولا يمكن من التراجع. دعوتها لتناول العشاء معي، وكان عبارة عن طبق سلطة عادية مع شرائح من السلمون المدخن. وافقت على طبق صغير من السلطة، فهي نباتية ولا تتناول اللحوم، ولا تشرب البيرة، ولا أي نوع من الكحوليات، لأنها تجعل الروح خامدة كما قالت، وهي تريد أن تكون روحها متقدة على شفا النيرفانا.

لم أقدر على تصديق كون صوفيا معلمة يوجا. هناك برود في وجهها، يجعلني لا أثق في مدى تأثيرها على تابعيها. تناولنا العشاء.

في هذه الأثناء كان زوفنكو قد صرف الشيطان بعد أن أخذ منه الصور، ولحظات حتى وجدته فوق رأسي، حضر على عجل، شعرت بخيبة أمل في وجه المعلمة البارد، وخمنت أثناء تناولنا الشاي جميعا بأنني أفسدت عليها خطتها في تدريبي المنفرد على اليوجا، وكذلك تذوق تعاليم وروائح هذا الجسد الشرقي.

لم ينتظر زوفنكو طويلا، ويبدو أن جرأته لم تفارقه بعد وأخرج مجسات خوفه سريعا، وسألها مباشرة وبدون خجل: «إحنا هندفع فلوس للدرس ده؟» ردت بهدوء: «لأ طبعا، ده مجاني». كانت تكلفة الحصة كما أخبرتني أنكا من قبل للفرد عشرة يورو، فما بالك والدرس خصوصي في البيت، وهو ما أرّق زوفنكو وجعله يسأل هذا السؤال البديهي. فرد زوفنكو بسخرية أو تعجب «ها». وهي الصيحة التي يطلقها عندما يقبض على سر محلق في الهواء. لم تنتظر المعلمة كثيرا، ربما امتصت شفاهيا رحيق جسدين شرقيين أحدهما شرقي أصيل والآخر شرقي مخلط. جلسنا على السجادة وكانت تأتي من ورائنا وتضع صدرها، بثدييها الصغيرين، على ظهورنا لتشرح لنا الطريقة التي نضع بها أيدينا أثناء التمرين. في اليوم التالي أخبرني زوفنكو بأنه لا يريد أن يختم أيامه هنا بالنوم مع هذه المرأة ذات الأصول الهنغارية، ولا يريد أن يتعلم اليوجا مدى العمر. ربما كان يحذرني بطريقته من هذا الجنس الهنجاري المهاجر.

١٩

عادت الشمس بعد عدة أيام ممطرة، وتوهجت «غرفة الشمس» بالأشعة التي تنتظر الحوارات. كل منا، أنا وزوفنكو، كان قابعا في كهفه يطارد أشباح الكتابة بالإضافة لأشباح حياته الشخصية. بدأ موسم إثمار شجرة الكمثرى الرابضة على باب البيت وسوره من الخارج، مما منحني سببا إضافيا للكتابة. بجانب شجرة الكرز التي كنت أجهل تمامًا هذا الحصاد الوفير والحياة والضحك التي ستمنحه لنا. روح مثمرة بدأت تدب في جسد البيت.

فكرنا، بدون موعد مسبق، الخروج للحديقة، استجابة لنداء تلك الأشعة الطبيعية. وضعت غلاية القهوة على البوتجاز، وأخذت معي الكوب الخاص بي، ووجدت زوفنكو مسترخيا على الحشيش يقرأ في رواية «سخرية لا نهائية» لكاتب أمريكي اسمه ديفيد فوستر ولاس، والتي أعاره إياها جيرمان قبل سفره الطارئ لسان بطرسبرج لرؤية زوجته. وعرفت منه أن صاحبها انتحر حديثا ويسمونه «بوذا أمريكا» لأنه يقف ضد كل أشكال الاستهلاك والتملك وعبادة المادة التي يراها منتشرة في أمريكا حيث كان يعيش. كان يسد بالرواية أشعة الشمس. تسحبت ووقفت أمامه في طريق الأشعة، شعر بي كغيمة عابرة، ابتسم وهو يضع يده على عينه وينظر لي من خلال أصابعه: «كوليجا علاء»، نداءه المحبب لي كأني في زمن ما كنت أحد أعضاء

الحزب الشيوعي اليوغسلافي ولكن في أوقات الراحة وليس في أوقات النضال. بعد أن شرح لي محتوى الرواية طلبت منه استعارتها قبل مغادرته. وافق على الفور، كأنه يريد أن يتخلَّص من عبء ثقيل تشكله هذه الرواية عليه.

كان طقسا شتويا لطيفا، شمس صامتة ومجوفة كأنها ضوء فقط بدون حرارة. تضاحكنا على واقعة عيد العشاق، حتى بعد مرور عدة أيام عليها، كان ما زال هناك رصيد من الضحكات لم يبدد بعد على هذه الواقعة الفارقة، ولن أبدده طوال سنوات وسنوات كلما تذكرت تلك الواقعة في أي مكان آخر جاثيا على ركبتي من الضحك. قال لولا أنه كان مخمورا لما دانت له جرأته بهذا الشكل، ليسأل الفتاة/ الفتى هذا السؤال الصريح. ما كان يخشاه زوفنكو، أكثر من أي شيء آخر، بجانب أنه سيراقص فتى ظنا منه أنها فتاة؛ هي عيون أهل القرية الذين يعرفون حقيقة الفتاة، وكيف سيكون أضحوكتهم بعد أن ينفض اليوم، ولا تبقى من آثاره في هذه القرية سوى هذه الذكرى وهذه الضحكات. يبدو أن هذه الفتاة كانت طُعما يتركه أهل القرية منصوبا في الهواء الطلق للأغراب، حتى لا يقتربوا من بناتهم، ومن يقترب منهم من هذا الطُّعم ينشِّط فيهم حسا فكاهيا وضحكا صافيا شديد الندرة وسط آلية الحياة وجديتها ودقتها المتناهية في كل شيء، كل شيء حتى في الضحك.

كان مستر ديتيليف، يقوم بتقليم النجيل بماكينة التقليم التي تصدر صريرا مزعجا بعض الشيء، في الأرض المجاورة لنا، التي تئول إليه وتقع أمام بيتهم. يتحرك ذهابا وإيابا عشرات المرات بطول الأرض، سطرا سطرا، حتى انتهى تمامًا من الحديقة. طوال فترة عمله لم ينظر

ناحيتنا بتاتا، ولا حتى ألقى السلام. ربما حاول أن يتجنب النظر إلينا. ربما كان له طريقة شيطانية في مراقبتنا بدون أن نلحظ ذلك. كان يؤدي عمله بهمة ونشاط فائقين، وعلقت على هذا بأن عنده «طاقة مخزونة». في البداية لم يلتقط زوفنكو القفشة. كنت أعني كلام زوفنكو على «زيليكا» أنها عندها طاقة مخزونة بسبب غياب الرجل من حياتها؛ لذا تتبرع بالقيام بالعديد من الأعمال الشاقة مع ديوك بيت هاينريش بُل. أصبح أكثر ما يربطني بزوفنكو مجموعة من المواقف التي تولد الضحكات، والقفشات.

كان له ملحوظة صائبة عن ديتيليف، أن «الشواذ» من أكثر الناس انضباطا في عملهم، ودائما ما يبغون أن يكونوا الأفضل. هذه الملحوظة صائبة جدًا، ليس الانضباط تعويضا عن تسيب في منسوب وحاسة الجنس، بل امتدادا لهذه الحاسة الجنسية الجديدة، كأنه اكتسب عضوا جديدا له القدرة على استيعاب المزيد من الجهد والعمل.

لحظات وكان زوفنكو يجهز الشواية الكهربائية ويضعها بجوار غرفة الغسيل. يوجد داخلها فريزر كبير مجمع، حيث يشغل كل عضو في البيت الكبير درجا منه، بجانب الغسالة الكهربائية وأدوات التنظيف الأخري التي تستخدمها جارتنا. كان زوفنكو يستعد لمقابلة أحد بلدياته من الصرب الذين يعيشون في ألمانيا، والذي قام بترجمة عدة قصائد له، وسافر لمقابلته في كولون منذ عدة أيام. ساعدته في تجهيز اللحم وتتبيله، وطلب مني عددا من الأطباق الفخارية والأكواب. دقائق وحضر صديقة المترجم السمين، ومعه زوجته الألمانية، وفتاة لا تتجاوز الثلاثين تعمل بالترجمة أيضًا ولكن من الإنجليزية للألمانية. كان المترجم وزوجته تقريبا في عمر زوفنكو

ويبدو أنه السن المشترك لجيل الكفاح الذي عاش تحت سماء بلجراد وطائرات الناتو تمطره بالقنابل، ومن ناحية أخرى جنود ومخابرات السفاح ميلوسيفيتش يمطرون ليل بلجراد بالجواسيس والشائعات والرعب.

قضينا ظهيرة ممتعة، مع شواء اللحم وحديث الأدب، والنبيذ. كانت زوجة المترجم مهتمة بي وتود معرفة أحوال الثورة المصرية، وطلبت مني أن تجري معي حوارا في المستقبل القريب ووعدتها بذلك. حاولت أن أنهي معها الحوار الجانبي سريعا لأتفرغ ولو من بعيد لتلك المترجمة الشابة، والتي تعتبر أول دجاجة حقيقية في عز شبابها، في عرف «زيليكا»، تدخل هذا النزل البيورتاني. بل كانت أكثر الوجوه أنثوية وحيوية وتعبيرا عن الحياة رأيته في هذا البيت، بل والقرية كلها، طوال شهور إقامتي.

يبدو أن رائحة الشواء واللحم الأنثوي جذبا مستر ديتيليف، فبعد أن سهينا عنه وعن صوت ماكينة جز الحشائش، يبدو أنه صعد لبيته وراقبنا من بعيد وعرف من هم زوار البيت وأن هناك صيدا ثمينا، فاختلق قصة سريعة ليجد مبررا للدخول لهذا الحصن. وجدناه يتسلل من الباب الرئيسي وعلامات الجدية على وجهه كأنه في مهمة وليس في زيارة. والتفت لي، ولم يوجه بصره لزوفنكو ربما عتابا على صدّه في السابق، وسأل عن ساعة يده التي فقدها بعد مروره علينا منذ يومين. طبعا كانت حجة مكشوفة، وأحسست بالشفقة عليه، وكدت أن أدعوه للجلوس والاستطعام بكأس من النبيذ أو شريحة لحم، ولكن زوفنكو غمز لي من بعيد. اعتذرت لديتيليف بأننا لم نعثر على أي شيء، وأنني سوف أبلغ جارتنا المسئولة عن صيانة البيت عن هذه

الساعة المفقودة ربما تكون قد وجدتها. ظل الموقف معلقا لدقائق، زاد الحرج، وهو واقف في هذا الفراغ بينما عينه كالصقر تخترق صدر الفتاة، لدرجة أنني شككت في كل الروايات التي أكدت من ميله للرجال، وأحسست بأنه يمكن أن يكون مزدوج الميل الجنسي، ووقوفه الطويل المحرج كان بمثابة مؤشر بوصلة معلق في المنتصف بين قطبين جاذبين: الفتاة من ناحية وزوفنكو من الناحية الأخرى.

٢٠

ظلت رواية ديفيد فوستر والاس «سخرية لا نهائية»، التي استعرتها من زوفنكو، معي لأيام. أتوقف عند مقاطع فيها وأعيدها مرة واثنتين وثلاثا حتى أصل للمعنى. أحيانا كنت أتصل بزوجتي بالإسكايب، في أوقات حرجة، كي نتناقش في عدة معاني، مستفسرا منها عن المعنى الأدق. داخل كل المقاطع التي استوقفتني وجدت هذه النزعة التشاءمية الحادة والصادقة والساخرة ضد الغرب والاستهلاك، والتي تولد في الكتابة حسا روحيا له باطن عدمي صاف شديد النفاذ. ربما كنت أتحصن بهذه التعويذة وسط هذا الريف الألماني الهادئ الذي يعتبر إحدى قلاع هذه الرأسمالية الجديدة. أحيانا، أثناء القراءة والاستغراق في الرواية، كنت أشعر كأني في صالة سينما، منجذب تمامًا لهذا العالم وكلماته اليائسة، وهناك ستارة مسرح تُزال من أمام عيني، ويظهر واقع آخر يقف وراء هذه الحياة شديدة الجمال والنظام في هذه القرية. شعرت بأن وراء هذا الهدوء والجمال، في الأعماق منه، هناك شيء يتفاعل، وجرح ينزف. ربما ستظل الطبيعة الحصن ضد هذه الانقلابات القادمة، الكوارث الطبيعية، لأنها الأقل استهلاكا، على عكس روح الإنسان التي لعبت عليها الصناعة والتجارة والتقدم وأخذت تقتطع منها أجزاء كل يوم، وتؤممها لصالحها، حتى أصبحت المساحة الباقية للإنسان ولإرادته، صغيرة للغاية، لا تكفي لطموحه وأحلامه ومقاومته، ولا حتى ليكمل الحياة بدون حزن.

طبعا حياة الكاتب وموته، ساهما في وضع علامات حمراء كثيرة على أغلب الفقرات، وجعلتني أعيد قراءتها تحت ضوء هذا الموت المبكر له، أو انتحاره. فقد ولد عام ١٩٦٢، وانتحر عام ٢٠٠٨. عادت زوجته من الخارج فوجدته معلقا بحبل في جراج البيت. أطلقوا عليه في أمريكا «بوذا أمريكا»، بسبب هذا الحس الروحي الرائق الذي يتخلل كتابته، وربما لاحتياجهم لأن يكون هناك «بوذا» بينهم يمنحهم البركة أو يعادل قليلا هذه الأنانية المفرطة.

كلمة «لا نهائية» الموجودة في العنوان، وفي صميم فكر الكاتب، منحت العنوان قدرية لا راد لها. إننا مواجهون في نهاية حياتنا عندما نقابل هذه «اللانهائية»، نصطدم بها، تعرينا ونعريها. لقد كشف والاس عن هذه الروح الأمريكية الصافية ابنة الرحلة الطويلة وابنة الآباء المؤسسين، بإيمانهم بالأرض والروح والإنسان، قبل الإيمان الحديث بالاستهلاك والأنانية المفرطة، هذه الروح التي غادرت عالمنا مختارة لكي تحافظ على معان كان يؤمن بها هذا الجيل من الآباء المؤسسين لهذا البلد المعجزة.

من درجة انجذابي لسيرته الذاتية ولكتاباته، قمت بترجمة بعضها مع زوجتي عبر مناقشات عديدة بيننا للوصول لهذا المعنى الكامن وراءها. عادة كنت أجمع قصاصات لاقتباسات كثيرة من روايات وكتب وأشعار أحببتها، وأعتقد بأنني يوما ما سوف أجمعها في نص، يعتبر «رواية الروايات»، التي لم أكتبها بنفسي، ولكنها تحكي وتسير مع أفكاري وتطوري الروحي والنفسي؛ الذي يجمع هذه الفقرات المقتبسة والمتناثرة بين العديد من الروايات والكتب والأزمنة والجنسيات واللغات.

يكتب والاس في إحدى فقراته اللامعة في كتاب «هذا هو الماء»:

«أن تعبد جسدك وجمالك وتوهجك الجنسي، فلسوف تشعر دائمًا كم أنت قميء. وعندما يمر الزمن والسنون بك وتنعكس على مظهرك، فلسوف تموت مليون ميتة، حتى قبل أن تموت ويحزن عليك الآخرون. كلنا واعون بتلك الأمور، على مستوى ما. فقد صارت تلك الحقيقة كشفرة داخل كل شيء، تمامًا كالأسطورة، الأمثال، الحِكم، والكليشيهات، فهي العمود الفقري لأي قصة عظيمة، وربما يكمن السر في كيف تستبقي هذه الحقيقة لتكون في المقدمة وتُعلي من شأنها في وعينا اليومي. وإن عبدت القوة ـ فلسوف تشعر بالضعف والوهن والخوف، وستحاول أن تستعيض عن خوفك هذا بممارسة القوة على الآخرين لتبقي علي خوفك بعيدا عنك. وإن عبدت فكرك، لتجعل الآخرين يرونك كشخص ذكي ـ فلسوف ينتهي بك المطاف كغبي ومحتال، ودائما ستعيش علي الحافة خوفًا من أن يُكتشف أمرك».

٢١

تحوطني مجموعة من الحيوانات والطيور، تخفف قليلا من ندرة الناس الذين أراهم في هذه القرية. باستثناء الزيارة اليومية لريناتا جارتنا ذات البنية القوية، التي تقوم بأعمال النظافة والصيانة في النزل. كانت الوجه المعتاد الذي أشاهده كل يوم، بجانب رفقائي في المنحة، الذين كانت تمر عدة أيام بدون أن أرى أحدهم، يكون كل منهم قابعا في كهفه يطارد ملاك الكتابة أو يستمني أجساد النساء الغائبة.

يوميا أتحدث مع الحصان والفرس في الحديقة المجاورة. لا يمر يوم إلا وأذهب للحديث معهما. بمجرد أن يلمحاني بالقرب من السور حتى يهرعا إليّ. ولا أفعل أكثر من أن أربت على جبهتيهما وأظل أتحدث معهما باللغة العربية، لتأخذ مكانها في ذاكرتيهما بجانب اللغات الأخرى للكتّاب الأجانب الذين مروا بالبيت. أثناء حديثي أناولهما حبات التفاح التي يعشقانها، والتي كنت أجهزها لهما خصيصا. نفس دافئ يترسب في يدي، بينما أحدهما يقترب ويلتقط هذا الجزء من التفاحة.

هناك أيضًا مجموعة جميلة من الطيور السوداء ذات المنقار البرتقالي، بنت عشها في المدخنة التي تعلو البيت. عندما تدخل أحدها العش، أسمع جلبة عالية مضخمة الصوت لرفرفة مجموعة من الأجنحة، لا أعرف هل هي علامة استقبال وفرح لهذا العصفور

القادم، أم علامة رفض واستبعاد. سريعا يخرج الطائر الضيف حاملا في منقاره قشة أو نسيلة من طعام، ليطير بها لمكان آخر. ربما يكون قد أخطأ في عنوان عشه!

بينما وأنا جالس في الحمام في الدور العلوي أتغوط، أحب دائمًا أن أزيح الستارة التي على يمين قاعدة الكابينيه، لأتطلع للسماء في الخارج. تظهر قمم الأشجار العالية، للغابات المحيطة بنا، من خلف البيوت. في هذه السماء المفتوحة لا تعدم أن ترى عددا من الصقور السوداء، تحلق في الأعالي وتأخذ عدة دورات من التحليق. تشعر بانتشائها وهي فاردة جناحيها بتمهل، كأنها طائرة على وشك الهبوط، فلا أحد وسط هذه السماء المفتوحة يدعوها للعجلة أو حتى يشاركها هذا الفضاء. ولكنها لا تهبط، بل تكمل رحلتها لتصنع دائرة أخرى متماسة مع دائرتها الأولى. من أعلى ترصد حركة الأرانب في الغابات، لتنقض عليها في اللحظة المناسبة، وتغير من إيقاع حركتها، وتتحول لطائرة محترقة بدون نيران.

أحيانا أثناء تمشيتي المعتادة حول البيت قبل مغيب الشمس، أصادف غزالتين تجريان في مساحة خضراء مكشوفة بين غابتين. تقضي الغزلان حياتها وسط الأشجار الكثيفة للغابات، حيث المأكل والمشرب، وسهولة التخفي، ولكن أحيانا تضطر للظهور أثناء عبورها تلك المساحات المكشوفة بين غابة وأخرى. الغزالة الأولى كانت قريبة من الغابة المراد الوصول لها. عندما لمحتني من مسافة بعيدة قفزت قفزتين ثم ابتلعتها الأشجار. أما الثانية فقد فاجأتها وهي ما زالت في منتصف الطريق. لقد تنبهتا لي من هذه المسافة البعيدة.

أتاحت لي الثانية ثواني لأشاهدها وهي تجري. إنها لا تجري، بل تقفز، تضغم في قفزتها الواحدة عدة قفزات عادية. في قفزتها تشعر بأن هناك خللا ما، ربما في اختلاف النسب بين قدميها الأماميتين والخلفيتين، أو في حجم جسمها الصغير قياسا بقفزتها الكبيرة، تخيلت بأن جسمها يرتج. هذا الخلل، مثل حيوان الكانجرو، هو الذي منح قفزتها رقة ورشاقة. بعكس الحصان الذي يمتلك بناء هارموني، ويتحرك ككتلة واحدة تشق الهواء.

هناك غرف صغيرة خشبية مدهونة باللون الأخضر متناثرة في الغابات يتم الوصول لها بعدة درجات من السلالم، حيث يجلس بها الصياد ليلا متربصا بفريسته. السرعة الفائقة للأرانب البرية والغزلان، جعلت السير في الغابات مصحوبا دائمًا بخيالات سريعة تمرق أمامك بين الأشجار، أو من بين قدميك. كل عدة خطوات تسمع حفيف أوراق الأشجار الجافة، كأن روحا تسير على أطراف أصابعها.

٢٢

بالرغم من أني سمعت صوت جيرمان عند عودته من سفره السريع، عندما كان يسلم على زوفنكو الذي كان واقفا في الساحة ينتظر التاكسي الذي سيقله لمحطة القطار في دورن ومنها لكولون لمقابلة مترجم أعماله؛ فإني لم أخرج من قلايتي النفسية للسلام عليه. أحيانا كنت أفضل هذا الإحساس، أسدل الستائر في شقتي وأجلس في غرفة المكتب أتسمَّع فقط للأصوات من حولي. وصل التاكسي الذي سيقل زوفنكو، ثم سمعت صوت صعود جيرمان المتثاقل جدًا على السلالم الخشبية في شقته الملاصقة لي كأنه في طريقه لحبل المشنقة. دقائق وسمعت صوت الباب الرئيسي للنزل يُفتح، خمنت أنها ريناتا. كان لها عادة أن تدخل مباشرة لحجرة الغسيل لتخرج أدوات التنظيف لتمارس عملها. ولكن لم يفتح باب غرفة الغسيل، ولم يتلُ فتح الباب أصوات أقدام. تخيلت أنني أخطأت السمع والتأويل داخل غرفتي المظلمة. قمت من على مكتبي، ونظرت من ثنايا الستارة الحمراء، كان مستر ديتيليف يقف أمام باب شقة جيرمان ويقوم بالطرق عليه. خمنت أنه جاء ليسلم جيرمان الصور التي التقطها له وللبيت من مرتفع عال كما فعل معنا جميعا. ضحكت في سري لرؤيتي مستر ديتيليف، فقد كان المفروض أن يكون في السجن الآن، كما تخيلت أنا وزوفنكو مساء أمس على تلك الجريمة التي نسجناها من خيالنا.

الغريب بالنسبة لي أنه ذهب مباشرة لباب جيرمان، متيقنا من وجوده وعودته من السفر، ولا أعرف كيف عرف بهذا. ربما كان يراقب حركات نافذته المفتوحة في الطابق العلوي، بتليسكوب والدته. كل تحركاتنا طوال الأربع والعشرين ساعة كانت مرصودة من قِبل السيد ديتيليف وأمه، وترسل إلى صاحب البيت في مرقده الأخير.

أمس في الواحدة صباحا بينما كنت أكتب بعد يوم طويل من الكسل وهروب ملاك الكتابة حتى وأشباحها؛ سمعت سارينة عربتي مطافئ وإسعاف، كان صوتهما يتهادى من بعيد. تخيلت اقترابهما من البيت من اشتداد قوة الصوت. توقف الصوت عند باب الحديقة كما خمنت، وهناك من سيدخل ويسألني عن هويتي ويقبض عليّ. لم أجرؤ على الخروج لتبيان الأمر. لحظات وسمعت نقرا على زجاج الغرفة، كان زوفنكو يدعوني للخروج. سألته عما يحدث بالخارج، فلم تكن هناك في الهواء أي أثر لرائحة حريق. وجدت أن العربتين لم يتوقفا تبعا لسمعي الشكّاك أمام باب البيت، بل تقدما إلى حيث باب بيت مسز لودفيج وابنها ديتيليف. عندها ضحك زوفنكو وقال لي «ربما تكون هناك جريمة قتل، ربما يكون مستر ديتيليف قتل أمه!» قالها وهو يمرر يده على رقبته. طبعا ضحكت، ولبرهة تخيلت أن الموضوع يمكن أن يكون صحيحا، وأن هذا المكان الريفي المطمئن له وجه نفسي آخر، فرويدي في الغالب، لم يفصح لي عنه بعد.

قبل هذه الواقعة بساعات قليلة مر عليَّ زوفنكو، كنت لم أره طوال النهار، كل منا كان مشغولا في كهفه. أدمن زوفنكو تناول القهوة والحديث معي. كان يقول لي إني لا بد وأن أفتح مقهى في

هذا المكان. في هذا المساء القريب من خط سفره. كان زوفنكو مسترسلا، عن المرات السابقة، في حديثه عن بيته وعائلته في بلجراد. قرب موعد سفره فتح هذا الباب الموارب عن آخره. لا أعتقد أن زوفنكو من النوع الكتوم، بل كل الأبواب عنده مواربة، بمجرد أن تدفعها دفعة صغيرة، بجلسة حميمة يتصاعد في هوائها رائحة قهوة عربية، أو عدة كئوس من الويسكي؛ حتى ترى العائلة كلها جالسة خلف هذا الباب الموارب تؤدي أدوارها في الحياة. أعاد الحكي عن أمه، وظروف حياتهم الصعبة في بلجراد، بعد وفاة أبيه وارتفاع الأسعار بعد الثورة هناك. أمه التي عندما تتصل به في التليفون، أو يقوم هو بالاتصال بها، لا تملك إلا أن تقول له «ازيك، عامل إيه؟»، ولا تنتظر الإجابة خوفا من هذا العداد الذي يزن هذه الكلمات بميزان الذهب وأوراق اليورو.

مثّل زوفنكو أمامي كيف تتصرف أمه أمام هذه اليورهات المهدرة على الاتصال، وعندها يضع تلك السماعة اللامرئية في الهواء علامة على انتهاء المكالمة القصيرة. ثم انتقل الحديث عن أخته، التي يبلغ وزن زوجها السمين مائة وخمسين كيلو جراما، ولا يقدر على الوصول لرباط حذائه بنفسه، وطوال مكوثه في البيت يظل مبحلقا في شاشة التليفزيون، بجانب توجيه انتقاداته المستمرة لزوجته وابنه. أخته قبلت بهذا الزوج بعد قصة حب وصداقة دامت عشرة أعوام مع حبيبها الطيار، وانتهت بسبب عدم رضاء أبيها وأمها عنه. كانا يريانه شخصا أهوج لا ينفع زوجا لها لأنه يعيش أكثر الوقت وسط السحاب، وهما يريدان لابنتهما من يعيش على الأرض، وعقله مربوط بهذه الأرض.

ظلت هذه الانتقادات توجه لها طوال الأعوام العشرة، وفي النهاية انكسرت العلاقة، و«انكسر قلبها»، كما قال زوفنكو نصا.

كانت أخته قد جاوزت منتصف الثلاثينيات، فرضيت بهذا الزوج الذي كان وقتها زوجا مناسبا لواحدة مكسور قلبها، فله وظيفة مستديمة على خطوط السكك الحديدية، بالإضافة إلى أن وزنه وقتها لم يتعد ٨٥ كيلو جراما. قبل الزواج وبعد انفصالها عن حبيبها الطيار عاشت أخته فترات من الوحدة والعزوف عن مخالطة الناس. المشكلة أن زوجها كان يعيش مع أمه وأبيه، نظرا للظروف الاقتصادية، فعاشت الأخت مع عائلة جميعها يحلق في التليفزيون، وتتسلى بالانتقاد لكل شيء، كاللب والسوداني، في سهرات الخميس.

قال لي زوفنكو، وهو يفكر في المستقبل: إن أخته ستستريح عندما تحل مكان والدتها في البيت، وطبعا لن يحدث هذا، إلا عندما تموت أمه، ربما ساعتها فقط يمكن لأخته أن تترك بيت زوجها وتترك معه هذه الكتلة اللحمية لتربط حذاءها بنفسها. وعندما سألته لماذا لا تعود أخته للعيش مع أمها وتترك هذا الزوج الفيل. قال لأنها لا تتحمل الحياة أيضًا مع أمها، فالأم «دقة قديمة» لا تترك شيئا إلا وتتدخل فيه. وأخته لم تنس أن أمها وأباها كانا السبب في هذا الكسر الذي حل بقلبها عندما رفضا زواجها من حبيبها. ثم أضاف زوفنكو في نهاية حديثه، بأنه يقوم بمساعدة أخته كلما توافر له المال الكافي لهذا، ولكن من وراء زوجته التي لا تحب أخته، لأن زوجها ينام وهو جالس معهم ويتصاعد منه الشخير كأنه يطلِّع في الروح.

صباح الخير. مرفق عمود الغد. تحياتي..

علاء

الجرح الأمومي

الثورة كانت بمثابة جراحة نفسية، سواء للذي ناصرها أو وقف ضدها. أيام الثورة الأولى كانت تطابق المثل الشعبي «سرقاه السكينة»، من هول ما حدث لا يشعر بمرور هذا النصل الحاد في نفسه. الجميع يتقاسم ألم ما بعد الجراحة، ألما في غاية العمق والتجذُّر، الكل مجروح، والكل يشعر بهذا النزف الداخلي. لقد كثف هذا الجرح من إحساسنا بأنفسنا، ومدى إدراكنا لها. لم تكن هناك طريقة أخرى لنشعر بأنفسنا من الداخل. ربما إحدى مزايا الثورة، أن ترى نفسك وما حولك وأنت جريح، ولا تقدر على أن تحدد مكان الثقب الذي يتدفق منه الدم لتسده.

تشعر كأنك خلعت ضرسا وما زال الجرح نيئا لم يلتئم بعد. ما زال إحساس الضرس القديم ممزوجا بإحساس الألم. إننا نتألم الآن من هذا الجرح النيئ. هذه الهوة الخالصة من الألم كنت أملؤها بالطعام، آكل أي شيء أجده في الثلاجة، خليط من البكاء والضحك، الجبن مع العسل والطحينة. أدس الطعام داخلي، بدون مذاق، ليسد هذه الهوة النفسية العميقة، والذي يرقد بداخلها هذا الجرح النيئ.

كانت كل جروحنا من قبل متيبسة، لذا لم نعد نشعر بآلامها. أما هذا الجرح الجديد فهو الجرح الأم الذي سيطوي تحت جناحيه تاريخا طويلا من اجترار الألم. أصبحت جراحنا أمومية بعد أن كانت أبوية، بطريقة تسلُّط الألم علينا في السابق، ناحية استيعاب الألم،

بتجاوزه، بامتصاصه، كامتصاص الأم لمادة وجودها من تقلبات الطبيعة وتناقضاتها.

ليست ثورة ضد الأب، الذي مات بسبب القوى اللامرئية الحديثة التي نازعته سلطته وسلبتها منه، وأضعفت رموز أي سلطة داخل أي مجتمع. جاءت الثورة لتشيِّع هذا «الأب الميت»، مثل أب نجيب محفوظ الرمزي، منذ زمن بهذا القدر من الجماهير، نظرا لجلالته وقدسيته، وعدم إدراكنا لموته المبكر. أصبحت الثورة، تنحو ناحية الجانب النفسي للأنثى، أو الأمومة بشكل عام، بكل مفاهيمها الفرويدية وغيرها. لم يكن هناك قهر يحدد الذات، بل امتصاص أو ابتلاع. عدنا مرة أخرة للرحم، ولكن هذه المرة عبر ثورة شعبية.

إننا الآن نواجه متغيرا كالمتغيرات الكونية، نقف في فيض هذه الطاقة العشوائية التي فجرتها الثورة. من قبل كنا نعرف مسار الألم، أغلب مساراته كانت مسارات اجتماعية، وخيبات شخصية، وشكوكا دينية لها سقف واطئ، وأخيرا الخوف من الموت. الآلام الآن تجيء من خارج قشرة الوعي، من وراء أي معرفة سابقة عن أنفسنا.

٢٣

سافر زوفنكو إلى بلجراد. غيابه ترك فراغا كبيرا في تلك الصحبة التي جمعتنا. لم يعد في هذا المجمع السكني الأدبي سوايا وجيرمن. إلى حين عودة ألجريد بعد أسبوع من هامبورج. جيرمان وأنا لسنا من هذا النوع الذي يفرض أبوته المرحة على الآخرين، بعكس زوفنكو. بعد سهرة جمعتنا نحن الثلاثة لوداعه، وقف يودعني على باب شقته: «جود مان.. جود مان»، وهو يربت على كتفي. وأضاف «خليك قوي». قالها وهو يضم قبضته لأتعلم من هذه الضمة للأصابع على الكف كيف أضم أصابع حياتي وأجعلها في الشكل الأمثل لمواجهة الريح. تعانقنا مرتين، ثم انسل إلى شقته. وفي الصباح وجدت على باب شقتي هدية منه، تلك السجادة الصغيرة التي كان يفرشها على الحشيش عندما كنا نذهب للتنزه في الغابات، وفوقها قطعة صابون لم تستخدم.

في سهرة وداع زوفنكو سألت جيرمان، الذي كان عائدا لتوه من المشاركة في لجنة تحكيم جائزة أدبية كبرى في روسيا للكتّاب، من خارج روسيا، الذين يكتبون بالروسية. سألته عن موطنه الأصلي في إقليم الشيشان. لا يأتي ذكره هذا الإقليم إلا ويدخل جيرمان في فاصل من السخرية على مواطنيه «المجاهدين» المسلمين، كأنهم واقفون أمامه في صف واحد، وهو ينفث في وجوههم هذه الحمم.

تخيلت الشيشان إقليما لا يسير فيه المواطن إلا وفي يده مدفع رشاش ليدافع به عن الإسلام. وكل من فيه يعملون بالقنص، قنص الأجساد العارية والأفكار الغربية.. هكذا صوره لي جيرمان. كل الشباب يريد أن يموت ويستشهد ليدخل الجنة. الجنة التي لا يعرف جيرمان مكانها بالتحديد أين تقع على خريطة العالم، وهل هي إقليم أو بلد جديد أضيف إلى قائمة الأمم المتحدة!

كانت مفاجأة بالنسبة لي، أن يتسلل الإسلام إلى هذا البلد وبهذه الحدة. لم أكن أتخيل أن الإسلام يمتلك هذه الجرأة ليصل لهذه البلاد خصوصا في العصر الحديث. حكى جيرمان عن السنوات المعقمة للمدرسة الإبتدائية والإعدادية. كان هو وبعض زملائه الـ«متغربين»، يهوون الرقص ومعاكسة الفتيات. كان ذلك في الحقبة الشيوعية. أول علاقة جنسية أقامها مع فتاة كانت زوجته، يذكر هذا بندم. فقد كان الاختلاط بين الجنسين ممنوعا في تلك الفترة، على حد قوله، لم تكن هناك ثقافة مشبعة بالجنس كما يحدث الآن، لذا فآثار الحرمان لم تعلِّم على جلده كما حدث مع الجيل الحالي من المجاهدين. في زمنه كان الخيال وحده هو المثير الوحيد للجنس، أما الشارع فلا خيال يمرح فيه، فالفتيات كن يمشين فيه محتشمات بغطاء على الرأس وملابس طويلة. أما الآن فالجو كله مشبع بالجنس، عبر الإنترنت، والمحمول، وهي «الذلة» التي يمسكها جيرمان على المجاهدين الشباب، يصفهم بأنهم «هيبوقراطيون»، يصلُّون خمس مرات في اليوم، وفي نفس الوقت كل واحد منهم يحمل على تليفونه ما لا يزيد عن ألف صورة لنساء عاريات. وإمعانا في إذلالهم في حديثه

والسخرية منهم، يصف الواحد منهم عندما يذهب إلى العاصمة موسكو؛ بأن أول شيء يفعله أن ينظر للنساء العاريات السائرات في الشارع، ويتحرق شوقا بأن ينام معهن جميعا ويلتقط تلك الثمار الساقطة في الشارع الكبير التي لا يلتفت إليها أحد.

سألته: هل لك أصدقاء من المجاهدين؟ قال: لا. وكيف حكمت عليهم وعلى ازدواجهم ونفاقهم، كما نعتهم بالهيبوقيراطيين؟ قال: من خلال «الشات». كيف؟ هل هم من قائمة أصدقائك؟ قال: نعم. فكثيرون يدخلون على موقعه ليكيلوا له السباب، بسبب كتابه «أنا شيشاني»، الذي قام فيه بفضح ازدواج ونفاق المجتمع المسلم في الشيشان. لقد تكونت بينه وبين شباب المجاهدين الشيشان علاقة صداقة قامت على السباب. يعيد جيرمان التذكير بأن رئيس جمهورية الشيشان نفسه، والتي لم تستقل بعد عن موسكو، تحدث عن كتابه : «أنا شيشاني» في إحدى خطبه واصفا مؤلفه بالشخص غير الوطني، وربما نعته بالخائن. يذكر جيرمان هذا الحدث بفخر داخلي. بالنسبة لجيرمان السباب والمدح في كفة واحدة، وربما هي إحدى صفات الكتّاب الذين يفضحون أنظمتهم، ولهم علاقة مزدوجة مع بلادهم. يرون أن أي هجوم عليهم من الداخل علامة على النجاح. أشكال جديدة من النجاح والتحقق لم تكن موجودة والعالم منغلق على نفسه والحدود بينه صارمة. لم يكن «الآخر» له هذا الحضور والاستهلاك المقدسين.

انتقل بعدها جيرمان للحديث عن مكانة الجنس في الأدب الروسي، والذي يمكن تلخيص مكانته بأنه يشغل مكانا في عربة الدرجة الثانية وربما الثالثة في قطار الأدب الروسي. إنه عندما

يتحدث عن الجنس في أعماله لا يصف العلاقة الواقعية، كعضو ذكري يبحث عن الطريق إلى المهبل، وإنما يتحدث عنه بشاعرية، عن الأجواء التي تحيط بلحظة الجنس وما قبلها. وعاد بالذاكرة لموقف في كتابه الاعترافي «أنا شيشاني»، عندما يصف العلاقة بين فتى وفتاة تواعدا بعد ساعات العمل، بأنه أنهى القصة بقصيدة لبوشكين قبل أن يلامس الفتى الفتاة. الجنس في الأدب الروسي موار وغير مباشر. قلت له: أنت سليل هذا الأدب الأخلاقي، الذي كان مؤرقا بمشكلات أخلاقية وفلسفية وروحية ومجتمعية، تنتمي للنصف الأعلى من الإنسان. قلت له أيضًا: إذن أنت شرقي في كتابتك. وافق على هذه الملاحظة.

عند نقطة الجنس تدخل زوفنكو، وهو يصب لنفسه كأسا خامسا من ويسكي البوربون، وقال إن في ثلاثيته الروائية الأخيرة صفحات كاملة من الجنس الثقيل الصرف «هارد سيكس». عندما قرأت زوجته هذه الصفحات توسلت له أن يلغيها في الطبعة الثانية من ثلاثيته. خشيت زوجته من أن يقرأها أبوها أستاذ الجامعة المعروف حتى لا يغير رأيه في زوج ابنته. ولكن بناته قرأن الرواية، ولم يعقبن عليها. عاد زوفنكو بالذاكرة لفترة مراهقته، عندما سألته هل كان والدك ينصحك في بعض الأمور الجنسية؟ قال: لا، لم يكن بالبيت أي حديث من قريب أو بعيد عن مثل هذه الأمور، كأن الجنس كائن فضائي لا يحق له أن يعيش على الأرض ويتغذى من ترابها وطينها ودودها. وأضاف: «مرة وجدت أمي مجلة البلاي بوي بجانبي على الفراش، فأخذتها كرهينة وذهبت بها لوالده. حار والده ماذا يفعل

مع هذا الابن العاق، وقال له بهدوء مصطنع: كيف تسمح لنفسك بأن ترى أمك صورا لنساء عاريات وهي في هذا السن؟ ألا تخدش هذه الصور حياء أمك؟ كيف ترضى بهذا؟ أرجوك يا بني كف عن شراء مثل هذا النوع من المجلات».

لقد أورث الحكم الشمولي في الاتحاد السوفيتي سابقا، وفي يوغسلافيا سابقا، نفس الحس الأخلاقي والتزمت الموجودين في مصر. وربما أورث كذلك مكانة متأخرة للمرأة عن الرجل، برغم ادعائه المساواة. مد جيرمان قدميه على كرسي مقابل له ليأخذ راحته: «الأدب العربي مشبع بالجنس». ثم نظر باتجاهي مستفسرا؟ يعود هذا الحكم الشخصي لجيرمان لعدة أسباب، أولا أن المجتمع المسلم متشدد ومنافق وعنده ازدواجية في الوعي والسلوك، ولذا الكتابة تأتي محملة بالمكبوت. لذا عندما لا تحمَّل الكتابة بهذه الحمولة الجنسية الثقيلة فمعناه أن الكاتب مُصِر على ازدواجيته، أما لو حمِّلت بحمولة جنسية رومانسية فمعناه أن الكاتب قد شفي من الكبت! كان جيرمان لا يرى إلا كتابته، كأنها روشتة طبيب نفساني لعلاج أمراض المجتمعات الإسلامية المتشددة، على حد رأيه. نظرة قاصرة جدًا. قلت له أنت تتحدث ربما عن «ألف ليلة وليلة»، قال: نعم. قلت له: ليست هي الأدب العربي. سألني عن الأدباء المصريين المهاجرين في الغرب. وربما سؤاله هذا يرجع إلى أنه يرى أن من ترك هذه البلاد المتشددة ربما يكون قد نجا بجلده من هذه الحمولة الجنسية والازدواج والنفاق.. ربما يا جيرمان.

الخريطة غائمة تمامًا عند جيرمان. قلت له: أنتم وسط الحكم

السوفيتي الملحد كان عندكم هذا التشدد الأخلاقي الذي يمنع اختلاط الجنسين، ونحن منذ بدايات القرن العشرين هناك تحولات في العلاقة بين الجنسين، حب وصداقة، وغيره. حكيت له أنني تزوجت من زوجتي بعد خمس سنوات من الصداقة. كل هذا وسط المجتمع الإسلامي المتشدد كما تعتقد. ثم أعاد سرد حكاية مغامرته العابرة مع تلك الفتاة القبطية التي قابلها في شرم الشيخ في زيارته السياحية، وكم كان فرحا بذكاء الفتاة وتوهج روحها، ربما في نظره هذا الذكاء يعود لكونها قبطية وليست مسلمة! لا يرى الحرية والذكاء والجاذبية إلا عند الأقليات. ربما إحساسه الدائم بأنه مرفوض من وطنه، جعله يتعاطف مع كل الأوطان الهامشية العابرة ومن يمثلها.

هنا في لانجنبرويخ اكتشفت أن الحالة المدنية في مصر أقوى من أي تشدد يمكن أن يسيطر عليها. رأيت المستقبل الذي كان غائما ومشحونا بالتوجس، أثناء الثورة وما بعدها. البذرة المدنية الحرة المدفونة في أعماق المجتمع رأيتها واضحة هنا وأنا أتحدث مع زوفنكو وجيرمان. ربما حدثت الثورة لكي تحافظ على هذه البذرة، وتمنحها زمنا لتمكنها في التربة أو تمنحها بعض الغذاء وهي كامنة في ظلام التربة.

صباح اليوم مرت علينا زيليكا. بدأنا درس اللغة الألمانية في الحادية عشرة. كان جيرمان سريعا في درس اللغة، كل إجاباته كانت صحيحة حتى في تكوين الجمل، شككت بأنه يجيد اللغة الألمانية ويستعبط كي يقترب من زيليكا «سيدة بيت هاينريش بُل»، كما كان يلقبها. كان الجو جميلا فجلسنا في بقعة الساحة الخارجية تحت

أشعة الشمس. نظرت صدفة ناحية بيت مسز لودفيج فوجدت خيالا يتحرك وراء الزجاج، وحدست بأن السيد ديتيليف يوجه لنا منظاره المكبر ليتفحص أجسادنا. بعدها ذهبنا لرحلة التسوق المعتادة. كانت زجاجات البيرة قد نفدت في وداع زوفنكو، فاشتريت صندوقين، وأودعتهما في شنطة عربة زيليكا الفولكس، الغريب أنها كانت تحتاط ألا تزيد المشتريات عن وزن معين حتى لا تتأثر العربة!

في طريق العودة، طلب جيرمان، الذي صحبنا لرحلة التسوق، أن تنزله «زيليكا» عند نقطة معينة ليكمل الطريق سائرا إلى البيت. كانت عادته المكررة عند عودتنا. كأن هذه الرغبة لا تهاجمه إلا في منتصف طريق ما. مررنا على مقبرة القرية، وكان بها قداس لأحد الموتى الجدد، جدَّد ذكرى جار زيليكا، ذي الأربعة والأربعين عاما الذي توفي منذ شهر تقريبا بالسكتة القلبية. أكملت نفس كلامها، أنه لم يكن يعاني من شيء، وكان وسيما جدًّا. تطاردها دوما ذكرى الموت هذا عندما نكون وحدنا في العربة! كأنها تبحث عن حل للموت داخل هذه العربة. ربما أنا كنت أحد حلولها التي تعبر بخيالها. سألتها هذه المرة أيضًا بعد أن توطدت عرى الصداقة بيننا: «أنت خائفة، لأنه مات في سن قريب جدًّا من سنك» قالت: نعم. سألتها: هل كان متزوجا؟ قالت: لا، كان يعيش وحيدا، ربما الوحدة هي السبب. ثم أردفتُ: وربما السبب خافٍ عند الله؟ قالت: نعم، وكأنها تبوح لي بسر: «يجب أن أبحث عن المتعة والسعادة حتى لا أموت، فأنا أيضًا وحيدة بلا زوج».

كنت أخشى أن أكون في هذه اللحظة كهفا لهروبها المتوقع من

الموت. كانت تقود العربة وفتحة فستانها الجانبية تكشف عن سيقانها كاملة. لا أشعر بأي جاذبية تجاه زيليكا، هي مثل هذا الشاب المقنع بالأنوثة الذي راقصه زوفنكو في الحفل. في صحتك يا زوفنكو وأنت هناك تسير تحت شتاء بلجراد، ربما تضحك الآن على ورطتي مع زيليكا وسط الغابة في هذا الطريق الخالي من البشر، والمطر يتدفق حول كبسولتنا في انهمار كوني يبحث عن الأرض التي ستتشربه لتنبت بذورها، بينما هناك بعض الطيور السوداء تحلق من بعيد.

٢٤

اصطحبت جيرمان في رحلة التمشية. منذ صباح الجمعة الفائت لم نلتق، كل منا جالس في صومعته يصلي لملائكة الكتابة. الأمطار كانت غزيرة في الأيام السابقة ولم تتوقف إلا اليوم. تابعت أخبار زوجتي على الإسكايب. كانت تشرح لي الخطوات التي قاموا بها هي ومجموعة من الأصدقاء الفنانين في القاهرة والإسكندرية، لتنظيم احتفال في أحد المقاهي الشعبية في الإسكندرية في حي الأنفوشي، قاموا فيه برسم جداريات مع الأطفال، وأقاموا مسرح عرائس، وعزفوا موسيقى، بجانب معرض صور فوتوغرافية لمسيرات الثورة داخل المقهى. الجانب الفني وتفاصيله المشحونة بالعاطفة كان مسيطرا على الثورة، وربما هو الذي قام بتوثيقها بدقة أكثر من الجانب السياسي أو الاجتماعي. وغالبا ما سنلجأ لهذه اللحظات الموثقة في المستقبل لنرى ما حدث لنا بدقة.

خلف زجاج نافذة غرفة المكتب، كنت أرى جيرمان يخرج إلى الحديقة ويدخل عدة مرات، ليدخن سيجارة أو يشعل غليونه. في الليل سمعت صوت أتوماتيك نور الحديقة عدة مرات، والذي يضاء تلقائيا عند خروج أحدنا. خلال اليومين السابقين الممطرين كان باديا عليه التوتر والقلق، ويبدو أنهما سمتان أساسيتان فيه. انتهزت فرصة جلوسه بالخارج للتدخين وخرجت إليه وعرضت عليه أن يأتي معي

للسير، فوافق على الفوز، كأنه ينتظر مبادرتي، وقال «عندما تخف حدة الشمس»، كان اليوم حارا بعكس الأيام السابقة. وعندما سألته عن أحوال الكتابة معه، قال، إنه غير قادر على أن يكتب سطرا واحدا، لا مقالا، ولا قصة، ولا شعرا.

سرنا في الطريق المعتاد الذي أقطعه كل يوم، داخل هذا الدغل من الأشجار العالية الذي يتوسط غابتين، ثم مرة واحدة ينفتح الطريق ويتسع، وتختفي الغابات، وتظهر مساحة خضراء على يمين ويسار الطريق. نادرا ما أرى عربة تمر في هذا الطريق. في مثل هذا الوقت من اليوم عادة ما أصادف هواة التريض، وركوب الدراجات، ومن يتنزه مع كلبه، أو من يشد حصانه ويأخذه في جولة ترفيهية خارج الإسطبل. أغلب الوجوه هادئة وبشوشة، عندما ترى أجنبيا تبادر «هاللو»، ثم تمضي سريعا في طريقها، كأنها بهذه التحية المتعجلة تدرأ أو تروض هذا الشيء المجهول.

في بداية السير تحدث جيرمان عن قصة يقرؤها الآن لهاينريش بُل، تحكي عن سنوات معاناة لشاب يعيش في كولون، وبعد نجاحه في تخطي سنوات الجوع هذه التي تلت الحرب العالمية الثانية، يعود الشاب ليلاقي كل من ساعده وأطعمه ليرد له الجميل. يرى جيرمان أن جل تركيز هاينريش بُل، وإبداعه في القصة، انصب على وصف سنوات الجوع والحرمان التي تلت الحرب العالمية الثانية، وربما هي أهم سنوات الأدب الألماني الحديث. جيرمان وهو يصف دقة هاينريش بُل في وصف هذه السنوات، كان يبتسم ابتسامة العارف، كأنه يحكي عن نفسه وسنوات جوعه وحاجته في الطفولة والشباب، وحاجته الآن لمن يعود إليه ويبحث عنه ليرد له الجميل.

سألته: هل تشعر بروح هاينريش بُل في البيت. استغرب من سؤالي، كأنه شيء لا يريد أن يخوض فيه، ثم قال لي بوجه مهموم كأنه يفصح عن سر تعفن داخله: أنا أتكلم معه كل يوم. لم أستغرب من كناية جيرمان، التي تصل لحد الحقيقة، لسابق علاقته الوثيقة بالأشباح التي امتلأ بها الأدب الروسي منذ ديستوفسكي وأشباحه وأبطاله الممسوسين.

في جولتنا نقل لي جيرمان صورة سوداوية عمّا يحدث في روسيا بعد البيروستوريكا وتقسيم الإتحاد السوفيتي. بدأ يشرح لي تأثير ما يحدث هناك على الأدب. فالتيمة الأساسية للأدب الآن هي الفكرة الاجتماعية، بمعنى أن الحدود الفاصلة بين الطبقات أصبحت أكثر وضوحا وقسوة، وبرر هذا بالنقلة القوية ناحية النظام الرأسمالي، الذي وضع بدوره فروقات حادة بين طبقات المجتمع.

وهذا الوضع كيف كان في الماضي سنوات الاتحاد السوفيتي؟.. سألته. كان هناك تساو بين الجميع ولا يوجد هذا النوع من التمايز الطبقي. ربما كانت هناك تمايزات أخرى ولكنها ليست طبقية. أغلب المنتجات الروسية يتم استيرادها الآن من الخارج، وقلت الرقعة الزراعية، ولا يعمل أحد سوى في الاستثمار، فتكونت طبقات لها قوة غير عادية في المجتمع. وعندما أخبرته أن هناك كثيرا من المستثمرين الروس لهم استثمارات كبيرة في مصر خصوصا في شرم الشيخ والغردقة، أخبرني بأن المستثمرين الروس لا يحبون أن يستثمروا في روسيا بسبب الفساد المستشري هناك، فبعد أن يبني أحدهم مصنعا، يمكن أن يؤخذ منه بسهولة.

جيل جيرمان هو الجيل الذي تلقى تعليمه المجاني في عهد الاتحاد السوفيتي القديم. فعندما سألته عن تأثير البيروستوريكا على جيله، قال إنه لم يلحظ جيدا هذا التأثير، لأن عمره كان وقتئذ مابين السابعة عشرة والعشرين، ولكنه شخصيا يود عودة الاتحاد السوفيتي القديم، ليس لأنه شيوعي، فهو منتم أكثر للأفكار الغربية، ولكن لازدياد حالات الفقر والبطالة والفروق الاجتماعية بين الطبقات بعد التقسيم. طبعا خلال الحوار تبادلنا الأدوار في الحديث عن روسيا ومصر، ولكن الملاحظ هو التشابهات بين الوضعين المصري والروسي، النزوع ناحية الاستهلاك، إهمال الزراعة، زيادة الاستثمار الاستهلاكي، ظهور طبقات جديدة منتفعة، فوارق حادة بين الطبقات. هذا التشابه ليس قاصرا على روسيا ومصر، بل أصبح وضعا عالميا وله أعراض ثابتة في كل المجتمعات.

وعندما سألته عن الأسباب التي لا تجعل الشعب يثور وهو يعيش مثل هذه الظروف الصعبة. كنت أسأل بقلب جريء، فأخيرا أصبحنا نمتلك ثورة حديثة يمكنني من خلالها أن أمسك ببدايات كتاب أعرف الصفحات الأولى منه. قال: إن الناس في روسيا مجهدون تمامًا، ولا يفكرون في أي ثورة، بعد إنهاكات ثورة ١٩١٧، ثم البيروستوريكا والتي تعتبر ثورة حديثة بدون دماء أو شهداء، حتى لمن لم يعاصر ثورة ١٩١٧ البلشفية، فقد أثرت هذه الثورة سلبيا على الأجيال اللاحقة.

يزداد وجهه هما وتغضنا عندما يتحدث عن الأمل المفقود في إحداث أي تغيير في روسيا، لاستحالته. يردني كلامه ويأسه للوضع في مصر قبل الثورة، وكان الجميع متفقا على استحالة حدوث أي

تغيير جذري. يبدو هنا السر، فكرة الاستحالة نفسها، دائمًا ما تخفي وراءها فكرة المعجزة، فتحقق الاستحالة يصل بالأشياء والمشاعر والأوضاع إلى مرتفعات لا تجد بعدها مكانا لتصل إليه، فتتحول الاستحالة لنقطة تحول مهمة، أيا كانت نوعية هذا التحول. عندما كنت أقول لنفسي في سنوات صعبة «لن يكون هناك وضع أسوأ من هذا يمكن أن تصل إليه»، كانت هي جملة المواساة، درجة السلم الأخيرة التي لا يوجد بعدها سوى الصعود، ولكن ليس على نفس السلم الذي سحبك لأسفل، بل على سلم آخر ليس به درجات، وتمايزات، وطبقات للألم، بل هناك قفز، من مكان لمكان، وعودة إليه، ثم قفز. فالمساحة حولك أصبحت واسعة بدون قمة تبلغها، لأنك غيرت طريقة حياتك. ربما هناك جدار يتم تجاوزه بالاستحالة، وما ينتظر وراءه يستدعي تخطيط حياتك في الظلام. ربما الشعوب تسير على خطى أرواح أفراد.

عدنا من التمشية. كان العشاء الذي أعددته قبل الذهاب جاهزا. كان العشاء مكونا من صدور فراخ في الفرن مع الفلفل الأخضر والبصل، مع مكرونة وسلطة. دعوت جيرمان للدخول والعشاء معي. كان خجلا من الدعوة فذهب إلى الإستديو الخاص به وعاد بزجاجة نبيذ كاملة، وزجاجة «أماريتُّو ليكير» له طعم اللوز، مملوءة حتى ثلثها. جهزت الترابيزة في صالة البيت. توقف جيرمان أمام المدفأة التي تشغل يسار الصالة. شيء ما جذبه إليها، نما إلى سمعه أصوات عش العصافير التي كانت في طريق عودتها مساء. صوت رفرفة الأجنحة الذي يأتي من أعلى، جعل عينيه تحلقان لأعلى كأنه يريد أن يخترق جدران المدفأة

ليصل لتلك الأرواح التي ترفرف بالداخل. طلب مني الصعود للطابق الثاني حيث كان ينام هاينريش بُل ومن قبله الفلاحان العجوزان صاحبا البيت الأصليين. كان يتجول في البيت برهبة، لا يفوته شيء، وأي شيء مهما صغر يلفت نظره، توقف فجأة أمام الغرفة الخشبية في الدور الأعلى التي بها أجهزة التدفئة المركزية، ظن أن بداخلها سردابا يصل لمكان سري، المكان الذي خمنت أيضًا بأنه مخبأ أصحاب البيت الأصليين أثناء الحرب. وضحك وهو يكمل بأننا، يقصد أنا وهو، لو تتبعنا هذا النفق ربما نصل لتلك الحياة المستمرة كما هي، والمستقلة بكل حذافيرها، حيث تعيش روح هاينريش بُل وروحا الزوجين؛ وبدون أن تخرج على السطح، أو تختلط بأهل البيت. كانت في دعابته بعض الحقيقة وبعض الرعب، اللذين يجمع بينهما الأدب بسهولة، مجرد أن نخطو خطوتين أو أكثر داخل هذه الغرفة الخشبية، ونتجاوز أجهزة وعدادات التدفئة المركزية، حتى نفاجأ بالزوجين العجوزين جالسين صامتين على مائدة العشاء الأبدي، وبعدهما يظهر هاينريش بُل وهو ممدد على الكرسي الجلدي الوثير يقرأ تلك القراءة الأبدية، مثل «أبدية» منحوتات النحات الأمريكي جورج سيجال الذي كان يقوم بنحت مواقف خالدة في الحياة اليومية لمدينة نيويورك وبأحجامها الطبيعية. ولكن معنى هذا أيضًا ألّا نعود القهقري لما كنا عليه قبل هذا الاكتشاف!

كانت سجائري قد نفدت، بالإضافة لباكت الدخان السائب أيضًا. استأذن جيرمان في الذهاب. توقعت ما سيفعله. أثناء ذهابه، أكملت بخيالي رحلة هذه الأسرة المختفية داخل هذا السرداب ومعها أديبنا،

بتخيلتهم يخرجون ليلا ليلتقوا مع مثلائهم في الغابة، ثم يعودون. وربما صوت رفرفة العصافير الذي تجسمه المدفأة، ما هو إلا لحظتا خروجها ودخولها في الصباح والمساء. «عد يا جيرمان سريعا قبل أن أدعو هذه العائلة للعشاء معنا، ونجلس جميعا داخل إحدى روايات القرن التاسع عشر المليئة بالأرواح الهائمة والساحرات التي تبحث عن مأوى».. قلت في نفسي. استمع جيرمان لندائي الداخلي وعاد سريعا وفي يده علبة سجائر روسية أتى بها من رحلته، بجانب زجاجات فودكا إضافية. يحمل جيرمان زجاجات خمور تفوق اكتئابه بكثير، وتفوق كذلك رغبة استمتاعه بالغياب عن العقل الواعي بداخله. أكملنا حديثنا حول هذه العائلة التي تعيش معنا وتوجِّه مسار حياتنا ومخاوفنا، ونحن مستمتعون بحضورها الشبحي، كونه يجعل أشباحنا الشخصية مكشوفة وعارية.

٢٥

عدة أيام متواصلة من الكتابة، جزء منها كان مخصصا للرواية التي شرعت في كتابتها حول حياتي في منزل الأشباح هذا، بالإضافة للعمود الأسبوعي الذي أنشره في إحدى الجرائد في مصر ومتابعة أخبار الثورة. استهلكت فيها العديد من علب التبغ، الجاهز والملفوف، والتي كنت أخزنها متتبعا مسار زوفنكو بعد سفره. ذهبت لكرويتساو سيرا على الأقدام لشراء التبغ. في البداية كنت أنطقها «كريساوا» لسهولة النطق وعلاقته بالمخرج الياباني الشهير «أكيرا كيرساوا». الطريق مليء بالنقاط الحيوية، ولكن نقطة الراحة الأساسية كانت هناك أمام مقابر القرية، على ذلك الكرسي الخشبي الموضوع في محاذاتها. قليلة جدًا هي الجنازات التي شاهدتها خلال إقامتي، ولكن كان هناك كثير من الزوار، كأن القرية توقف الموت فيها، وعلاقتهم بالموت تتم بأثر رجعي، عن طريق هذه الزيارات في الآحاد. عادة ما كنت أجد حول الكرسي الخشبي أعقاب سجائر وعلب سجائر فارغة من كل الأنواع. دائمًا هناك لحظات هادئة يقضيها العابرون الوحيدون على هذه الكراسي بصحبة الموت.

استقبلني الرجل صاحب محل السجائر بابتسامة عريضة، وقال: «افتقدناك». منذ أن عرف الرجل بأني مصري، لم يغير عادته عندما يقدم لي ورق البافرة وكيس الفلاتر اللذين اشتريهما عادة، والمسميين

«جيزة»؛ بابتسامة إضافية، كأن أحد أجدادي هو صاحب هذه الشركة التي تصنع التبغ والفلاتر. مساعدته الآسيوية، دائمًا ما تبادر بتحيتي وتقف في انتظار طلباتي. تلك المحال الصغيرة لها نكهة مميزة في هذه القرى الصغيرة نظرا لتخصصها الذي لا ينافسها فيه أحد، إنها خارج المنافسة لأنه لا يوجد غيرها. ربما لو وجد في عاصمة كبيرة لن يكون له نفس الأهمية والمذاق لكثرة المحال المشابهة من كل صنف ونوع. بمجرد فتح الباب تسمع صوت الجرس الصغير المعلق في الباب، ليخرج لك صاحب المحل من إحدى زوايا المكان المظلمة، الرابض بها في انتظار الرزق.

داخل الشارع الرئيسي في هذه القرية، كل محل يعتبر نموذجا مصغرا على مقاس القرية الصغيرة، وله نسخة واحدة فقط، كأنك تسير في ماكيت لزمن آخر في الغرب. ما زال الغرب يحتفظ بأزمنة قديمة داخل زمنه الحديث، مهما حدث التطور، والذي يعتمد في فرض قانونه على كثافة السكان، وتعقيد العلاقات، وهو شيء لا يمكن حدوثه هنا، في قرى ومراكز لا يتجاوز عدد أفرادها ألفي نسمة، أو أكثر قليلا. عندما حدثتني زيليكا من قبل، عن زيارة قامت بها أختها لها في البيت في قرية «إشتراسا»، قالت إنهما جلستا تتحدثان لثلاث ساعات، وفتحت وضمت أصابع يدها اليمنى عدة مرات، كفم البطة، إشارة إلى أنهما لم يفعلا شيئا سوى الثرثرة. كانت تصف جلستهما باستمتاع من لا يزال يحب «الثرثرة» كوسيلة للتواصل. الثرثرة ليست لها نفس القيمة في المدينة الكبيرة. هذا الرصيد المدخر من الوقت في المدن الصغيرة، يحولونه إلى علاج مؤقت هدفه بث الاطمئنان في النفس.

الحداثة الآن ليست في التطور التكنولوجي فقط، ولكن في رصد

كمية التعقيدات في العلاقات الإنسانية التي تنشأ من الاحتكاك اليومي لملايين من البشر داخل مدينة واحدة. المدن الكبيرة ما بعد حداثية حتى ولو كانت في العالم الثالث، فبعد الحداثة لا تقيس درجة التقدم، أو تبحث في وسائل تحرير الإنسان، ولكنها ترصد الوضع الإنساني المعقد، بعد أن أصبح الإنسان محاصرا من كل الجهات بالاستهلاك، والعمل، والوحدة.

في مصر، هذه الكثافة والبؤس والفقر والتفاوتات الاجتماعية والحنان والتفاصيل المشحونة، كلها تنتمي لزمن قادم/ ماض بالنسبة لأوربا، كلها علامات من المستقبل والماضي معا. «زمن قادم» من ناحية الكثافة السكانية التي لم يعشها الغرب من قبل، و«زمن ماض» بحكم تأخر هذه البلاد بالنسبة له. من هذا الزمن جاءت الثورة، من تراث هذا الماضي بكل تعقيداته وسيبانه وعدم انتظامه داخل إطار محدد. كان هذا الماضي يعيش معنا، بل نحن كنا مضطرين إليه. فالماضي بالنسبة لنا له تمثل روحي ومادي داخل النفس، وليس ماكيت لمدينة صغيرة كما هو حاله هنا.

هذه الفكرة تؤرقني باستمرار، أن داخل أي لحظة قديمة هناك أشياء منسية، ليس لها علاقة بزمن، تظل مخزونة لحين استخدامها، وربما لن تستخدم. ربما أوصف هنا زمننا الشرقي الذي لا يوجد فيه تكامل في لحظات تطوره، أو لم يعش انقطاعات حادة في تاريخه الحديث، بحيث تفصل أو تقطع بين الماضي والحاضر، وبالتالي تعطل فعل هذه الأشياء المنسية، وتسلبها قوتها، لغياب السياق المكمل لها، والذي سيبعثها بعد ذلك. ربما تداخل الأزمنة في مصر أفاد من هذه الناحية، وربما أضر أيضًا. ولكن تظل هناك أشياء قابلة للبعث، والدخول في دورة إنبات بعد الموت الطويل.

٢٦

بدأت العلاقة تتوطد بيني وبين جيرمان هذا الدب الروسي الطيب، بمجرد أن ناديت عليه، حتى وجدته يقفز للخارج لنبدأ رحلة التمشية. حواراتنا الممتدة ووحدتنا في هذا النُّزل، والجو الرمادي، جميعها ساهمت في دخول كوكب كل منا في مجال جاذبية الكوكب الآخر. كان الجو رماديا، ومائلا قليلا للبرودة. شاهدنا في الطريق مسز لودفيج واقفة في شرفة بيتها، وأشارت لنا محذرة بالعصا التي تتوكأ عليها ناحية السماء وضحكت، وأضافت أن السماء ستمطر بعد قليل، فيجب أن نأخذ حذرنا. عقَّب جيرمان بلهجة عبثية بأنه بمثل هذه العصا كان يعلِّم تلاميذه، يقصد الفترة التي قضاها مدرسا في جروزني عاصمة الشيشان قبل انتقاله النهائي إلى سان بطرسبرج. كنت ألبس فانلة قطنية بكم، بينما جيرمان يرتدي «تي شيرت» نص كم. كان مستر ديتيليف يقف بجوار أمه في الشرفة، يسقي أواني الزرع. لم يلتفت لنا. هو عادة يصدر إحساسا بعدم الالتفات كأنه باب موارب. ربما كان غاضبا بسبب عدم دعوته للدخول في ذلك اليوم الذي أتى لنا فيه بالصور. ربما لاحظ بعض الفتور في معاملتنا له. تحذيرات كل من نقابله من مستر ديتيليف، وغرابة أطواره، والشكوك التي تحيط بميوله الجنسية، كلها صنعت حاجزا منيعا، ولكن فلننتظر ماذا ستأتي به الأيام، يمكن أن تكون كل هذه الموانع، لا تعني شيئا لعابر مثلي.

سألت جيرمان بمجرد خروجنا من بوابة البيت عن اتجاه السير اليوم، فربما كان يريد أن نجرب طريقا جديدا غير الذي سلكناه المرة الماضية منذ عدة أيام. قال كلمة بالروسية لم أفهمها بالطبع، وشرحها لي بأن السير يتم باتجاه حركة الشمس. يعني أن نسير في نفس الطريق القديم. كان قرص الشمس محتجبا وراء بعض السحب، يظهر من ورائها قرص ضوئي خافت. سرنا وراء هذا القرص الضوئي.

احتجاب الشمس المبكر وانتشار السحب جعلا هناك شيئا منعشا في الهواء. قلت لجيرمان: «هذا هو الجو المثالي للمشي، أحب هذا الجو». وافق على ملاحظتي وعبرنا دغل الأشجار، واستقبلتنا تلك المساحات الشاسعة من الخضرة التي تجعلني غير قادر على الكلام بسبب انتشار هذا الكم غير المألوف من اللون الأخضر في صوتي. سرنا صامتين في البداية. كنا نأخذ السير بجدية متناهية، ونوفِّر الهواء الذي يخرج من صدورنا للسير وليس للكلام. مررنا بعدة مراع للخيول. سألته عن هذه الخيول ماذا تفعل لو أمطرت السماء. لم تكن هناك بيوت أمامي على مرمى البصر. شارفنا على الجراج والبيت في المنحنى الذي يتصاعد منه صوت البيانو في الآحاد. بالرغم من أننا لسنا يوم الأحد فقد سمعت صاحب البيت الهيبز المتقاعد يقوم بالعزف على البيانو بهدوء واستسلام. أغلب المصائر التي تعيش في هذا الشريان الرفيع كأنها ودعت حياة أولى صاخبة، وعلى مشارف حياة ثانية هادئة يجهزون فيها أنفسهم للموت أو للبعث بسلام.

ضربات البيانو التي حومت فوق المكان أثناء عبورنا به فتحت شهيتي لحوار شجي. ترك كل منا نفسه ليذهب مع الموسيقى في مساراتها المتصاعدة الملحمية. سألت جيرمان عن سنوات عمله

في الحقول، هل كانت متعبة؟ قال: لم تكن متعبة بل مهينة! كان يعود من المدرسة حوالي الساعة الثانية ظهرا ليلحق بأبيه وأخواته الأكبر منه في المزرعة الصغيرة التي يملكونها. يظل ينظف روث الجاموس والحيوانات حتى السادسة. عندما لمح مرعى للأحصنة عبرنا بجواره تجدَّرت ذاكرته مرة واحدة بالأسى: لم أمتلك حصانا، بل جاموسة، كانت صديقتي.

كان أبوه يستيقظ حوالي الخامسة صباحا ليبدأ يومه في الحقل، ولا يعود إلا في السادسة مساء ليوفر لهم حياة كريمة. عندما يتحدث جيرمان عن أبيه تشعر بغصة في حلقه. أبوه الذي ما زال مسلما يذهب للجامع لتأدية الفروض الخمسة، ما زال يمثل بالنسبة لجيرمان شعرة معاوية الرقيقة بينه وبين الإسلام، والتي يريد قطعها ولكنه لا يقدر. برغم اليوم الطويل الموزع مابين المدرسة والعمل، لم ينقطع جيرمان يوما عن القراءة. كانت بالنسبة له الحياة الأخرى التي يريد أن يرحل إليها. كان كل الروث الذي ينزحه من تحت أرجل الحيوانات مغطى بطبقة شفافة من الحروف تمنع رائحته النفاذة.

أبوه كان يمتلك مكتبة كبيرة. وعندما سألته هل هذا كان استثناء في قريتكم؟ بالطبع كان استثناء في قرية أغلب ساكنيها من الفلاحين البسطاء، فأبوه وأمه كانا على درجة جيدة من التعليم. بدأت زخات المطر تتزايد، لم نجد مأوى يحمينا من الأمطار في هذه المساحة العارية، ظهرت أمامنا مجموعة من الفيلات الصغيرة، تتوسطها مجموعة من إسطبلات الخيول. أكملنا السير، اختفت البيوت ولم يعد أمامنا سوى هذا الطريق الصغير الذي يتوسط مساحات خضراء مزروعة بنباتات لها أزهار صفراء. بدأت متوالية الرعد والبرق. صوت

مكتوم لمدافع تأتي من بعيد. زاد انهمار المطر. قال جيرمان الذي لاحظ سرعة خطواتي وتهدج أنفاسي: «فلنهدأ ونقابل الطبيعة».

كان أمامنا ما يقرب من نصف ساعة حتى نصل البيت. استسلمت للأمر الواقع. بعد فترة نسيت المشهد تمامًا، وبدأت أتحسس نقرات المطر على جسمي. كأن جسمي تحول إلى نافذة زجاجية. بدأت أنظر للمطر بعين داخلية. تشربت ملابسي بالمطر تمامًا كإسفنجة. طوال المسافة لم أسمع إلا صوت تنفسي..«ها.. ها..ها»، شهيق وزفير متواليان، غطيا على متوالية الرعد والبرق. كنت أتنفس داخل فقاعة محاطة بالمياه. وسط هذه الطبيعة التي نصحني جيرمان بأن أقابلها بهدوء، كنت منتبها لكل خلجة في جسمي، كأن شخصا آخر ولد بداخلي، لا يفعل شيئا سوى أن يتنفس، يتمسك بقبس حار في نفسه حتى لا يذوب تمامًا وسط هذا الاحتفال الكبير للطبيعة. صنع المطر حاجزا بيني وبين الطبيعة بالرغم من كونه أحد مفرداتها، كأنك في أعماق البحر يمتصك الصمت وليست المياه. لم نتبادل أي حديث، كان كافيا في هذه اللحظات بأن ننصت لصوت الطبيعة ولأصواتنا الداخلية.

اقتربنا من البيت، لمحت طفلين يقفان وراء نافذة بيتهما، غمزت لهما، لم يستجيبا لهذه اللفتة. استغراقهما في مشاهدة المطر كان أقوى من أي شيء آخر. نظرت لنافذة مسز لودفيج، كانت واقفة هناك، وراء الزجاج، بوجهها القاسي، ربما كانت تنتظر عودتنا لتوبخنا على عدم سماعنا لنصيحتها. انسللت سريعا للبيت، خلعت كل ملابسي ووقفت عاريا في الحمام أنصت لصوت المطر على سقف القرميد وزجاج النافذة، وجسمي.

٢٧

قضينا يوما في كولون بناء على اقتراح جيرمان. المدينة المليونية الأقرب التي تشعرنا بأننا داخل مدن كالتي جئنا منها. للمرة الأولى التي نمكث فيها سويا خارج البيت هذه الساعات الطويلة. أعتقد أن الحَجرة التي تقف عائقا بيننا، كان كل منا يحاول بإخلاص أن يزحزحها بعيدا عن الطريق. اصطحبتنا زيجرون مشرفة المنحة، التي تقطن بكولون مع ابنتها طالبة الجامعة، لبعض الوقت. في طريقنا مررنا على مكتبة كبيرة متخصصة في شتى الفروع وبخاصة الأدب، وقفنا ثلاثتنا بحركة لا إرادية أمام الكتب المعروضة في الشارع. ذكرت زيجرون، التي تعيش في وسط بحر عقدها السادس؛ أن رصيف الكتب هذا كان أيضًا نقطة توقف لها ولزوجها الماضي، الذي انفصلت عنه. دائمًا الحياة الزوجية هنا كانت في «الماضي».

تاه جيرمان وسط عناوين الكتب الألمانية، وبمساعدة زيجرون أخذ يتنقل بهجاء متعثر بينها. استوقفه كتاب، انتقل مباشرة لباطن غلافه الداخلي، وهو خطوة تمهيدية متحسسة، بين عتبة العنوان والمتن. بالكلمات الألمانية القليلة التي يحفظها، وبصداها الذي يتردد في اللغة الروسية، بدأ جيرمان في تهجى قصيدة الشعر الموجودة في باطن الغلاف. كانت للشاعر الألمانى هاينريش هاينه. ساعدته زيجرون في قراءة القصيدة كاملة، وتذكر ساعتها أنه سمع هذه القصيدة من قبل

باللغة الروسية من صديقة له كانت مولعة بالشاعر. شجعه هذا على شراء الكتاب، الذي كان عليه خصم كبير تقريبا وصل لـ٦٠ بالمائة. كان الكتاب عبارة عن مجموعة من القصائد مستوحاة من حكايات خرافية شهيرة تدور حول نهر الراين، والذي يجله الألمان ويلقبونه بالنهر الأب. كنا على مسافة قريبة جدًّا من هذا الأب السائل.

أثناء تقليب جيرمان في الكتب المصفوفة، خطفت يده بسرعة كتابا صغيرا له غلاف أزرق ومكتوب عليه «القرآن». كانت نسخة من القرآن مترجم للألمانية. كان مدفوسا بين صفوف الكتب المعروضة خارج المكتبة في الشارع والتي تحظى أيضًا بخصم كبير. تناول القرآن في يده، وتنقل بنظرته بيني وبين زيجرون. أحسست في نظرته، وفي حركته، باستهانة مواربة، كأنه يفتح الباب لحديث عدائي. بدا هذا من طريقة إمساكه بالكتاب من زاويته، كأنه يمسك بتذكرة سفر. عندما نظر لي لم أرمش بعيني أو أبدي أي ملاحظة ترحيب أو امتعاض بهذا الاكتشاف. كذلك زيجرون كانت متحفظة تمامًا، ربما احتراما لي. دائمًا زيجرون تأخذ المكان المحايد فيما يخص تلك النزاعات القديمة التي رسمت حدودا عنصرية بين الشعوب. ضايقتني حركته، ولا أعرف هل لاحظ هذا أم لا، ولكني لم أكن مرتاحا لطريقته. ولكن ظل سؤالي لنفسي عالقا، هل استيائي مصدره شخصي، أم استياء موجه لأي سلوك استفزازي يُمارس تجاه أي من العقائد والأديان والأفكار؟ ثم بدا السؤال التالي يخرج من الأول: ولكن في هذه الحالة هناك أفكار وممارسات كثيرة لا أقبلها كلية، ولا أتسامح معها حتى النهاية، أو أتسامح معها على مضض؟ وبدأت

سلسلة الأسئلة تتوالد، حتى أصل لهذا الشخص الذي يقف في نهاية صف الأسئلة، والذي يتغذى أحيانا عليها، بدون أن يجيب عن سؤال واحد منها بشكل كامل ونهائي.

تركتنا زيجرون في الطريق. ذهبنا، أنا وجيرمان، للجلوس على نهر الراين. مررنا في طريقنا بالكاتدرائية التي تأخذ مكانا مركزيا في وسط المدينة، عادة ما تتقاطع معه. صعدنا سلالم ونزلنا أخرى. سألت جيرمان عن إحساسه وهو يمر بهذه الكاتدرائية؟ قال إنها تنتمي «للميجا بيلدينج» الصروح الكبيرة. قلت له إن المكان لا يشعرني بأي إحساس بالقدسية، لكثرة التفاصيل والزخارف التي أفرغت فكرة القدسية، المجردة بطبيعتها، من معناها. قال «ربما، ولكن لو عرفت الحكاية التي تقع وراء بناء هذه الكاتدرائية ربما سيتغير رأيك». وافقته، وأخذ يلخص تاريخ الكاتدرائية بأنه يحكي عن العلاقة التي تجمع بين الله والشيطان والإنسان. هذا المثلث الرمزى البسيط هو القاعدة التي شُيد فوقها هذا المبنى الضخم، وأيضا الذي شيدت عليه الإنسانية كل حكايتها. وهذه الضخامة ربما لكي تحيط وتجمع بمقياس رسم مجازي زوايا هذا المثلث المترامي الأطراف في مكان واحد. وأضاف أن الكنيسة لم تنتهِ حتى الآن، لنبوءة قديمة بأن الانتهاء من الكنيسة معناه نهاية العالم، لذا لا يريد أحد أن يضع الطوبة الأخيرة في الكنيسة، أو العالم. رأيت فكرته شيقة. ربما هناك مكان آخر صغير يمكن أن يتجمع فيه الثلاثي، وبمقياس رسم حقيقي وليس مجازيا، وهو القلب الإنساني. عندها يجب أن نسلم بأن الشيطان ليس إلا شريكا قديما لرحلة القلب الإنساني، ولرحلة الإيمان نفسها.

جلسنا على إحدى المقاهي القديمة على ضفة الراين. بدأنا الجلسة بكأسين كبيرين من البيرة المحلية ذات الطعم اللاذع. أحسست بانتعاشة تسري في جسدي. بدأ جيرمان في الحديث عن ابنته من زوجته الأولى، والتي تبلغ الآن أربعة عشر عاما. قال إنه لا يمثل لها شيئا سوى حصالة فلوس، وإنها دائمًا ما تسلك الطرق السهلة في الحياة، فهي لا تريد أن تكمل تعليمها، وتتباطأ في تعلم اللغات الأجنبية، التي تعتبر بوابة العمل الوحيدة في روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. أرسلت ابنته له رسالة صباح اليوم تقول له فيها إنها ستسمع كلامه، وإنه قدوة لها في حياتها، وغيرها من الحيل الطفولية لتستميل قلبه. وفي نهاية الرسالة ترجوه أن تترك كورس تعلم اللغة الإنجليزية المكثف الذي تذهب إليه ثماني مرات في الأسبوع، بآخر لا يستهلك من وقتها «الثمين» سوى مرتين في الأسبوع.

قمت عدة مرات للحمام الذي كان يقع في الطابق الثاني للمقهى. المبنى قديم ومعتم من الداخل والسلم الخشبي له صرير، وهناك نقوش حمراء على جدران الحمام على هيئة طيور. تركت باب الحمام مفتوحا من الداخل أثناء تبولي حتى لا تخرج هذه الطيور من الحائط وتنقض عليّ. أثناء ذهاب جيرمان للحمام حذرته، ضاحكا، من هذه الطيور، فرفض الذهاب وذهب لحمام المقهى المجاور لنا.

قفزت بالموضوع، الذي يشغل عقلي منذ لقائي به، للصدارة. سألته عن سبب مرارته وتنصله من نشأته في الشيشان؟ في الصباح قبل أن نذهب لكولون، جاءتنا في السكن صحفية من دسلدورف لتجري معنا حديثا صحفيا. في أثناء الحديث وعندما علمت الصحفية بأن

أصول جيرمان من الشيشان، قالت له: «إذن أنت مسلم؟»، فرد بسرعة: «لا لا لا»، قالها بسرعة كمن يتنصل من قرابة مشينة. ذكرت له تلك الواقعة. قال لي إنه في طفولته كان طفلا مريضا للغاية، وكان يعيش في محيط من الكراهية في مدرسته. لماذا؟ سألته. لأن الأطفال الذين في سنه كانوا يرونه متعاليا عليهم لأن أمه روسية وليست شيشانية. هذا المحيط العدائي في رأيه جعله مريضا، يقضي أغلب شهور العام الدراسي في البيت. دفعه هذا المرض النفسي لأن يقوي جسمه ويختار لعبة الملاكمة. وأضاف بمرارة، وعندما ذهبت إلى روسيا لأعيش قالوا له: «لا، أنت لست روسيا، أنت شيشاني».. «إذن أين أعيش؟».

كلامه عن بداياته المريضة، فسر لي شيئا. فبرغم ضخامة جسمه، تلمس انكسارا وعزلة عنكبوت تحيط بجسم الملاكم القديم. قال إن من يرضى بأن يعيش في الشيشان الآن هم فقط العبيد. في كل مكان صورة للزعيم قادرابيف، على أبواب العمارات والهيئات الحكومية، وشعارات تمجد هذا الزعيم. شعرت بأنه يتحدث عن العراق في عهد صدام حسين. كان يصف لي مشهد العاصمة جروذني وهو يلطخ، من بعيد، بيده باللون الأحمر أسطح المباني التي تحيط بالمقهى في كولون حيث نجلس. أضاف أن عهد ستالين، أو الاتحاد السوفيتي القديم، لم يكن به هذا النوع من العبودية والتقديس للزعيم كما هو حادث الآن. كان من المستحيل استمراره للعيش هناك، «إما أن تكون عبدا وإما أن تخرج من البلد». هذه المعادلة التي لخصت حياته. سألته ولكن والدك ما زال يعيش هناك؟ قال إن والده اضطر

للاستقالة من العمل الحكومي حتى لا يتعرض للإهانة. قلت له هل في المستقبل هناك احتمال ولو بسيط بأن يرى في الشيشان ومواطنيه شيئا آخر غير كونهم عبيدا؟ قال بيأس: ربما.

عند عودته الثانية من الحمام المجاور، سألني سؤالا مفاجئا، هل تتأثر بالنقد لأعمالك؟ أجبته عن مراحل مختلفة في حياتي وكيفية تقبلي للنقد في كل مرحلة. كان ينتظرني لأنهي إجابتي سريعا، ليصارحني بما قرأه هذا الصباح على صفحته في الفيسبوك. كتبت إحدى الفتيات الشيشانيات على صفحته، إنها بالرغم من أنها لم تقرأ أي شيء «للكاتب جيرمان»، كما تلقبه الفتاة في رسالتها، فإنها لن تفكر حتى في قراءتها، لأن الزعيم قادر اييف اعتبرها أعمالا أدبية غير وطنية. هذا محتوى الرسالة التي نغصت عليه صباحه. قال إنه يستقبل رسائل عديدة من هذا النوع، وتجعله محبطا. «ما هذا الهراء، هل هؤلاء بنو آدميين أم عبيد؟».

أكملنا رحلتنا، واقترح جيرمان أن نتناول طعام الغداء في مطعم رخيص يقدمون فيه البط المقلي. بالفعل تناولنا الوجبة في مطعم كوري يتبع مول كبير ملحق بمحطة قطار كولون. كان الإيقاع منسجما سواء في التنقل من المقهى، للمطعم، للسير في المدينة، ثم الجلوس في مقهى آخر لختام اليوم بقهوة مركزة. كان الحديث يتنقل معنا، ولم توجد لحظات صمت كثيرة. تحدثنا عن الحياة من وجهة نظر الكتاب، والخوف من الموت، وعلاقة الكتابة بالحياة. كان يتكلم بروح غير اكتئابية عكس كلامه داخل البيت. كان «النهر الأب» يحنو عليه ويعيد له قصائد الطفولة التي حفظها عن ظهر قلب.

أثناء رحلة العودة في القطار، وطوال ٣٥ دقيقة، لم يرفع جيرمان عينه عن الكتاب الذي اشتراه في الصباح، وأخذ يسمِّع لنفسه بصوت عال ما يقرؤه من أشعار هاينريش هاينه. أحيانا كان يستعين بقاموس جيب صغير يحمله معه باستمرار، ليعرف معاني بعض الكلمات. حتى وصولنا للبيت. تركني أدخل شقتي، بينما استمر في الحديقة يقطعها جيئة وذهابا، ليحفِظ نفسه بنفسه كلمات جديدة في اللغة الألمانية، كما حدث في الماضي مع اللغات، وفي أشياء أخرى عديدة، كان لا بد أن يتعلمها بنفسه بدون مساعدة من أحد.

٢٨

عاد ألجريد من رحلته في هامبورج. سمعت صوت خطواته الهادئة حوالي الساعة الثانية صباحا. كنت مستيقظا حتى تلك الساعة المتأخرة أقوم بمراجعة عمودي الأسبوعي قبل إرساله للجريدة في القاهرة، وكان بعنوان «النشوة»،ويدور حول مصير الثورة بعد أن تنفض الجموع ويعود كل منا إلى بيته. دائمًا دخول ألجريد وخروجه هادئان، كأنه لا يريد أن يزعج أحدا، أو لا يريد لأحد أن يشعر بوجوده أصلا. حالة شبحية يريد أن يعيشها، حتى في هذه الملابس السوداء الكاملة التي يرتديها تجعله يتماهى مع الليل ويصير قطعة منه. استدرت من مكاني على المكتب أمام الكمبيوتر ونظرت خلفي للشباك الذي يقع في الطابق الأرضي، لمحت خياله الذي ظهر على ستارة الشباك. سمعت صوت باب الإستديو الخاص به وهو يغلق. قمت على الفور، وفتحت الباب الخلفي للبيت الذي يطل على «ممر الدجاج»، ونقرت على بابه بهدوء. فتح لي بوجه مرهق، سلمنا على بعض واتفقنا على اللقاء مساء.

في الصباح ناديت على جيرمان. نظر لي من شباك الطابق الثاني وكان عاري الصدر كعادته بالرغم من انخفاض درجة الحرارة. أخبرته بعودة ألجريد وباقتراح أن نلتقي مساء. وافق على الفور، كان وجهه باديا عليه الإرهاق كأنه لم ينم منذ أسبوع كامل. بعد سفر

زوفنكو واصطحابه معه حسه الأبوي لم نلتق ثلاثتنا. حس زوفنكو الأبوي لم يكن متمثلا فقط في دعوتنا للتجمع والنقاش واقتراحه لأنواع من الاحتفالات المصاحبة لأنواع من الأطعمة والشراب. ليس كل هذا، ولكن روحه الشخصية التي كانت تحلق فوق تلك الجلسات، كأنه يمرر خيطا عاطفيا بين الأفكار. لا تشعر بأن كلامك عاد غريبا عليك بمجرد انزلاقه من فوق لسانك، وإنما هناك ذاكرة إضافية تحتفظ لك به مرتبا.

تقابلنا نحن الثلاثة في الحديقة، من نافذتي لمحت جيرمان وألجريد يتحدثان، كل منهما كان منهمكا في إشعال غليونه، فخرجت إليهما بسيجارة الاستراحة. تحدثنا قليلا ثم اقترح جيرمان بأن أدعوهما لشقتي بوصفها الشقة الأوسع وبها صالة وغرفة جلوس كبيرتان. ثم أضاف «لسنا أوربيين»، يقصد أن الروس شرقيون لا يتعاملون بتقاليد الأوربيين في الاستضافة. «في روسيا هناك من يقول، هيا أنا مدعو عندك الليلة»، أضاف تعضيدا لكلامه. طبعا وافقت على طلب جيرمان، ودخلنا للشقة، وأول ما قاله جيرمان أنه يريد أن يشرب القهوة من يدي. كتبت لزوجتي أن رائحة القهوة في الصباح تجعلني أشعر بأنني في نفس النقطة والمكان الذي تقف فيه. هذه الأمنية تحولت لعادة، وربما الرغبة الكامنة وراء هذه الأمنية هي التي منحت القهوة هذا المذاق الفريد. سألت ألجريد أن يشرب معنا قهوة، قال لا، ثم ذهب لشقته وعاد سريعا وهو يحمل كأسا كبيرة من النبيذ الأحمر. لم أر ألجريد إلا وفي يده كأس من النبيذ الأحمر أو الأبيض، والغليون مشتعل.

للمرة الأولى أدقق في ملامح ألجريد، في حدة عينيه الخضراوين

وضيقهما، كعين البومة التي تلمح فرائسها بوضوح في الظلام. كأنه بهذا القدر المسموح به من انفراج العين يمكنه أن يرى كل شيء، كل شيء، بقوة. لم يطق جيرمان أن يجلس بدون شراب كحولي، فاستأذن أيضًا وذهب لشقته وعاد بزجاجتين، إحداهما «أماريتو» الذي له طعم اللوز، والأخرى بها مشروب أصفر كناري له قوام العصير لم أعرف اسمه. صب لنفسه كأسا من «الأماريتو» وأخذ يرشف منه رشفة، ثم يعود لفنجان القهوة ليأخذ رشفة أخرى.

كنت جالسا بينهما كحكم بين غريمين. ربما وجودي استفز صراعا بينهما. بدأ الحديث حول الإمبراطوريات التي حكمت العالم. في حضور أبناء دول العالم الثالث أو الثاني غالبا ما يدور الحديث عن منابع القوة القاهرة في العالم القديم والحديث. ألجريد يرى أن روسيا قامت بقهر شعوب كثيرة كشعبي سيبيريا وبيلا روسيا على سبيل المثال، من أجل مطامعها الاستعمارية. بينما كان جيرمان يرى أن هذه الشعوب التي استعمرتها روسيا القيصرية كانت شعوبا متجانسة في الثقافة معها، وكان يجب أن تضمها إليها، وليس كما حدث من استعمار أمريكا اللاتينية من طرف الإسبان. كانت فرصة لألجريد لكي يهاجم روسيا المستعمِرة، الوارثة الشرعية للاتحاد السوفيتي القديم، والممثلة في جيرمان، والتي محت ثقافة شعبه في بيلا روسيا.

الحقيقة أن جيرمان كان أكثر هدوءا في ردوده، فلم يكن يدافع عن إمبراطورية آفلة، بل يتحدث عن فكرة «الأمة» والتي كانت تستوجب ضم سيبيريا وبيلاروسا وغيرها، وأي ثقافة أخرى متجانسة مع الثقافة الأم. فالأمة الروسية بدون سيبيريا أمة لا معنى لها جغرافيا، أما لو

تخلت هذه الأمة عن أوكرانيا، كما يقول، فلن يضيرها شيء. كان يتحدث عن الأمة كجسد جغرافي متكامل، قبل أن يكون جسدا ثقافيا، أو لغويا. ربما لأنه يعيش في المكان الأقوى، في سان بطرسبرج، فكان هادئا في ردوده، وربما كذلك لأن ألجريد جاء من تلك الأمة المستضعفة «بيلا روسيا» التي احتَّلت من روسيا فجاء كلامه به حدة وقهر أجيال مستعمَرة عاشت قبله.

عندما جاء ذكر مصر، التي كنت أمثلها في تلك الجلسة، قال جيرمان إن مصر مرت عليها كل أنواع الإمبراطوريات، الرومانية، والعثمانية، والإنجليزية، والفرنسية في عهد نابليون. أمة عاشت أغلب فتراتها محتلة، فكيف ترى نفسها في مرآة هذا الاحتلال، وكذلك كيف ترى هذا الآخر الذي احتلها، وبدون أن تنظر في مرآة هذا الجرح النفسي العميق الذي سببه الاستعمار. هذا ما حاولت أن أشرحه لهما. لم يكن في كلامي أي إجابات، بل شرح لمدى المعاناة، التي لا أحسها شخصيا ولكني أتمثلها عبر التاريخ، التي عاشها هذا الشعب الذي سكن في هذا الوادي. كان جيرمان يستمع للكلام بتمعن ويستقر في عقله بهدوء ربما ليجاوب أو ليدرأ بها تخوفات من «المسلم»! أعتقد أن تخوفاته هذه قد ذابت منذ كنا نتحدث في كولون وشاهدنا سويا «الراين الأب»، فقد تحدث مع ألجريد ليصف له اليوم الجميل الذي قضيناه سوية في كولون وعن الحديث الرائق الذي تبادلناه. لم يعد جيرمان يراني كآخر بعيد عنه، بل كشخص قريب له معاناة وأفكار قريبة.

أما ألجريد فهو من اليوم الأول أجده متعاطفا معي، كأني أحد القديسين الذين حلم بهم. ربما بسبب كوني قادما من القاهرة،

المدينة الأسطورية القديمة. كان تعاطفه به نوع من التواطؤ النفسي المسبق، والاحترام الزائد. فأي شخص يأتي من هذا البلد القديم يجب احترامه، والتعاطف معه. ربما كان يراني كأحد المبعوثيين الإلهيين من إحدى المدن المقدسة.

استأذن جيرمان لأنه يشعر بصداع وبارتفاع في ضغط الدم يجعل مزاجه سيئا. أعتقد أن جيرمان يعاني من حالات نفسية متذبذبة. ذكر في أثناء حوارنا، أنه يريد أن يصل لحالة روحية من خلال الشراب كالتي وصلها عند جلوسنا على نهر الراين. قلت له ربما السبب ليس الشراب في حد ذاته بل بسبب هذا الباب المفتوح على الحياة من حوله. باب له مواعيد وتوقيتات ربما يلخص فكرة النفس، كباب مفتوح على الخارج، أو كحائط زجاجي شفاف لا يحجب الحياة. لو الباب مفتوح فستمر روحك وتتلبس كل الأشياء والأفكار الهائمة في الجو. فالشراب لا فائدة منه مع نفس مغلقة. هناك من لا يشرب إلا وهو فرح، ويكون عنده رغبة لفتح الباب على آخره، أما لو كان مكتئبا فلا يشرب شيئا ويصبر على نفسه حتى تلين أقفالها وتتفتح من تلقاء نفسها، فالاكتئاب عدو الشراب والفرح، وبمقدوره أن يفسد ويغلق أي باب موارب.

كان جيرمان يراقب حركات يدي المنفعلة دائمة الدوران والتحليق في الفضاء، عندما أتكلم، لتصطاد المعاني التي لا أقدر أن أعبِّر عنها بلساني. ربما كان يعاين طريقة انفعال شرقية، تختلف كثيرا عن سلوك الأيادي الأوربية المعلقة بجانب الجسم دوما كجناحين مُسدلين. وجدت في نظرته الخاطفة لحركات يدي طريقة غير مباشرة للحوار، فقد أعطاني الفرصة لأراه وهو ينظر ليدي، وهذا معناه بالنسبة لي

حوار سيستكمل بعد ذلك، وحتى ولو لم يستكمل ولكنه مكشوف من الناحيتين.

بقي ألجريد ليكمل كأسه ويشعل غليونه للمرة الأخيرة، عندما سألته عن أحوال ابنته الجميلة التي شاهدت لها صورا أخذها زوفنكو، عندما كانت موجودة مع ألجريد وزوجته قبل مجيئي. في إحدى الصور كانت تلبس باروكة كبيرة من القرن السابع عشر تنكرا في يوم الكرنفال الذي قضته مع أبيها وزوفنكو في كولون. كانت الصورة تثير فيّ قشعريرة، كأن هناك روحا قديمة تتلبس هذه الفتاة الصغيرة. فعيون ابنته شديدة الزرقة كما تبدو في الصورة، ووجهها الأبيض وشعر الباروكة الذهبي، جعلها مثل الساحرات الصغيرات اللاتي ما إن تنظر إلى عيونهن حتى تتجمد في مكانك. حكى لي ألجريد عن السعادة التي كان يشعر بها بجوار ابنته في هامبورج، فخلال الأسابيع الثلاثة التي قضاها هناك لم يكتب كلمة واحدة، لأن ابنته ذات الأعوام الستة لم تترك له الخيار، واستسلم لها بدون تأنيب عقل الكاتب الذي بداخله.

يعيش ألجريد على الكتابة والمنح الثقافية وعائدات بيع وترجمات كتبه. فعندما تختل معادلة الكتابة لن يجد من يصرف عليه ولا على ابنته ولا زوجته طالبة الدراسات العليا. ألجريد شخص عائلي بامتياز، عندما يحكي عن عائلته الصغيرة تشعر بأنه كالأسد الذي يحمل صغاره في فمه، عندما تقترب منها تلفحك نار خوفه عليها. أثناء حديثه عن الإمبراطورية الروسية، ضم ذراعيه كأنه يحضن نفسه، إشارة إلى أن هذه الإمبراطورية كانت تريد ضم واحتضان كل الدول والقوميات التي حولها. شعور الاحتضان هذا الذي يرفضه ألجريد

من الإمبراطورية والاتحاد السوفيتي السابق، أراه مجسدا أكثر في شقه العاطفي في كل تصرفاته وأفكاره، أراه روسيا أكثر من جيرمان.

كالعادة نسي جيرمان الزجاجتين اللتين أتى بهما. بعد ذهاب ألجريد، حملت الزجاجتين إليه، فكرت ربما يكون قد نسيهما عمدا وتركهما لي كهدية غير مباشرة وبدون مقدمات. ناديت عليه، خرج من نافذة الطابق الثاني بوجه متعكر قليلا. سرعان ما نضج هذا الوجه المتعكر بعد هذه الدقائق القليلة التي تركنا فيها وذهب إلى شقته. تذكر الزجاجتين واعتذر لنسيانهما بشكل مفتعل قليلا وهو يخبط على جبهته التي تاهت داخلها الزجاجتان، وربما اعتذر لنفسه أيضًا من عدم فهمي لهديته المواربة. لمحت على إفريز النافذة زجاجة مياه معدنية. وتذكرت كلام ألجريد الساخر عن الشاعر الروسي الذي سافر إلى أوربا ذات يوم وتناثرت حاجياته، التي يضعها على إفريز النافذة، على الأرض. وكانت مصدر سخرية لكل الشعراء الآخرين.

صباح الخير يا ناصر.

أتمنى أن تكون بخير. مرفق عمود الغد.

شكرا لإصرارك على استمرار العمود الخاص بي، وسط هذه الظروف السياسية المتقلبة.. مودتي.

النشوة

النشوة التي حصَّلناها أثناء الثورة كانت شبيهة بالأحاسيس التي ينشرها الجنس في الجسم، تتسرب في خلايا الوعي واللاوعي، تقف عندها على حدود البكاء والهذيان العاقل، مدفوعا بقوة تأتي من وراء ظهرك. تسقط العبارات من سماء مفتوحة. هذا البذل الذي تمنحه من صفاء روحك لحدث خارجي، لآخر يقف في منتصف الطريق. وربما للمرة الأولى تتحقق مثل هذه النشوة الجماعية. أين ستمضي رحلة هذا الشلال إن لم تصادف أرض معاد جديدة؟

لهذه النشوة أمد قصير، حتى ولو امتدت الثورة سنوات. لا يمكن أن نعيش بها باستمرار، وإلا سيكون حضورها موازيا لامتصاص لطاقة الوجود نفسها. النشوة أحد عناصر الثورة اللامعة. من اعتاد عليها ربما يحدث له تثبيت، ولا يعد يرى أو يحس بهذا الشلال الداخلي إلا في وجود الجموع، ربما يخترع جموعا أخرى صامتة، كي يمر بينها ويمرر نشوته، كخبيئة يخاف أن يراها أحد.

نشوة غير محسوبة بتاتا على فكرة الخلاص، وإن كانت أحد مصادرها الأصيلة. وغير محسوبة على الفناء، وإن تشربت ببعض ألوانه الزاهية. وليست محسوبة على فائض الأنانية الشخصية، ولا على فكرة الامتلاك للآخر، أو استجلاب السعادة منه. إنها خالصة، حصيلة لكل

هذا، كما الثورة حصيلة لأعطاب ورغبات وطموحات وإحباطات شخصية. الناتج أقوى بكثير من كل مكوناته. هناك ذات جديدة حلت بداخلك. الثوب أرق بكثير من خاماته. الثوب الذي لم يصنعه أحد، لقد هبط علينا من السماء، ككبش إبراهيم عليه السلام. وربما يصعد مرة أخرى إلى السماء، لأننا لم نقبل التضحية، لأننا لم نكبِّر من حجم نفوسنا، حجم نشوتنا، حتى نشعر بهذا الشعور المرهف وهو يلمس جلد نفوسنا النيئ. لأول مرة تحتك وتتصالح مع العالم بدون صراع. الصراع كان سابقا، كان أحد أدوات التصالح القديمة.

بعد انفضاض المسيرات، وعودة الملايين لبيوتهم، تتحول الثورة إلى كيان غير مرئي ذائب في الهواء، لا تقدر على الإمساك به، تعود الشوارع لتفاصيل الحياة اليومية المملة. تصحو في الصباح لتبحث عن شيء ضائع، تسير في الشارع تتسمع لرجع صدى لأصوات وهتافات أصبحت طبقة من حياة الشارع اللامرئية. تجلس وحيدا أمام شاشة الكمبيوتر، تعيد مشاهدة المقاطع التي سجلت، تبحث في قلبك عن المكان الذي استقرت فيه هذه الجموع. ربما داخل هذا القلب وحده، يمكن لهذه الكيان الذائب في الهواء أن يتحول إلى دماء لها صوت وصورة.

٢٩

من غرفتي أستمع لغناء هندي شجي يخرج من نافذة جيرمان. أتذكر الأحلام التي تأتيني الأيام الماضية، أغلبها أحلام بلا صور، تجسد صدى لأحاسيس، لا أقدر على الإحاطة بها. الأحلام أصلا معان بلا صور، ولكنها تصبح مرئية عندما ترى عين الحالم المعنى يسير في الحلم منفردا، فتخترع له حكاية وشخوصا ليسهل التواصل بين الوعي واللاوعي. قال لي جيرمان ذات يوم إنه بمجرد النظر لصخرة محاطة من جنباتها بالأعشاب، جعله هذا يشعر بالسعادة. كان يقصد كتلة الصخر التي كانت موضوعة في الحديقة ولم تستخدم من طرف ابن هاينريش بُل النحات، ونمت عليها الأعشاب. لقد انقبضت من هذه السعادة التي يصفها جيرمان. أعتقد أن جيرمان يمر بلحظات اكتئابية حادة. لا أعرف هل جاءته هذه الصورة من الحلم أم من الواقع. عشت عدة أيام وأنا متيقن من أن أحد أسباب سعادته كامنة في هذا النوع العاطفي الحاد من العلاقات الذي يجمع بين الصخر والعشب. ربما يكونان علاقة تواشج، ولكنه تواشج عميق يحدث غالبا في أعماق النفس، أو البحر. ربما النفس بعد أن تغرق ترى نفسها صخرة مكبلة بالأعشاب.

عندما سألته هل لصورة الصخرة والعشب رمز ما في حياته؟ قال: إنني فقط كنت أعطيك مثالا. لا أعرف هل استشف شيئا في سؤالي

وأراد أن يتجنب أي ملاحقة نفسية من ناحيتي؟ لم يخب ظني بفكرتي عن طريقته في صناعة مادة أحلامه، حتى ولو هذا المثال هو مثال الصخرة والعشب الذي طرأ على مخيلته في التو، وله هذا التكامل، فهو يعبر عن نوع من التفكير الهائم الذي يقف على عتبة الأحلام، وليس بعيدا عنها، قبل أن يغوص الحلم في طبقات غير متجانسة من اللاوعي، وعندها يصبح المعنى غائرا بقدر تركيب النفس.

الأحلام التي أحلم بها، والتي تفتقر للصور، تشعرني من بعيد أنني أحلم بمصر، بناس في مصر، بجلسات، يأتيني منها صدى بعيد، كأني أقف على مسافة من حلمي نفسه. طبيعي أن أشعر بهذه المسافة وأنا مسافر. ولكن أن تتجسد هذه المسافة داخل الحلم، كأن الحلم له جغرافية ونقطة مركزية يولد فيها، وأنا أرحل بعيدا عنه وعنها. لم أحلم بشيء من هنا، سوى الحصانين في الأرض الخالية المجاورة للبيت، لا أراهما بصورتيهما في أحلامي، ولكن أتحسس زفير إحداهما في يدي وهو يتجسس على شريحة التفاح قبل أن يلتهمها. تتصاعد شفقتي على هذين الحصانين خصوصا عند سدول الليل، وعند هطول المطر، لا يجدان مكانا يأويان إليه، سوى بعض الأشجار. أشعر بأنهما يسمعاني، عندما أتحدث معهما، بالتأكيد في مكان ما داخل هذه الذاكرة العشبية يستقر كلامي وبصمة صوتي. هذا المكان الذي يستقر فيه صوتي، يعود لي مرة أخرى عبر صدى الصوت ليحتل جزءا من حلمي.

عدة أيام ممطرة جعلتنا جميعا نرى أحلاما مائية، وأننا كصخور غرقى تحت الماء غطتها الأعشاب. اقترح جيرمان بأن نذهب لسوق

الأحد في مدينة دورن. اتصلنا بإحدى شركات التاكسي المخصصة لخدمة كُتّاب بيت هاينريش بُل، وكان يقدم سعرا مخفضا جدًّا. كان السائقون غالبا من الأتراك الذين يقيمون بالمدينة، ولهم حي مغلق عليهم. الأتراك لهم حضور قوي جدًّا في الشارع، وفي ذاكرة الألمان عموما، بداية من قدومهم كعمال ونعتهم بـ«جاست أربايتر» أو «العامل الضيف»، حتى احتكارهم لبعض الأعمال والعادات بل والأحياء.

يأتي الفلاحون والبائعون إلى سوق مدينة دورن من كل مكان ليبيعوا منتجاتهم الطازجة وبأسعار أقل بكثير من المولات والسوبر ماركت. تمامًا كما يحدث في شوارع القاهرة والإسكندرية، تستقبل محطة القطار يوميا مئات الفلاحات الآتيات من الريف، يتفرقن بطول شوارع المدينة، ثم يتجمعن في المساء على أرصفة المحطة نفسها في طريقهن إلى قراهن بصرة مملوءة بالعملات الورقية مدفوسة في صدروهن وموصولة بخيط من الدوبار في رقابهن. اشترى كل منا ما يلزمه من خضار وفواكه طازجة. كانت كلمة جيرمان قبل الذهاب «أريد أن أشتري خضروات»، «فيجيتبلز» ينطقها بطريقة، يضغط فيها على حروفها، تكشف حرمانه الذي طال لهذا النوع الطازج من الخضراوات، وأنه سيسترد بها سعادة مفقودة، وهو ابن الريف الروسي الذي تلون جلده كالحرباء بلون الخضراوات الأخضر.

بجانب الخضراوات اشترى جيرمان كرتونة كبيرة من الفراولة ربما تزيد عن ٦ كيلو جرامات. لم اشتر شيئا إلا سلة من البطاطس الألمانية صغيرة الحجم. كانت زيارتي للسوق للتنقل بين الروائح المتناثرة هناك. في طريق عودتنا قال جيرمان وهو ينظر للكرتونة

بشغف «يجب أن نقيم حفلة فراولة». كان جيرمان يطارد اكتئابه وأشباح حياته بالاحتفال بالجماعة في لحظة اندماجها حول طقس ما حتى ولو كان طقس أكل الفراولة. وبالفعل عند وصولنا للبيت، لم نخيب رجاء جيرمان، واجتمعنا ثلاثتنا، في «غرفة الشمس» التي لم يكن بها نقطة شمس واحدة، حول سلطانية الفراولة الكبيرة التي قام بتجهيزها. كان طعمها لذيذا، ذكرني بطعم الفراولة الصغيرة في مصر قبل مرحلة التهجين. كانت من الفواكه الثمينة في طفولتنا، قبل أن تتحول إلى فاكهة مُهانة كبيرة الحجم باهتة اللون والمذاق تباع على عربات اليد كما تباع ملابس النساء الداخلية.

أثناء تناوله لحبات الفراولة شرد جيرمان، وقال إن طفولته أيضًا كانت مُساقة وراء رائحة الفراولة، لأنه كما حكى من قبل، كان ينتمي لعائلة فقيرة نسبيا، فكانت الفراولة من الفواكه بعيدة المنال التي تُنسج حولها أحلام الصغار. كان بالاتحاد السوفيتي، يحكي، نظام المزارع الجماعية التي تقدر مساحتها بآلاف الهيكتارات. في فترة من فترات حياته عمل في هذه المزارع هو وأبوه وأخته مقابل أجر زهيد. المكافأة الحقيقية في مزارع السخرة هذه ليس الحصول على المال، ولكن في كميات الفراولة التي كانوا يلتهمونها بالداخل أثناء العمل بدون أن يراهم الحراس. ليس هذا فقط، بل كان مصرحا لهم بالخروج بأكياس معبأة بالفراولة، ويحاسبون عليها بأسعار زهيدة. في كل مرة كان يخرج وفي بطنه لون أحمر مركز يفوق الدم في حمرته، ويقسم عندها بسبب التخمة بأنه لن يأكل الفراولة مدى الحياة. في اليوم الثاني ينسى قسمه وتتجدد شهيته، وبنفس الحذق يمسح عند

خروجه أي أثر للون أو رائحة للفراولة من فمه حتى يخدع حارس البوابة، والذي يبدو أنه يعرف كل شيء، يرى بوضوح اللون الأحمر الذي يظهر على جهاز «كشف الفراولة» على بوابة هذه المزارع التي تشبه السجون. هكذا كان جيرمان يسخر بمرارة من كل شيء «هناك».

طبعا لم نقدر أن نأكل سوى بضع حبات من الفراولة في هذا الاحتفال الدموي الذي صبغ أيدينا وشفاهنا. حتى جيرمان نفسه، يبدو أنه شبع منها منذ زمن، ولم يشترِها سوى عرفانا لجوع سنوات خلت. داخل البيت الريفي الذي نشأ فيه كانت تكثر الاحتفالات حول أصناف خاصة من الأطعمة واللمة بين أفراد العائلة الكبيرة: «كل شيء في الماضي كان له مذاق، الأكل كان احتفالا وليس مجرد رغبة في الشبع».

وكعادة جيرمان، التي لم يتخل عنها، وأعتقد أنه لن يتخلى عنها في المستقبل؛ ترك سلطانية الفراولة كما هي في الفراندة، وغطاها بورقة. دائمًا يترك شيئا وراءه، ربما ليأخذه أحد أثناء غيابه ويريحه من هذا الثقل النفسي. ربما تركه بدافع الكسل، أو الخجل، وربما بدافع أعمق، أن نسيانه له معنى. فهناك من يتذكر هذا النسيان ويقتفي أثره على الجانب الآخر من وجوده، أو في أي مكان لا يراه؛ لذا يتحول نسيانه لإشارات تواصل شفافة مع هذا الجانب الخفي والمُهمَل من وجوده.

بعد حفلة الفراولة، دعوت ألجريد ليصحبنا أنا وجيرمان، للتريض اليومي، فاعتذر وقال إنه مشغول بالكتابة وينتظر مكالمة من زوجته. كان مهموما، وربما هيابا أن يخرج معنا بعد حوار الديكتاتوريات

والقوميات السابق. بالرغم من أنه ينعت نفسه بأديب عالمي ينتمي فقط للإنسانية الواسعة، فإنه كان يدافع عن هذه الرقعة الصغيرة من الإنسانية في «بيلا روسيا» دفاع الأبطال، كأنها آخر حصن لم يستسلم في حصن الإنسانية الذي على وشك السقوط.

في منتصف مشوار التريض توقف جيرمان مرة واحدة، كأنه اكتشف شيئا، ونظر لما حوله من مروج وجبال وحيوانات ترعى، وسحب رمادية وحقول قمح صفراء وغابات ممتدة: «الأدب الروسي الكلاسيكي كان يصف الريف كمساحات من الخضرة ومن ورائها الغابات، والأفق يظهر من بعيد». ثم استأنف بعد أن وجد الاستغراب على وجهي: «لا الأفق الذي يظهر من بعيد، ولا عظمة الإنسان الذي يقف وسط هذه الطبيعة، موجودتان في الريف الروسي. ربما الأدباء الروس العظام كانوا يصفون الريف الألماني وليس الريف الروسي. تولستوي وتورجنيف وغيرهما عندما أقرؤهما وأشاهد الريف الروسي تنتابني الدهشة». وما شكل الريف الروسي إذن يا جيرمان؟ سألته.. «ريف ملآن بالزبالة، والبيوت المهدمة، والجرارات الخربة، وبعض المساحات الصغيرة الخضراء».

٣٠

سافرت إلى برلين لإلقاء محاضرة من طرف الجهة المانحة. كان أغلب الحضور من المصريين والعرب الذين يعيشون هناك، وبعض الألمان المهتمين بالثورة. كانت أغلب الأسئلة تدور حول التفاصيل الصغيرة للثورة، والتي لم تقدر الأخبار على نقلها ولن ينقلها إلا من شارك فيها. عرضت شريط فيديو كانت زوجتي قد سجلته خلال أيام الثورة الأولى في القاهرة والإسكندرية، كان عبارة عن مقتطفات لمسيرات وأصوات وحوارات. في أثناء عرضي للشريط ظهر مرة أخرى الصوت الخفيض لزوجتي في إحدى المسيرات على الكورنيش في الإسكندرية، حتى لا يسمعنا تسجيل الكاميرا، تطلب مني أن أنظر للكاميرا لتسجل لي هذه اللحظة الخالدة. هذا الخطأ التقني، سيعيش أطول ربما من الصورة نفسها، مثل تسجيل الشيخ مصطفى اسماعيل الذي يصاحبه هديل للحمام، ومع مرور الوقت ذاب الهديل تمامًا في صوته. نفس الشيء ذاب صوت زوجتي المنبه لي مع صورة الجموع، وأنا أسير وسطها.

خلال الأيام العشرة التي قضيتها ببرلين، بدأت أنسى تلك الوحدة التي كنت أعيشها في هذا البيت الريفي، وأخلع ثوب النساك الخشن وألبس ثوب الصخب والنقاشات الحامية وسط رغاوي البيرة والموسيقى العالية في بارات ومقاهي برلين. قبل السفر كانت

أحاسيس الوحدة والملل قد بدأت تتسرب إلى تفاصيل يومي: الكتابة والسير ووجبات الطعام، في كل منها أصبح هناك جاسوس. الليل كان له النصيب الأوفر من هذه الأحاسيس. أشعر بأن أي ليل غير محصن ضد الوحدة. كنت أقول لنفسي دائمًا إن الوحدة والملل جزءا طبيعيا من أي حياة. ربما للمرة الأولى التي ألمس جلد الوحدة الخارجي بهذا القرب. في السفر تقترب الأشياء، المحبب منها والمؤلم، تقترب الذكريات، والوجوه المألوفة، وكذلك الوحدة التي تبدو كجوال الحكاوي الكبير الذي يجمع داخله كل أنواع الذكريات.

بدأ تفكيري يبحث عن لحظة خلاص باختراع حلول بعيدة للحياة. عندما يأتيني مثل هذا النوع من التفكير أعرف بأني أصبحت محاصرا بمشاعر سلبية، كأني أريد أن أنسى تلك النقطة التي أقف عليها، أتجاوزها بالتحليق فوقها. عندها قلت لنفسي أيضًا: «إنني هنا، في مكان آخر، ولابد أن أمنح وحدتي فرصة أخرى للتأقلم. لقد مضى أكثر من شهرين، وبدأت أعاين نوعا آخر من المشاعر الصابرة، التي تتحدى السأم والملل، تتركهما يأخذان دورتيهما ليذوبا وسط الحياة في هذا المكان الآخر، ولن يكونا كسأم أو ملل العجز الذي كنت أشعر به في مصر أحيانا. أعرف أن ساعات مللي ووحدتي سيكونان لهما معنى مختلف عند عودتي لمصر، سيكونان لهما قيمة لأنهما جاءا من مكان آخر، بذرة جديدة للملل أو الوحدة، ستنتج هجينا من الثمار، يجري في ظلام أنسجتها ذلك العصير السكري، وليس المر، للوحدة».

المفاجأة أنني عند عودتي من برلين شعرت بأن لي «بيتًا» في ألمانيا، افتقدته بدون أن أشعر طوال هذه المدة، ومفتاحه في جيبي،

ويجب أن أعود إليه. عند دخولي شعرت بأني أعود لمكان يخصني، حتى هواؤه، ورائحة روث حديقة الإبل المجاورة. لم يبق إلا أن أقول كما كانت تقول والدتي عند عودتها لبيتنا الخالي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كانت تسلم على ساكني البيت في غيابها. هذه الخصوصية والألفة لا يمكن أن يجتمعا مع أي شعور طارد، عندها أيقنت بأن وحدتي هنا وحدة جديدة ليس لها ميراث من الأفكار السلبية القديمة. كانت نفسي عارية تمامًا تستقبل مطر الوحدة بشغف على زجاج نوافذها المفتوحة، والطيور السوداء الملتصقة بها، تحميها من أي هجوم خارجي.

في صباح اليوم التالي لعودتي من برلين، بعد تناولي لإفطاري المعتاد، سارعت بحثا عن جيرمان وألجريد. وجدت كل شيء كما تركته، لم يتقابلا، طوال الأيام العشرة التي غبت فيها، إلا صدفة في الساحة في فترات الراحة من الكتابة، وتبادلا أنخاب دخان الغليون. كان ألجريد ما زال بالخارج، ولكنه عاد قبل خروجنا، أنا وجيرمان، وكان عنده ما يشغله من أرواح وأشباح الرواية الجديدة التي يكتب فيها. اتفقت مع جيرمان على التمشية اليومية التي كنت مشتاقا إليها. اخترعت نقاطا جديدة للحديث معه، أكثر جرأة وابتكارا، بسبب انتعاش السفر لبرلين. قلت له إنني أسال نفسي دائمًا لماذا أقاوم الأفكار التي تأتيني وحيدا، لماذا لا أتركها تنفذ من جلدي بدون مقاومة؟ سألني جيرمان جادا: هل تخاف من الأفكار؟ قلت له: أحيانا. قال: أنا لا أخاف من الأفكار ولكني أخاف من الأشباح!

سمعت كلمته الأخيرة وأنا مندهش قليلا، قلت له هل هي أشباح

الأفكار أو الماضي؟ قال لا، أشباح الحاضر! زاد استغرابي، ولم يطل وقال إنه مطارد من أشباح يشعر بوجودها معه في البيت! تشاركه في كل لحظاته! سألته هل تقصد أشباحا حقيقية، قال: نعم، إنه يشعر بوجودها في كل لحظة من حوله في البيت. هي التي تسبب له الخوف والقلق و تؤثر في درجة اكتئابه ولا تمنحه نوما هادئا.

بدأت أتذكر أنني، أحيانا، وأنا أكتب في مكتبي في الدور الأرضي، أشعر كأن أحدهم ينظر لي أو يتأملني من الخلف، وعندما ألتفت فجأة، وأحدق في هذا الفراغ، لا أرى شيئا. ولكني أشعر بأني باغت شيئا ما يخاف مني لو التفت إليه أو حاولت رؤيته. حتى ولو لم يكن هذا الشعور صحيحا، فلماذا أتلفت خلفي دائمًا؟ كنت أسأل نفسي لأؤكد حدسي. أصوات وخربشات، كلها توحي بمجال آخر تتحرك فيه أرواح لا أراها. أحيانا كنت أتصور أن ألجريد يتلصص عليّ بعينيه الحادتين، من الشباك الذي يطل على ممر الدجاج، الفاصل بيني وبينه، ولكن لم أسمح لهذه الفكرة بالاستمرار معي أكثر من ثوان.

ولكن في إحدى المرات لم أقاوم شكوكي، وقمت ناحية الستارة وأزحتها مرة واحدة. تلك الستارة تسمح بتسلل أشعة الشمس في ساعات محددة في الصباح، وتجعل الصالة مثل ساحة ألعاب ضوئية. رأيت ظل ألجريد ينسحب بسرعة من خلف ستارة نافذته التي تطل على شقتي. لم أدع هذه الفكرة تستولي عليّ، فلماذا يقوم ألجريد بالتجسس عليّ؟ تعمدت كل صباح أن أزيح ستائر هذه الغرفة، لتتسلل أشعة الشمس وتحمل على خيوطها الحارة إلى ظهري، حيث أجلس في غرفة المكتب؛ نظرات ألجريد وتساؤلاته عن هذا الكاتب

القادم من مصر، الذي يعتقد بأنها جزء من العالم الروحي الذي يحب أن يعيش ويقترب منه، ربما لأنه يمتلك إجابة على شقائه الروحي.

لم أصرح لجيرمان بملاحظاتي الخاصة حتى لا تتعمق فكرته، بل سرت مع فكرته. لقد دخل صديق جديد لوحدتي، وإن كان من العالم الآخر، تخيلتها أشباحا ألمانية هي الأخرى تتعرف على هذا الصديق القادم من الشرق الذي لم تألف عاداته بعد. ولكن هذه الأصوات لم أعد أسمعها عند عودتي من برلين، يبدو أن غيابي أطال وحدتها فآثرت أن تذهب لمكان آخر لتأتنس بالآدميين. تذكرت حديثا لألجريد يتحدث فيه عن أشياء تطارده في البيت، عللت ضعف لغته الإنجليزية بأنه لم يوصل المعنى المطلوب، ولكنه في ذلك الموقف أخذ يشيح بيديه عاليا، كأنه يطرد عن وجهه طيورا سوداء جارحة تهاجمه.

بعد حواري مع جيرمان، بدأت أشحذ وجودي في اقتفاء أثر هذا الوجود الشبحي. في أثناء سيرنا في الغابة شعرت بأن صوت تكسّر فروع الشجر اليابسة التي أدوس عليها، يرجِّع زمنا شائخا له تجاعيد. تخيلت بأن هذه القرية قليلة العدد تعرف سر الأشباح التي تعيش معهم ولكنها لا تنطق به. لقد ألفتُ العيش مع هذه الأصوات التي تأتيها من الغابات، صوت الطبيعة التي عاشت قبل مجيئهم لهذه القرية واتخاذها سكنا ومستقرا. تذكرت هذا العجوز وزوجته، اللذين أراهما يوميا في نفس المكان، وهما جالسان للعشاء في الغرفة الزجاجية، المطلة على الحديقة، بعضهما أمام بعض. لم يتغير وضعهما أبدا، وكأنه عشاء لا ينتهي، وكأنهما تمثالان من الشمع. كأحد أعمال المثال الأمريكي جورج سيجال.

شاهدت ألجريد صباح اليوم التالي وهو جالس على تلك الصخرة التي تغطيها الأعشاب في الحديقة، والتي حلم بها جيرمان من قبل، وفي يده كأس نبيذ وغليون مشتعل. وعندما خرجت إليه لأحييه، وجدت وجهه باهتا.. «ورك.. ورك.. ورك». يقصد: «عمل.. عمل.. عمل». ألجريد نموذج للكاتب المتفاني الذي يسخِّر كل شيء في حياته من أجل الكتابة. كان متعبا من العمل. دائمًا عند استيقاظي ليلا للذهاب للحمام، أنظر للإستديو الخاص به، فأجد نوره مضاء، يبدو أنه لا ينام إلا مع ظهور خيوط الفجر، بعدها يستسلم للنوم وهو آمن من أي مطاردة لفقهاء الظلام أو لملاك شارد من ملائكة الكتابة.

عندما تحدثت مع جيرمان حول المطاردات التي تقوم بها الأفكار في وحدتي، كنت أستعيد روح حديث قديم لصديق، حول فكرة الأدب التي يلخصها أحد الكتاب. أن وظيفة الأدب هي مطاردة الأشباح التي يحملها كل منا بداخله. الأشباح بالمعنى الحقيقي والمجازي. لم أعرف بأني ألمس وترا حساسا في الأدب الروسي الروحي الذي يحاول الخلاص لهذه الروح، ليس فقط عن طريق السمو، بل الإنصات أيضًا للأشباح التي تقف في طريقها. الأدب الروسي ممسوس بروح شبحية، بشبح كالقرين، يقف بالقرب من الحدود الشخصية، وعلى وشك تجاوزها إلى ما هو أبعد من ذلك، ربما إلى انقسام لا شفاء منه. ربما لهذه السبب ابتلع جيرمان الطعم ليعبر سريعا لمكان الخلل في نفسيته.

أصبحت لي ذاكرة كلبية تتشمم رداء الأشباح في كل ما مر بي من صور وأحاديث. وتذكرت عندما كانت زوجتي تتحدث معي

في الإسكايب. كانت العدسة التي تراني فيها تكشف تلك المساحة التي تظهر ورائي. عندما أنظر لعينيها، كنت ألحظ سرحانها الدائم في نقطة خلفي لا أراها. بالتأكيد لم تكن تنظر لي، ولكن لنقطة أبعد، بانحراف عن بؤبؤ عيني. ولم أشأ أن أسألها عن تكرار سرحانها أمام عدسة الإسكايب، ويبدو أنها هي الأخرى قد آثرت بألا تزعجني بأمر هذه الكائنات اللامرئية، فليس هناك مكان محدد يمكن أن تذهب إليه لتزورها، ربما في تلافيف الذاكرة والعقل البشريين.

حدث شيء قبل سفري لبرلين أثار انتباهي. وكان علامة لحادث أكبر. في تلك الغرفة الصغيرة التي في الدور الأرضي، عادة ينتابني دائمًا نسيان مؤقت، كأن هناك ذاكرة أخرى تسكنها ولا تريد لذاكرتي من أن تتواجد بها. عند دخولي أشعر بتشوش وأفقد تركيزي، كأنها غرفة تعيش خارج مجال الجاذبية. كنت أقوم بكي ملابسي استعدادا للسفر، حيث يوجد بالغرفة منضدة الكي ومنشر للغسيل، وسرير مرتب على الدوام لم ينم عليه أحد. بعد أن أنهيت هذه المهمة المملة، صعدت لغرفتي ومعي الملابس المكوية. في صباح اليوم التالي أحسست بشيء يشدني لدخول الغُرفة قبل السفر مباشرة. شعرت بحرارة أعلى من ميزان حرارة البيت التي اعتدت عليها. وبالفعل وجدت لمبة المكواة القديمة الحمراء مضيئة، فقد نسيت أن أفصلها من الليل الفائت. استغربت تمامًا من تدهور حالة تنبهي غير المعتادة في السفر. عندها تخيلت أنني تلافيت حدوث حريق كبير في البيت، وحمدت الله.

أخذت المشاهد تتوالى في رأسي، وصدى أحاديث لمسز لودفيج وابنها ديتيليف، عن تلك الفتاة الصينية التي كانت تعيش مع زوجها

الكاتب الصيني في شقتي التي أعيش فيها حاليا. كان الزوج يغار عليها، وفي إحدى المرات يبدو أنه كان يطاردها بالشكوك والصراخ مما دفعها لأن تسقط من أعلى السلم الخشبي الذي أصعد وأنزل عشرات المرات يوميا. كسرت قدمها، وذهبوا بها إلى المستشفى. وعرضت مسز لودفيج، بعد خروج الفتاة من المستشفى أن تفصلها عن زوجها الغيور والمجنون، وعرضت عليها أن تبيت في بيتها، ولكن الفتاة رفضت وقالت عن زوجها الغيور: «إنه ابني فكيف أتركه وحيدا».

كان الزوج يشك في أن زوجته على علاقة بكاتب آخر برازيلي كان يسكن في الإستديو الذي كان يسكن فيه ألجريد الآن، ويشك بأنها كانت تقطع ممر الدجاج ليلا وتذهب إليه قبل أن يستيقظ هو من النوم. ملأته الشكوك وتعارك معها أكثر من مرة وانفتحت بقجة الفضائح في القرية الصغيرة، وتدخلت مسز لودفيج للصلح بينهما أكثر من مرة بعد أن يعلو صوت صراخهما الجنوني. بعد عودتهما لبلادهما، عاش الكاتب الصيني، مع زوجته، في جزيرة نائية في المحيط الهادي، ليحاصر الشك كجزيرة وسط المياه. ولكن هناك تغيرت نيته، وربما بدافع هذه الكمية المهولة من المياه التي تحوط بهما. قرر أن يتخلص من حياته، بدقائق بعد أن تخلص من حياة زوجته، ولكن بالرصاص.

بجانب الأشباح التي أخذت تنمو في خيالنا بسرعة، كانت سنابل القمح والشعير تنمو أيضًا. فأثناء سيري مع جيرمان ونحن نقطع الوديان والسهوب والحقول، لفتت نظره تلك الملاحظة المتفائلة التي أراحتني وضخت الهواء قويا في رئتي، قال إن حقول القمح قد أزهرت خلال الشهر الأخير الذي بدأنا فيه السير سوية، من قبل

كانت مخفية في الأرض، والآن طالت سيقانها وظهرت هذه السنابل الذهبية. لقد نمت تلك الحقول بجوار حديثنا اليومي، وبدون أن نلحظ، حتى صارت بهذا الطول.

شيء آخر كان مختفيا داخل أحادينا، بيني وبين جيرمان، نما بجوار هذه الحقول. آمنت بتلك الفكرة التي أشار لها من بعيد وهو يبتسم، لقد التقط خيطا قديما للعلاقات بين فصول النمو والازدهار التي تضم في سبيكتها الإنسان والنبات معا، وأي علاقة لها هذا الشكل من النمو، بقوة الحياة الكامنة فيها.

٣١

لم أدخل تلك الغرفة التي تطل على ممر الدجاج، إلا قليلا، بالرغم من أني أمر عليها عدة مرات، كأنها منفصلة عن الشقة. أشعر مع كل مرور لي ونظرتي الخاطفة إليها بأن شخصا غريبا يسكنها، وهذا الآخر له عادات خاصة، ولهذه العادات رائحة بدأت أميز بها هواء هذه الغرفة. كان من الممكن في البداية أن اتخذها مكانا للنوم بدلا من غرفتي الحالية، في الطابق الثاني، ربما عندها كانت ستتغير نظرتي، وتتمحور حول الغرفة الأخرى، التي أنام فيها الآن، وغربتها وعمود الضوء الذي يسقط من سقفها. هناك أشياء نألفها لمجرد أننا نملأ حيزها بحاجياتنا وتنفسنا، نعتاد عليها، وربما لا ندقق فيها جيدا ونكتشف كل خباياها وتفاصيلها، ولكنها تُنسخ بألفة داخل ذاكرتنا ككل. وهناك أشياء، أو أماكن قريبة منا للغاية، ولكنها قادرة على أن تصبح غريبة، أو تستثير فينا شعور الغرابة وتنازع ذاكرتنا كأنها «آخر» يعيش بالجوار. الاعتياد يولد غربة. التعدد يحير ذاكرة الإنسان. الذاكرة تنظم هذا التعدد حتى يصبح لها القدرة على بث المشاعر الصحيحة في الوقت المناسب. أن تألف كل ما هو غريب أو بعيد عنك. تظل هناك هذه المساحة المجهولة التي تتحرك كشبح ملازم لأي مكان مألوف لك، مساحة لا تصنف. هذا المكان الشبحي يجعلك ترى الأشياء بشكل لم تعتده، تكتشف من خلاله شخصا

جديدا هو أنت. تبديل مقاعد الدراسة في الفصل كان يولد فيَّ هذا الشعور بالغربة، السفر كذلك كنموذج قياسي لكل ما لم تعتده. يبدو أن الألفة لا تحدث إلا في وجود هذا الشيء الغريب، المكان الآخر، البلد الآخر، وفي اللحظة التي يصبح فيها هذا الغريب أليفا، معناه أن مكان الألفة قد توسع، لم يعد المكان الطفولي، المملوك لصاحبه بقوة الوجود. هناك نسخة طفولية من الألفة. تتغير عناصر الألفة مع السن، كلما تقلصت طموحات الحيز الذي نشغله، كلما عادت الألفة لتصبح مكانا داخليا، يمكن أن يُحمل معك في الحقيبة إلى أي مكان. الألفة والغربة مكانهما النفس بعد أن تأخذ هذه النفس دورتها عابرة ومتجاوزة لامتحانات وأسئلة الوحدة والتعدد، الإيمان والشك. الألفة ليست الوحدة التي نعتادها، ولكنها الوحدة التي توسعت بالغربة، بكل ما هو غير مألوف وأليف. التعدد لا يحتفظ بعناصره الأولى، يذوب من وهج الألفة.

٣٢

شاهدت الكاتب الصيني يخرج للحديقة. وصل منذ يومين وشغل مكان «إستديو زوفنكو». الفترة التي اجتمعنا فيها نحن الأربعة: زوفنكو وألجريد وجيرمان وأنا، هي لحظة التأسيس والتقسيم لميراث البيت الروحي والمادي. أصبحنا نحن أصحاب البيت الأصليين، أو «السكان الأصليين» الذين سيتركون موطنهم حتما إلى الشتات. أقول «إستديو زوفنكو» حتى بعد رحيله، وسأقول «إستديو جيرمان» و«إستديو ألجريد» حتى بعد رحيلهما ودخول كتاب آخرين بدلا منهما. هذا المربع الذي صنعناه هو الناموس ذو الزوايا الأربع الذي أرسيناه في البيت.

كان «بي كاي» في منتصف الأربعينيات ومتزوج وله ابنة واحدة، تمشيا مع قوانين الصين في الإنجاب التي تقتصر على طفل واحد للأسرة. يوميا يذهب ليأكل من شجرة الكرز الذي بدأ موسم إثمارها. لقصره كان يشب على أطراف أصابعه ويقطف الحبات المتدلية منها إلى فمه مباشرة بدون غسيل. قبله بقليل خرج جيرمان للحديقة وفعل نفس الشيء. الحبات الحمراء المتلألئة للكرز تغري الجميع بأن يلتهموها وهم وقوف تحتها.

دعانا «بي كاي» وتعني في اللغة الصينية «ورقة الشجر المتفتحة» لشرب الشاي الصيني الذي يُجهز بأوراق خضراء تنمو على قمم

الجبال. قال إن زوجته تستعمل هذا النوع من الأعشاب لتزيل آثار الأرق قبل النوم. شربنا شاي التعارف تحت تلك الشجرة المثمرة في الحديقة، وسرعان ما بدأ مفعول الشاي يتسلل وتظهر أعراضه في سرحان أو تثاؤب. جيرمان الذي يعاني من أرق مزمن طلب من «بي كاي» أن يعطيه قليلا من هذه الأعشاب، فأصر «بي كاي» على أن يهديه باقي الكيس الذي أتى به من شانغهاي، حيث يعيش، مباشرة. مزية «بي كاي» أنه مبتسم وله ضحكة صغيرة لها صوت مخطوف يختم بها أي جملة يقولها. وربما مجيئه يخفف عن كاهلي قليلا ثقل وعمق تلك الأرواح المأساوية التي تستحوذ على تفكير ألجريد وجيرمان. كان لزوفنكو، من قبل، تأثير في ضبط الميزان الروحي للمكان، بحيث لا يجعله يميل ناحية هذا الإحساس السوداوي الصامت للكتاب الروس.

في جلستنا الناعسة تحت الشجرة انفرط لسان «بي كاي» في الحديث. ربما رأى أنه الجديد في هذه الجلسة وعليه أن يقدم نفسه. لم يتوان عن شرح النظام البوليسي الذي يعيشونه في الصين، ومستويات الفقر التي وصل إليها الشعب، حتى إن والده أخرجوه من العمل منذ فترة طويلة، ومن وقتها يقوم «بي كاي»، الذي له خمسة أخوة مرتباتهم ضعيفة؛ بالصرف عليه. وأضاف أن فرع عائلته الذي يسكن الريف هو الفرع الفقير، أما عائلة زوجته التي تسكن مدينة شانغهاي فهي الفرع الغني.

استكمل «بي كاي» الحديث معي عندما زارني في المساء في شقتي وأهداني علبة سجائر صيني أتى بالعديد منها بالرغم من أنه

لا يدخن! أحسست بأني أدخن أليافا صناعية خالصة، لا وجود فيها لمذاق الدخان الطبيعي. كنت أستعجب من حديثه الساحر من هذا العملاق الصيني، وأفكر في الدعاية الصينية التي انتشرت بأنها القوة المستقبلية التي ستغير وجه العالم. وشرحت له كيف أن هناك في مصر من يدرس اللغة الصينية لأنها ستصبح لغة المستقبل. كان يسمع كلامي باستغراب كأني أتكلم عن بلد آخر غير بلده. كان معجبا بالثورة المصرية وكونها ثورة بيضاء، وأشار إلى أن السلطات في الصين كانت تمنع تدفق الأخبار في البداية عن الثورة المصرية، ثم سمحت بالقليل بعد أن استمر تصاعدها.

كان «بي كاي» أحد هؤلاء الطلبة الذين اعتصموا في الميدان السماوي في بكين عام ١٩٨٩، ضد الحكم الديكتاتوري طلبا لمزيد من الحريات. وقال إن هذا الاعتصام الذي فض يوم ٤ يونيو سمي «٤ - ٦»، يعني الرابع من يونيو، وأنه من غير المسموح الحديث عنه في أي وسيلة من وسائل الإعلام، ولا حتى في الروايات الخيالية. وحتى الآن غير معروف بدقة عدد القتلى من الطلبة والعمال بعد مهاجمة الجيش لاعتصامهم بعد فض الاعتصام، كما يذكر «بي كاي»، عادت الحياة مختلفة تمامًا عن الطموحات التي سبقت الاعتصام والإضراب عن الطعام الذي قام به الطلبة والعمال، أصبحت يد الدولة أكثر قوة وسيطرة على كل المقادير.

أيضًا «بي كاي» جاء إلى هذه القرية الألمانية وهو يحمل معه هزيمة لحلمه، كما كنا جميعا، وإن لم أكن في ذلك الوقت أشعر بهزيمة الثورة، ولكن على العكس كنت أشعر بهزيمة الميراث

السلطوي الذي تربينا عليه. ولكن يبدو أن أي مكان يجتمع فيه مجموعة من الجنسيات المختلفة سيكون المشترك بينهم هو تلك الأحلام المجهضة.

أكثر شيء يؤرق الشعب هناك في الصين، كما يقول بي كاي، هو غياب المستقبل. وجدت عنده نفس الشيء الذي كان موجودا ولا يزال في مصر، فضبابية فكرة المستقبل أصبحت لغة عالمية أيا كانت الأسباب التي تقع وراءها. لم أشأ أن أسأله عن ديانته، إلا أنه أسرع كأنه قرأ أفكاري بعد تناولي لهذا المشروب السحري، وقال إن عدم وجود الأديان في الصين من أهم الأسباب التي ساعدت على تعميق هذه الهوة المستقبلية التي يُنتظر سقوط كثيرين فيها. كان يتكلم معي بضمير الجمع، «إحنا»، بوصفنا، أنا وهو، من الشعوب القديمة التي لها تقدير في التاريخ، ويجب أن تكون حكمتها التاريخية قادرة على أن تقود شعوبها وتتخطى مأزق المستقبل الغامض.

عندما سألته عن خطته للعمل التي جاء بها، وهل يحمل معه مشروعا لرواية مثلا أو كتاب، أو مراسلة لإحدى الصحف في الصين؟ قال إن مشروعه أن يكتب قصصا للأطفال، فابنته التي تبلغ من العمر أحد عشر عاما، طلبت منه أن يكتب لها قصصا صينية، بدلا من قصص «الفيري تيل» التي تقرؤها، وأن يهديها لها في عيد ميلادها القادم. روح الطفولة التي يكتب بها ويتعامل بها مع الآخرين، لم تفارقه هنا وأزالت كثيرا من سوء الفهم، وكانت تضخ في شرايين المجموعة الجديدة هذا الحس البريء.

أمطرت بغزارة في ذلك اليوم، بالرغم من درجة الحرارة المرتفعة

التي وصلت لـ٣٠ درجة مئوية. أغلقت تكييف البيت الساخن، شعرت لفترة بأنني داخل فرن تتصاعد حرارته. المطر في ألمانيا لا يعبر فقط عن الشتاء، إنه علامة على أي تغير في درجات الحرارة ارتفاعا أو انخفاضا، قناع جديد من أقنعة الطبيعة يزيدك ارتباكا في فهمك لما حولك. وجه كرنفالي من تلك الوجوه التي تظهر في الأعياد الكبيرة للبشر والحياة، ليس حقيقة وليس كذبا. يمثل، كأي شيء طبيعي، تلك المسافة الملتبسة بين الحقيقة والكذب.

أشعر بأن المطر في ألمانيا مادي وليس له أي بعد روحي، كأي تفاعل كيميائي يتم بنسب بين عناصره، إن زادت إحداها حدث التفاعل. ربما لأنه المشترك الأعظم بين الفصول كلها، وعدم اختصاصه بفصل محدد، لذا تم استهلاك روحانيته. ربما في أوربا كلها المطر فقد روحانيته، ليس مادة تطهير كوني كما هو في الشرق. الاستثناء هو الذي يمنح الشيء، أو الظاهرة، بعدها الغائب. أصبحت المفارقة جزءا من الحياة، حتى في الظواهر الطبيعية، العرق يتصبب على وجهك، وتختلط حباته بالمطر، تقترب المسافة بين التعب والبرد، بين إحساس الوحدة الذي يفرضه الشتاء وبين التململ الذي يطفو على سطح الحياة اليومية بتأثير الحرارة المرتفعة. تجتمع هذه الضديات، أو التي كانت من قبل ضديات، لتنتج أحاسيس جديدة، بالتأكيد ستتسرب في تكوين الشخصية هنا، فلن يرى أحدهم أي ظاهرة في نقائها، بل مخلوطة ومزاحة بظاهرة أو بحالة ضدية لها. عشنا عصرا في مصر كانت المسافة فيه واسعة بين عرق التعب، وبين حبات المطر، بين النفس الصيفية والنفس الشتوية. كان لكل فصل حدوده النفسية والمادية.

تحدثت مع زوجتي على الإسكايب لأجعلها شاهدة معي، كما تعودنا، على هذه اللحظة الطبيعية الفارقة. وتحركت باللابتوب ناحية النافذة كما طلبت لترى زخات المطر المتواصلة. أحيانا كنت أقوم بتشغيل مقطع الفيديو التي سجلناها أثناء مسيرات الثورة، الذي تكلمني فيه بصوت هامس حتى لا يظهر في هذا التسجيل الذي سيسجله التاريخ. من يقف أمام التاريخ يجب عليه أن يتكلم بصوت هامس، وبرجفة تليق بإحساسه بالتاريخ، الذي تأخر كثيرا وعاد مع هذه الجموع السائرة. كان يؤثر فيَّ هذا الصوت الهامس، وهذه الطبقة الخفيضة، كأننا نتكلم في مكاننا الشخصي الحميم، بالرغم من أننا كنا نسير وسط مظاهرة حاشدة.

استعجلت إنهاء الحوار حتى ألحق التمشية في هذا المناخ المزدوج. استكملنا خلال حوارنا تفاصيل المعرض الذي أقاموه في المقهى، ومدى إقبال الأطفال عليه، وتسلقهم لأكتاف الكبار، ومشاركة الأهالي لأطفالهم في الغناء والرسم والرقص. وكم كانت فقرتا مسرح العرائس وخيال الظل ناجحتين وتفاعل الأطفال معهما بشكل غير طبيعي. كان الأطفال هدفا لكثير من النشاطات، لأن المستقبل لديهم ما زال صفحة بيضاء. كانوا الجزء الغفل والبريء من الثورة الذي يمكن أن نقيس عليه. عادت كل صور التعبير الخيالية لتحتل مكانها، كأن الثورة بعثت خيال الطفولة وأبطالها، خصوصا خيال وأبطال تلك الأحياء الشعبية، أو أنها هي نفسها كانت أحد الأطفال اللامرئيين وسط الحياة اليومية.

بالرغم من كل هذا الحديث الحماسي، فإنني شعرت في صوتها يأسا مواربا، كان سببه تذبذب الأحوال السياسية، ودخول الثورة في

نفق السياسة والانتخابات وغيرها. حاولت أن أطمئنها بقدر الإمكان. ولكنه اطمئنان لم يكن له مصدر سوى استمتاعي بمناخ جديد بث في نفسي روحا متفائلة أسقطتها على كل ما حولي مثل مطر ألمانيا اللامتوقع، وليس اطمئنانا مصدره تحليل موضوعي لما يحدث في مصر من علك سياسي، وتفكك لكتلة الشعب.

طوال الطريق لم أقابل أحدا، سوى شاب كان يأخذ جاكت المطر من العربة ويسرع للدخول في «حديقة البيرة» التي تقع بحذاء صف من الفيلات الأنيقة على الناحية الأخرى من الغابة، ويشغل هذا الجزء إحدى نقاط التوقف في مساري اليومي القريب من البيت. يقام أسبوعيا حفل موسيقي يبث الدفء في تلك الأجساد الشابة المعزولة داخل هذه القرية. أيضًا كانت هناك سيدة تقف وراء زجاج نافذتها في الدور الثاني من الفيلا، وبدون أن أدري وجدت نفسي أنظر لأعلى، ظهر نصف وجهها، كانت تنظر لي ولم تتوقع أن أباغتها في التوقيت نفسه. هذه الثواني ثبتت شيئا عندي وعندها، كأن كلا منا استضاف الآخر في مكانه العميق لثوان. دائمًا يحدث هذا الالتباس. لا أعرف لماذا نخاف من أن يرانا الآخرون ونحن نراقبهم، كأننا اعتدينا على حديقة ليست لنا. أكملت السير، كانت رائحة التربة والعشب وروث الخيول تغطي على الفضاء الذي أسير وأتنفس فيه. التعدد في هذا الريف الألماني ليس في تعدد الفصول، ولكن في تعدد درجات الألوان للفصول. المطر يشمل معظم شهور السنة، ورغم هذا تتغير بالتة الألوان من فصل لفصل. اللون، وليس درجة الحرارة، في الغالب هو الذي يمنح أي فصل خصوصيته.

بسفر ألجريد الوشيك، بدأت تتفكك الخيوط التي كانت تجمع تلك البيوت الأربعة. الأباجورة الساهرة في غرفة زوفنكو في الطابق الثاني، والتي كانت تذكرني بالأباجورة الساهرة لجار الثانوية العامة أو سنوات الجامعة في العمارات المقابلة في حينا القديم بالقاهرة. كانت الغرف المضاءة في ليل تلك السنوات لا يتحرك بداخلها سوى الطلبة. ربما يكون نائما، ولكن الأباجورة وضوءها كانا يحلقان في سماء المجد والتفوق. نقرة الجدار الجانبي الذي يفصلني عن جيرمان وسماعي لأنات الدرج الخشبي أثناء صعود ونزول هذا الدب الروسي، ونقرته على الجدار الفاصل بيننا، استعدادا لنبدأ مسيرتنا اليومية وسط الحقول. ممر الدجاج المعشب ذو الأزهار الصفراء، الذي تتوسطه البلاطات، والذي يفصلني عن إستديو ألجريد، أتسلل إليه من الباب الخلفي للبيت. داخل هذا الممر كانت الدجاجات الثلاث لجارتنا ريناتا ترعى يوميا بدون أن ترى إنسانا لساعات، لا تعرف بأن هناك كتَّابا بالداخل يتدحرجون على صخرة أحلامهم.

هذه الشبكة من الخيوط التي نُسجت بين هذه البيوت الأربعة كانت مصادفة سعيدة. تلك الغرفة الزجاجية ذات الدرجات الثلاث، التي لم أكن أنظر إليها وأعمل حسابها في الظلام وأنا خارج مخمور ومنتش من حواراتنا، ومتحسبا للاصطدام بتلك الدائرة من أخشاب المدافئ الرابضة على يسار الباب.

مضت شهور ثلاثة منذ مجيئي هنا ولم يتبق إلا شهر على المغادرة. كنت على وشك أن أنهي مسودة روايتي التي تدخل فيها الثورة بقوة الوجود وليس بقوة الفعل. لقد أخذت معي هذه الشهور

الأولى للثورة كجنين غير مكتمل النمو، وفتحت له زمنا جديدا داخل رحم هذا الريف الألماني كي يكتمل نموه. عملية تهجين ربما ستخلق كائنا مشوها، أو كائنا له صفات جديدة.

أحيانا كنت أدخن بالبيت، أو أخرج للفناء في الخارج أنظر لهذا الليل الأسود على الطرف الآخر، أو أجلس على تلك الدكة الخشبية بجوار «إستديو زوفنكو». عند خروج أحدنا، ليلا، كانت هناك خلية ضوئية لها صوت تكة مفتاح تغلق عندما نعبر أمامها، فيضاء نور الفناء بين شقفنا من تلقاء نفسه. كان جيرمان أكثرنا قلقا في الليل، أسمع صوت صعوده ونزوله على الدرج الخشبي ثم خروجه للفناء ومكوثه هناك ليدخن أو ليؤرجح قلقه. ربما كان يهرب من مطاردة الأرواح له، يأخذها لحيز مفتوح، كملاكم سابق، كي يختل توازن الخوف داخل الغرف المغلقة. أما ألجريد فلم يكن يأتي لهذا الفناء، كان يكتفي بعبور الممر المعشب الخلفي، أمام الإستديو الخاص به، باتجاه حمام السباحة الخشبي المهجور الذي جهزوه خصيصا لعلاج ساق صاحب نوبل كي يستعيد حيويته بالسباحة بعد إجرائه عملية جراحية في ساقه؛ على جانب البيت ومنه للمساحة الخضراء في طرف البيت الشمالي المتاخمة للأرض الخلاء. يجلس على صخرة عذابه المعشبة ومعه كأس النبيذ الكبير والغليون.

٣٣

أصبحت شجرة الكرز، في موسم إثمارها الوفير، قبلتنا كل صباح. يخرج «بي كاي» ومعه طبق كبير تحول مع الأيام إلى جردل بلاستيكي، ويعود لشقته وهو ملآن عن آخره. جيرمان يفعل الشيء نفسه، ربما تذكره بأشجار الفراولة المحرمة عليهم في المزارع الجماعية التي كان يعمل فيها مع عائلته، ولكن ليست عنده رغبة التخزين والخوف من الغد مثل «بي كاي». كان يأكل على الواقف كأنه يمز بجانب كأس بيرة أو نبيذ، ويتنقل من مكان لآخر مطاردا للثمار الناضجة ذات البريق الذي يشبه البريق الياقوتي. ربما لأنه يعرف بأن الشجرة موجودة في مكانها ولن تفرغ أبدا من الثمار. بالأمس رأيت ألجريد وجيرمان واقفين عند الشجرة، يتحدثان. كان جيرمان يلتقط حبات الثمار أثناء الحديث، ويأخذ دورات واسعة حتى يغطي قطر الشجرة الواسع بينما ألجريد يتبعه بالحديث وأمامه دخان غليونه. المشهد طريف للغاية، أشاهده من نافذتي التي تطل على الحديقة. يشير لي ألجريد من بعيد بغليونه بأن أخرج إليهما. الوقت الذي خرجا فيه كان استراحة قصيرة من المطر ثم عاد أشد قوة من الأول.

أقوم في الصباح وليس لي خطة سوى تحضير الإفطار والقهوة ثم الكتابة والتمشية والحديث مع زملائي، ثم إطعام الحصانين. يتوزع جهدي خلال اليوم بشكل متوازن، حتى الكتابة أصبحت لا تستهلك

جهدا كبيرا، مختلفا عن لحظات إعدادي لطعام الإفطار أو العشاء، أو التمشية. هناك طاقة هادئة تتخلل كل أداتي اليومية، حتى النوم لا أذهب إليه وأنا منهك تمامًا، أحمل بعض الطاقة التي تجعلني أتأرجح قليلا بين الأفكار والخيالات والأشباح قبل أن أستسلم له تمامًا.

دعاني ألجريد للتمشية. نادرا ما كنت أخرج مع ألجريد لانشغاله الدائم بالكتابة وشكواه من قسوة معاناته. لم يتبق له سوى بضعة أيام وينهي منحته، ويعود إلى بيته في هامبورج في حضن زوجته وابنته. ستنطبع صورة ألجريد في ذاكرتي، بغليونه، بملابسه السوداء وذقنه النابتة بشعيرات بيضاء وكأس النبيذ الأبيض أو الأحمر، الذي لا يفارقه. سرنا على الطريق العام الذي يؤدي إلى قرية أخرى بجوارنا اسمها «جاي».

سألني: هل تشعر بالوحدة في هذا المكان؟ «نعم أحيانا في الليل، ولكني عقدت اتفاقا مع نفسي قبل المجيء بأن أطيل زمن تحملي، لعل شيئا آخر يظهر وراء شعور الوحدة أو الملل. أعرف هذا جيدا، أن وحدتي ومللي هنا يسبحان فوق كنز من المشاعر لم أصل إليه بعد، مشاعر ذاتية خالية من الحنين أو الخوف. حتى ولو لم يظهر هذا الكنز، فسوف يلتحم شعور الوحدة بمكونات نفسي ويصبح أحد عناصرها الأليفة والتي لا تخشاها، ولا تريد الفرار منها». كان هذا ملخص إجابتي.

سألني بتردد عن الأصوات التي تتردد في الليل من حولنا. أحسست بأن جيرمان أخبره عن الحديث الذي دار بيني وبينه، وسؤالي هل الأدب الروسي ممسوس بالأشباح؟ أحسست من سؤاله المستفسر، أنه يكتب رواية تقع أحداثها في بيت في قرية

ألمانية هادئة، وهناك جار لبطل الرواية يحمل إيمانا مختلفا بالأشباح التي تطارد البطل. ربما كان ألجريد هو بطل روايته الجديدة، وربما كنت أنا جار هذا البطل الذي يحمل نظرة مختلفة عن الأشباح. لم أرد أن أغوص في التفسير أو الشرح. قلت له: إن تقاليدنا في الشرق لا تجعلنا نعطي كثيرا من الأهمية لهذا النموذج الروائي المثقف للأشباح. نحن من نؤمن بنموذج شعبي آخر وغير مثقف هو فصيلة العفاريت، التي نعرفها ونعيش مع غير المؤذي منها، بألفة في أفلامنا وحياتنا وبيوتنا وشوارعنا الخالية. شككت للحظة بأن يكون حديث ألجريد معي مباشرة عن الأشباح جاء بعد وقفته المطولة مع جيرمان حول شجرة الكرز. خمنت أن يكون جيرمان حفز ألجريد ليفتح معي الحديث ويرى موقع الأشباح في ثقافة مسلمة.

انحرفنا عن الطريق العام إلى الغابة الموازية. هناك كثير من الأغصان اليابسة التي تتهشم تحت أقدامنا وتصدر أصواتا حادة. بعد أن توغلنا تمامًا في الغابة قال وهو يشير إلى أحد الأركان: هنا مسرح لجريمة كاملة، انظر. كانت هناك بقعة خضراء خالية من الأشجار ومسلط عليها ضوء الشمس بعكس الدغل الكثيف الذي كنا نسير فيه منذ قليل. كان إحساسه بالموت هادئا ومنيرا وواضحا وغير مخادع أو مخاتل، فهذه البقعة التي تخيل حدوث جريمة قتل بها، هي أبعد مكان لمن يريد تنفيذ مثل هذه الجريمة، أن المجرم سيقوم بجريمته ليس وراء الأشجار، بل تحت بقعة الضوء وعلى هذه السجادة الخضراء الدائرية. إنه مجرم من نوع خاص مثل قابيل، يرتكب جريمته في أشد الأماكن وضوحا لأنه لم يعرف بأنها جريمة. بينما هو يقول لي «انظر»، كنت أرى جثة في هذا الطرف البعيد

لتلك المساحة الخضراء عند تماسها مع الغابة المحيطة بها. تذكرت على الفور فيلم «بلو أب» لأنطونيوني وتلك الجثة المختفية وراء الأعشاب بينما بطلا الفيلم يلعبان للتنس. تلك الجثة الأبدية التي تطارد إنسانا وحضارة من خلفه تشعر بالذنب على جريمتها التي اقترفتها بقصد أو بدون قصد، وخيط الدماء الذي ظل ينزف حتى ابيضَّ من النزف واختفى وراء الحضارة والطبيعة.

أكملنا سيرنا لتلك القرية، التي دخلناها من طريق خلفي مختصر، مثل باب الخدم، من خلال هذا الدغل الكثيف للأشجار. طوال سيرنا كنا نخبط برءوسنا أفرع أشجار يابسة أو خضراء، بعضها كان لأشجار الكرز التي توقفنا أمامها أيضًا وأخذنا نلتقط حباتها الحمراء والبمبي. لم نصادف بني آدميين داخل القرية. شاهدنا مزرعة حيوانات وبعض الجواميس الضخمة داخل مربع محاط بالخشب، ومثبت بأثدائها أقماع حلب اللبن. مررنا بشارع رئيسي به عدد من الفيلات الصغيرة، لا تسمع فيه أي صوت ولم نر فيه أي إنسان. كان هذا المناخ الخالي من الناس، والذي أصفه بمناخ الاستجمام؛ هو ما يثير ألجريد، ويعتبره مناخا مهيئا للقتل ولظهور جثة غير متوقعة. فوراء هذا المناخ الهادئ «هناك جرح ينزف في مكان ما».

أراد ألجريد أن يخصني بتمشية الوداع هذه، فكما بدأنا تعارفنا برحلة لمركز كرويتساو المجاور لقريتنا، أراد أن يختتم صداقتنا بهذه الرحلة التي استغرقت ساعتين ذهابا وعودة، مررنا فيها على القلب المذنب للقرية وعلى تلك الجثة المفترضة التي تسكن داخل الغابة، على قلب الثقافة الأوربية بشكل عام، كما فسرها المخرج الإيطالي الكبير «مايكل أنجلو أنطونيوني».

٣٤

اجتمعنا، بي كاي وجيرمان وأنا، لنودع ألجريد، الذي تقرر سفره بعد يومين. ثم انضمت لنا زيليكا بعدها. لم يعد لزيليكا حضور مكثف في البيت، كما كان في بداية حضوري، اللهم إلا في واجب التسوق يوم الجمعة، بعد أن سقطت دروس اللغة الألمانية في الطريق؛ أو في مثل هذه الوداعات. لقد احترفتْ زيليكا حضور الوداعات حتى صار واجبا لا يحرك مشاعرها. لقد فقدت الأمل تمامًا في ديوك البيت المأساويين. جلسنا في البداية تحت شجرة الكرز. دقائق وهبط علينا مستر ديتيليف، فقد أرسلته، كما ذكر لنا بكل براءة طفل صغير، مسز لودفيج ليستطلع أخبار القادم الصيني الجديد «بي كاي»، فقد شاهدته بنظارتها المكبرة من نافذة بيتها. تواطأنا جميعا على «بي كاي»، ولم نخبره بميول مستر ديتيليف الجنسية، والذي اختار المقعد المجاور لـ«بي كاي» ولم يتركه يفلت منه للحظة. لحظات وجاءت أمه التي لم يطل صبرها، وسمعنا صوت عصاتها الطبية على أسفلت الشارع قبل أن تظهر على باب الحديقة، مثل دقات المسرح الثلاث.

كنا جميعا نشرب الشاي السحري تحت شجرة الكرز. اختار مستر ديتيليف مكانه بجوار الفريسة الجديدة، بعد أن نحّى زيليكا التي كانت تجلس بجواره. كتمت زيليكا ضحكتها لسلوك مواطنها الغريزي، ولكنها أظهرتها لنا كأنها تتنصل من هذه المواطنة في هذا الموقف. حمل مستر ديتيليف معه كالعادة ألبومات صوره التي يستدرج بها

الضيف للحوار. كان الجو عاصفا بالخارج، وطارت بعض الصور على الأرض الطينية. سارعا، بي كاي وديتيليف، لينقذاها. تعثر بي كاي من سرعة قفزته، وكان ديتيليف يتتبع حركة جسده، فانكفأ عليه وغاصا الاثنان على جزء طيني مشبع بالمياه وسط النجيل. كان مشهدا مركبا لم يستدع الضحك، بل الشفقة.

اعتذر بي كاي وطلب الانصراف لدقائق كي يغسل يده ويغير بنطلونه الأبيض. انصرف ووراءه مستر ديتيليف، بينما أمه ترمقه بغضب وتوجه له حوارا بالألمانية، ضحكت على إثره زيليكا. شعر بي كاي بالحرج من تتبع ديتيليف له باتجاه شقته، فأفسح له مكانا بجواره كي يمر ويسبقه. ثوان من سوء التفاهم والنيات المتعارضة والحوار الصامت. فطن ديتيليف لما يرمي إليه بي كاي، وربما قال إن الفرصة ما زالت سانحة في مقبل الأيام، وما زلنا في الصفحة الأولى، فآثر السلامة واستأذن في الذهاب لبيتهم المجاور ليغسل يده ويبدل بنطلونه ثم يعود.

كنت أستغرب سطوة الأم وابنها على ضيوف البيت. لم يغلق أحدنا في وجهيهما الباب. وأيضا كل من سبقونا من الكتاب لم يجرؤ أحدهم على وقف هذا المد المتشكك والمثلية العاطلة. أصبحا كالقدر الذي يجب أن تسلم له ولا تعارضه. حتى القيمون على المؤسسة الثقافية لم يبادروا بمنع الأم وابنها من الدخول. صارت صداقتهما القديمة لصاحب نوبل جواز مرور في أي وقت وتحت أي ظروف لعالمه. صار البيت وحكاياته وضيوفه ممتلكات شخصية للأم وابنها، ولا يمكن لأحد أن يحول بينهما وبين هذه الملكية. ربما أيضًا أصبحا، بالنسبة لضيوف البيت من الكتاب والروائيين، مادة غنية لنسج حكاية غرائبية وروايات في هذه القرية البعيدة.

كانت خيوط الحكايات تتضاعف داخل المكان، محبوكة وجاهزة للعرض أمام أي وافد جديد: حكاية هذه السيدة وابنها، وحكاية الكاتب الصيني الذي كان يعيش قبلي في هذا المكان وانتحر بعد قصة حب طويلة، وحكاية الأرواح التي يسمع ألجريد وجيرمان أصواتها في الليل، وحكاية هذا الفلاح العجوز النادر الذي يأتي في الصباح مع كلبه الأبيض ليجني جزءا من محصول شجرة الكرز، وحكاية الحصانين في الأرض المجاورة، وحكاية الكاتب الكولومبي الذي حكت لي عنه زيجرون المسئولة في المؤسسة المانحة، الذي كان يسكر يوميا، وأثناء سيره في الحديقة تعثر بسلالم غرفة الشمس الزجاجية، بعد غياب الشمس، ووقع على الأرض وكسرت ساقه، وفي إثناء إقامته في المستشفى كتب ديوانا كاملا عن السير المخمور الذي كان يفضله. سماه بهذا الاسم الجميل «السير المخمور» قريب الشبه من اسم قصيدة لرامبو: «المركب السكران». سواء السير على الأرض أو في البحر، هناك إيقاع خاص لا يتم اكتشافه إلا بالسكر النفسي والروحي.

بالإضافة لحكاية صاحب البيت أديب نوبل هاينريش بُل، وروحه التي أشعر بها تتجول ليلا لترعى هذه الصحبة الأدبية وتطمئن عليها، وربما تراجع أعمالها المكتوبة والمنشورة في اللابتوب أو على قصاصات صغيرة، أو في أجندات، وتستلهم منها، في مرقدها الأخير، مادة خصبة لروايات جديدة. هذه المرة لن تكون رواياته بعد الموت، عن ألمانيا بعد الحرب وسنوات الجوع، بل عن ألمانيا المرفهة وسنوات التخمة النفسية.

وأيضا هناك حكاية دجاجات ريناتا الثلاث، واستعمارهن لأرض

الحديقة فترة ما بعد الظهر، والمجاز الذي شغلنه بصفتهن ثلاث فتيات مسحورات داخل صورة دجاجة، ولا يمكن لأحدنا من أن يرد إحداهن لو طلبت طعاما أو دخلت البيت عنوة وجلست على أي من المقاعد. وحكاية زيليكا ووحدتها الخالدة ومثلث ثديها المكشوف على الدوام، الذي شغل وسيشغل، حيرة كثير من الكتّاب، وهل هو مثلث برمودا، كل من سيبحر فيه سيصاب بالأعاصير والموت غرقا؟ أم هو حبل نجاة أخير قبل أن ترسو سفينة العمر على الجانب الهادئ من الحياة، الخالي من الأعاصير.

وأخيرا هناك حكايتي، عندما ستندلع النار في مطبخي وأنقل للمستشفى ليلا إثر حرق من الدرجة الثانية سيصيب يدي اليمنى.

أفقت من خيالاتي على صوت ألجريد يحادث زيليكا حديثا مطولا بالألمانية التي يجيدها، أما جيرمان، فقد كان يبدو مُثارا جدًّا وطفوليا في حركاته. فأحيانا كان يترك المقعد ويذهب حيث مساحة النجيل الخضراء التي تغطيها طبقة من ضوء الشمس، ويجلس عليه ويتقلب، ثم يقف على جذع شجرة مقطوع بجوارها، ويحاول أن يحفظ توازنه فاردا جناحيه كأنه يسير على حبل مشدود على ارتفاع عال، ثم يدور حولنا ليلتقط حبات الكرز من الشجرة ويأكل باستمتاع كأنه آدم في الجنة يتذوق الفاكهة للمرة الأولى. وأحيانا كان يذهب لطرف الحديقة حيث التمثال الخشبي المنحوت على شكل جسد امرأة، ويمكن أيضًا أن نراه كصليب، ويصعد على قاعدته ويحتضنه، كأنه يحتضن صليبا على شكل بروزات لجسد امرأة.

خمنت للحظة أنه يشعر بالغيرة من استئثار ألجريد بالحديث مع زيليكا، والتي يبدو أنها كانت تمد فيه لتثير جيرمان أيضًا، هذا المكتئب

الذي لا يقول لها شيئا سوى «أنت ملكة بيت هاينريش بُل». كانت هناك خطوط متقاطعة عديدة داخل الجلسة، سببت حدوث هذه الكتل النفسية المتجلطة التي سدت طريق سريان الدفء والمشاعر.

جلست أتأمل كل ما يحدث. وأحيانا أعطي أذني لحديث مستر ديتيليف مع بي كاي، وأتتبع نفس الخطوات التي اتبعها معي في تعريفه بنفسه، واستعراض غزارة معلوماته، ثم وصل للنقطة التي يعرفها جميعنا، بعثوره في الإنترنت على موقع تابع للمخابرات الأمريكية به أرشيف عالمي، يمكن من خلاله الاطلاع على أي وثيقة مهمة. وكان قد وعدني، ووعد من قبلي كل الضيوف الذين مروا بهذا البيت، بأن يأتي ذات صباح ليجلس معنا ويعطينا درسا في كيفية الدخول على هذا الأرشيف الكوني، والذي هو وحده يعرف أسراره. ولو عرفنا نحن هذه الأسرار لتغيرت حياتنا وذهبنا إلى بلداننا وجلسنا خلف جدران خرسانية، محتضنين أحبائنا ومنتظرين نهاية العالم. كان بي كاي ينظر لمستر ديتيليف بانبهار لغزارة معلوماته ولاهتماهه غير المتوقع به، ولصوره الأثرة، جلس أمامه عاقدا ذراعيه ومنصتا كجلوسه أمام أحد معلمي البوذا.

«بي كاي» له حس طفولي، ضحكته، حركاته السريعة، انفراجة يديه وتطويحها عند السير كشخص غير عابئ بأي شيء حوله يحوز مساحة مضاعفة من الفضاء. له مرونة في جسده تجعله يقفز في حركته وكلامه. له ضحكة لا تتصل مباشرة بالقلب، لها فقط مسام ابتسامة واسعة، كأن وجهه جاهز في كل لحظة لتأدية هذا الواجب السريع. ونحن جالسون تحت الشجرة، استأذن من مستر ديتيليف، الذي كان يهمس له في أذنه، وتسلق شجرة الكرز وتوغل حول

أغصانها ليصل إلى أعلى نقطة فيها ليأتي بحبات الثمار الناضجة ذات اللون الأحمر القاني، ووضعها أمامنا على الترابيزة.

وضع ألجريد زجاجة الفودكا أمامه، وأتى بفطائر «البليني» الساخنة، ووضعها أمامنا، بجانب شرائح السمك المدخن والديك الرومي. أحسست بالبرودة فطلبت منهم الدخول للغرفة الزجاجية. استأذن مستر ديتيليف وأمه وقاما سريعا، وكذلك استأذنت زيليكا بعد أن سلمت على ألجريد الذي أصر على اصطحابها لباب السيارة إكراما لحضورها ووداعها له. حملتُ الزجاجات وباقي الأطعمة والأطباق مع بي كاي وجيرمان لـ«غرفة الشمس» ولحقنا ألجريد وحمل معه زجاجة الفودكا التي كان قد أتى على نصفها تقريبا. كان يشرب بمعدل زائد عن أي يوم.

بمجرد دخولنا سرى الدفء في عروقي، واستردت بعضا من نشاطي وحيويتي. أصبحنا أربعة، كل منا له جنسية مختلفة. يبدو أن هذا العدد المتكافئ دائمًا ما ينذر بعواقب وخيمة، أو بقوة متعادلة تبحث عن نقطة الضعف، في هذا المربع البشري، لتقلب المعادلة. كانت بعض المناوشات قد بدأت ونحن جالسون تحت الشجرة عندما أخطأ «بي كاي» وهو يتحدث لألجريد وسأله مستفسرا: «أنت روسي؟». لا أعرف بالضبط سياق الحديث الذي أتى بهذه الكلمة التي تعتبر مفتاح الحزن والاستثارة لألجريد. لم يتقبل ألجريد هذه الإهانة من "بي كاي"، ورفع إبهامه المخمور في وجه "بي كاي"، الذي يجلس على الناحية الأخرى من الترابيزة، محذرا : «أنا من بيلا روسيا، وليس من روسيا». لم تكن لهجته عدائية صرفة، فقد

راعى أنها المرة الأولى التي يتحدث معه بي كاي وجها لوجه، ولكن كانت اللهجة مثل جرس إنذار مبكر.

بالنسبة لـ«بي كاي» «بيلا روسيا» لا تقع أصلا على خريطة عالمه الذي يعرفه. فتعداد سكانها يبلغ عشرة ملايين نسمة، بينما تعداد سكان بلده يبلغ مليار ونصف المليار، وربما أكثر. كان «بي كاي» أكثرنا رأسمالية وثراء من ناحية تعداد سكان البلد الذي أتى منه، وكان أفقرنا من ناحية حجم «الإيجو»، الذي يتناسب عكسيا مع هذه المليارات. فكلما زاد العدد، قل حجم «الإيجو» وانسحق أمام هذا الرقم المهول. وكلما قل العدد، زاد حجم «الإيجو» وتضخم إلى أن نصل لبلد الساكن الواحد والتي يشغلها «إيجو» واحد بحجم بلد كامل. في الغربة أحيانا نكون هذا الساكن الوحيد لهذا البلد الغائب، ذا «الإيجو» المتضخم.

يتعقد الحديث، فيسأل بي كاي ألجريد عن تعداد سكان بيلا روسيا. فيُثار ألجريد جدًّا، ويقول له بأن هذا السؤال لا محل له في الحديث، ويثبت بشتى الطرق أن سائله له نظرة عنصرية أو إمبريالية للشعوب. «ولكننا أمة»، كانت هذه صيحة ألجريد أمام عشرات الملايين والمليارات المتدفقة أمامه! كأن السؤال له بعد طبقي، كم تملك أو كم رصيدك في البنك؟ سؤال يشي بالمنافسة والاستفزاز والتنابذ.

بالتأكيد لم يكن «بي كاي» هو المقصود بغضب ألجريد، وإنما جيرمان المنافس الحقيقي لألجريد، كان هو المقصود. هذا الشيشاني المتنصل من «شيشانيته»، ومن تعداد يتجاوز بقليل المليون نسمة، والذي التحق بروسيا هربا من مصير «أمة مزيفة»، كما يقول. أصبح

بي كاي ومليArاراته قناعا ملائما، ليصب عليه ألجريد جام غضبه، فالصين ليست فقط دولة كبيرة، بل أيضًا دولة ديكتاتورية، وهو الهدف الذي رسخ له ألجريد حياته، أن يحارب الديكتاتورية، سواء ديكتاتورية الكثرة، أو الحكومات.. سيان.

أصبح الصراع معلنا بين جيرمان وألجريد. جيرمان كالعادة استفز ألجريد قائلا بأن «بيلا روسيا» لا تعتبر دولة إلا في وجود الاتحاد السوفيتي، وأن انفصالها عنها قد أضعفها، وكان الأولى أن لا تطلب هذه الدولة الصغيرة استقلالها. هنا ثارت ثائرة ألجريد وبدأ يقوم من كرسيه ويصيح، بعد أن لعبت الفودكا برأسه تمامًا، وهو لا ينظر لأحد: «أن هذا الكلام هو عين الإمبريالية، وأنه يكره روسيا هذه الدولة الإمبريالية، التي أذلت شعبه الضعيف وحاولت أن تطمس ثقافته ولغته الخاصة، وأنه لا يحب في هذه الدولة المتجبرة سوى شخصين، ديستويفسكي وجيرمان!».

جيرمان كان يضحك في سره، وشعر في قرارة نفسه بأنه يمثل الدولة الأقوى الآن، وأنه متفوق في هذا الصراع، بحكم شيء لم يكن له فضل فيه، بأنه أتى من بلد قوي، أو تبنيه لجنسية جديدة قوية؛ لذا لا يشعر بعقدة اضطهاد، أو ربما يشعر بها ويخفيها، أو له القدرة على أن ينساها. هذه العقدة التي كانت تعري نفسية ألجريد بشكل فاضح للعيان. ولكنه، رغم هذا التفوق، لم يحب أن يستمر هذا الصراع خصوصا في وجودنا، كأنها أيضًا قضية شخصية يجب ألا تطرح على أغراب! فتكلم مع ألجريد باللغة الروسية ثم استأذن وانصرف. كان ألجريد على وشك أن ينهي زجاجة الفودكا، وعندما

قام من كرسيه ليسلم على جيرمان كان يترنح، وكاد أن يقع بالترابيزة الدائرية التي نجلس حولها.

خلال حديثه مع جيرمان حاول ألجريد أن يضمني إلى صفه. كان يستدل دائمًا بمصر كدولة وكأمة وقعت لزمن طويل تحت الاستعمار، ولكنها لها حضارة عريقة علمت العالم، وقام كذلك شعبها بثورة حديثة ضد الديكتاتورية. عندها قام ليجلس بجواري على ترابيزة قمار الجنسيات التي نجلس عليها، في مواجهة المليارات من البشر التي يمثلها جيرمان، ويي كاي في الناحية الأخرى. كان يصيح: «My Nation My Nation»، ليس فقط بلده بل بيته الذي فقده ولم يعد له. كان وراء صياحه عاطفة اضطهاد قوية، وذنب أنه ترك هذا الوطن وهذه الأمة وهي في أضعف حالاتها، تواجه ديكتاتورا، وهاجر إلى ألمانيا.

تجمعك علاقة بعدوك القديم، وتظل العلاقة مستمرة بينكما بقوة هذا العداء القديم، لأن لا وجود لك في غياب هذا العداء، أو عقدة الاضطهاد.. ربما.

اعتذار جيرمان عن استكمال السهرة، وخروجه من الحلبة مبكرا، جعل ألجريد يسقط كالطير الجريح. لم يجد أحدا أمامه يكيل له السباب، أو ليناصبه العداء، أو يسقط تحت هيكله صريعا. فتحول غضبه ناحيتي أنا ويي كاي، وأخذ يتهمنا علانية بالصمت أمام جيرمان، كيف يا ألجريد؟ لأننا لم نقل له إن روسيا بلد استعماري وإمبريالي، وإنها دولة ديكتاتورية يجب أن نقف أمامها، ونقف أمام كل الديكتاتوريات في العالم. قلت له إن روسيا ومشكلاتها وعيوبها ليست على خريطتي أصلا، وإن جيرمان ليس هو ممثل روسيا في

هذه الجلسة. كان ألجريد عندما يتحدث مع يي كاي، تشعر بأنه يتحدث للشعب الذي يقف وراء يي كاي، فأخذ يذكره بمعاناة شعب التبت أمام الحكم الديكتاتوري في الصين. وعندها غلطت غلطة عمري وسألت «يي كاي» عن تعداد شعب التبت أو تايوان المنفصلة عن الصين، أو هونج كونج. وكانت غلطة لن يغفرها لي ألجريد أبدا، الذي قال بأنني أتحدث بنفس منطق الإمبرياليين، منطق الكم وليس الكيف!

قام ألجريد ملدوغا من كرسيه، وكاد أن يسقط مرة أخرى، وقال لي: لماذا تسأل عن العدد؟ المهم أنهم «أمة» لها لغة مشتركة وتاريخ مشترك. ثم أضاف بقوة «أنت أيضًا إمبريالي». يي كاي كانت عينه على زجاجة الفودكا في يد ألجريد ومعدل نفادها السريع. كان مستغربا بأن أحدا يمكنه أن يشرب زجاجة فودكا في جلسة واحدة. وها هي ذي المعجزة تتحقق أمامه. لم يقدر على مجاراة ألجريد فاعتذر بالذهاب لأخذ حمام ساخن. بدأت أشفق على ألجريد ولم أشأ أن أتركه وحيدا وهو في تلك الحالة العدائية. كان يحاول التماسك والدخول في موضوعات لها ظاهر عقلاني، ولكنها كانت تثبت أكثر مدى تورطه مع نفسه في تلك اللحظة. كان يرى نفسه بوضوح، ويرى أيضًا صورته في عيني، فحاول محاولة أخيرة أن يسلط أضواء وانعكاسات أخرى على هذه الصورة المهزوزة.

كان على وشك الانهيار التام، ولكنه كان يريد أن يعتذر عن إساءته لي بأي شكل. أخذ يتحدث عن أننا عالم واحد لا فرق فيه بين لون أو جنسية. الخمر دائمًا ما تسحب النفس تجاه مناطق

اللاتكافؤ مع الآخرين. ربما في هذه اللحظة لم أكن أنا من يتحدث إليه، بل كل الأشباح الذين تجسدوا في أناس سببوا له آلاما مباشرة أو غير مباشرة. الأشباح الذين جاءوا من الكتب ومن الحياة. ثم انتقل للحديث عن الحضارة المصرية، إرضاء لي، بينما أحاول بشتى الطرق أن أريحه، ولا أظهر أمامه أي إحساس، ولو من بعيد، باني أرى صورته بوضوح، بل سرت مع انعكاساته الضوئية، التي كان يسلطها على تلك الصورة.

في اليوم التالي مباشرة، عشنا نفس الموقف بطريقة أخرى، ذلك الخط الفاصل بين الجنسيات، وكأنه يطاردنا. كنت قد اتفقت مع جيرمان وبي كاي بأن نذهب لمدينة آخن، التي تبعد حوالي نصف ساعة بالقطار. بينما اعتذر ألجريد لانشغاله وتجهيزه لحقيبة السفر، ولأسباب أخرى، ربما أهمها ليلة الأمس التي لن تمحى من ذاكرته بسهولة. جلسنا نتناول الطعام التركي في إحدى الحدائق العامة لمدينة آخن. كان هناك شبان وشابات من كل الأعمار، أخذنا موقعنا على السلالم المدرجة التي تتخلل الحديقة. دقائق وجاءت رحلة مدرسية فرنسية من تلامذة الإعدادي. لفتتْ نظر جيرمان ملاحظة استغربتها جدًّا، قال هناك تداخل بين السود والبيض لا تعرف نهايته، ثم أنهى ملاحظته بهذا التصريح «أوربا ستتحول لقارة سوداء». سألته لماذا يركز على هذا؟ كان هناك تلميذان فقط لون بشرتهما أسود، لم يلحظ سواهما وسط العشرات من التلاميذ البيض! فطن جيرمان لما أرمي إليه من وراء سؤالي، فقد كان حوار الأمس ما زال مستيقظا. قال: أنا لا أقصد أي تمييز عنصري في اللون، ولكن سيحدث اختلاط، وكل جنس سيفقد هويته وخصوصيته! يقصد أن كل جنس، حفاظا على

نقائه، يجب أن يركب قطار جنسه الجيني، ويذهب به إلى حتفه وهو فرح بأن أحدا لم يركب معه.

بدأت أتذكر من جديد حديث ألجريد الذي ما زال طازجا في ذاكرتي عن جيرمان، ومدى عنصرية واستعمارية نظرته، ثم تذكرت حديثه مع هافا حول مصطلحي: «نجرو» و«جاست أربايتر» أو «العامل الضيف»، العنصريين. صدقت أن جيرمان يحمل هذه البذور، ليس كمواطن روسي سان بطرسبرجي، بل كمواطن «بيني»، يقف بين الشيشان وروسيا، ويريد أن يحل هذا التناقض بانحيازه بكليته وببشرته الشقراء ناحية روسيا غير المسلمة. أشعر بدين لم أسدده لألجريد، ربما خذلته بالفعل أمام جيرمان.

٣٥

بينما أنا جالس مستسلما لإحدى أغنيات الشيخ إمام «أنا أتوب عن حبك أنا» التي صاحبتني كثيرا، سارحا في ملكوت انسجامي الهش، مع نفسي والمكان، سمعت وقع أقدام بالخارج، توقعت قدوم «بي كاي» للجلوس معي كعادته في المساء، وطالبا تفسيرا لتلك الصراعات الخفية التي تفجرت في حوارات الأيام السابقة. صحب بي كاي معه علبة معدنية بها إحدى الحلويات الصينية، كان لها مذاق مثل الهريسة ولكن بسكر أقل. تعامل بي كاي مع رحلته كأنه مسافر في مهمة رسمية للبلد، ويجب أن يحمل الهدايا التي سيوزعها على الضيوف، لم ينقص سوى أن يحمل أعلاما صغيرة لبلده، الذي لا يشك في ديكتاتوريته، يتبادلها مع الآخرين. كان بي كاي أقلنا إحساسا بالوطن، و«بالإيجو الوطني» أو بالحنين إليه، أو حتى بالاغتراب، أو كل تلك المفردات. تشعر بأنه بهذا العدد الضخم الذي لا يحصى لمواطني بلده، قطع خيط الحنين تمامًا بينه وبين وطنه. لم ألحظ عليه اهتمامه بالكتابة مثل الآخرين. كانت صومعته مثقوبة باستمرار، يخرج ويدخل فيها عدة مرات في اليوم. أحسست أنه جاء هنا للاستمتاع والفسحة وليس للكتابة. عندما أستيقظ في السابعة أو الثامنة أشاهده عائدا من رحلته بالدراجة من إحدى استكشافاته اليومية. يسيح في القرية والقرى المجاورة يستكشف بسرعة الدراجة ما استكشفته من

قبل بالسير المتمهل، وربما يصل لنقاط جديدة كان من الصعب عليَّ الوصول إليها سيرا على الأقدام.

كان يحمل معه كمية لا بأس بها من الشاي الصيني، والذي له تقدير في الغرب كالديانة البوذية واليوجا، يجهزه لهؤلاء الذين سوف يقابلهم في منحة الكتابة. جمعتنا طقوس هذا الشاي الروحي: ألجريد وجيرمان وزيجرون وأنا وزيليكا ويي كاي عدة مرات، قبل أن يتفرق كل منا في طريق. ونحن جالسون تحت شجرة الكرز نتبادل الشاي مع النبيذ والسجائر. يحمل الشاي نكهة متسامية كإنسان نيتشه الأعلى الذي ينمو بقوة في الأعالي، واختياره لهذه العزلة الجبلية لينمو فيها، وقوة مقاومته لهذه الظروف.

كل صباح كان «يي كاي» يوزع عليّ محصول شجرة الكرز. يملأ جردلا كاملا منه ويوزع علي رواد البيت أنصبتهم واحدا واحدا. كان يتحدث عن سعره المرتفع في الصين، ويحاول أن يأكل منه ما يكفي لشبع سنوات قادمة كي لا تحن نفسه مرة أخرى لهذه الفاكهة غالية الثمن. كانت الشجرة متاحة لأهل القرية، خصوصا ذلك الفلاح الذي يسكن بالجوار، يأتي مع كلبه في الصباح الباكر ويقطف من الشجرة كيفما يشاء ويخرج بحصيلة له ولعائلته، وأحيانا يعرج على شجرة الكمثرى التي تغطي سور البوابة، أو على شجرة التفاح التي تقع في نهاية الحديقة بجوار شجرة الكرز. ثمار الأرض للجميع، والبيت الذي نسكنه هو محطة يعبر بها أهل القرية، أغلبهم من البسطاء. ربما كانت هذه المساواة أحد أمنيات صاحب نوبل في حياته، أن يجعل من حديقة بيته وأفكاره ورواياته؛ جنة للجميع.

كان الاتصال مع «بي كاي» بسيطا والحوارات غير معقدة ولا تتضمن أي أفكار عميقة. ليس معنى هذا أنه كان سطحيا، ولكنه لم يحتاج لمجهود، كما حدث مع الآخرين خصوصا جيرمان وألجريد. أغلب أحاديثنا كانت تدور حول قمع السلطة في الصين، في تلك المساحة التي تتواجد فيها السلطة المرئية، وليست اللامرئية، كما حدث في نقاشاتي مع ألجريد وجيرمان. لم تكن كسلطة المزارع الجماعية وقتل «الفردية» التي تحدث عنها جيرمان، ولا سلطة الرئيس لوكاشينكو رئيس بيلا روسيا في كلام ألجريد. إنها سلطة أكثر تجريدا وقمعا ولا يمكن تحويلها لكلام أو لرموز كما في مجسمات ماكيتات سلطات أوربا الشرقية. إنها سلطة متشعبة ومستعرضة في كل جوانب الحياة اليومية. ربما أحاديثنا طال زمن استغراقها في تشعب الحياة اليومية دون الوصول للرموز.

كل نزهاتنا، أنا و«بي كاي»، كانت صامتة، تتخللها انكبابه على إحدى الأشجار ليلتقط إحدى ثمارها، أو التقاطه زهرة أحد المحاصيل التي كنا نصادفها في الطريق. ربما رمزية اسمه «ورقة الشجر المتفتحة» لها علاقة بانجذابه لكل ما هو أخضر ومزهر. كإنسان فضائي ينزل الأرض للمرة الأولى؛ كان يمسح بعينه الضيقة كل تفاصيل المشهد ليترجمه بعد ذلك على مهل. فهو غير مطالب بأن يقدم أي رد فعل تجاه كل ما يحدث ويتحرك حوله. ذهبنا سيرا على الأقدام باتجاه كرويتساو، وركبنا القطار لمحطة دورن، ومنها لكولون، كنت أرسم معه نفس الخريطة التي سيسير عليها هو وزوجته وابنته عند قدومهما، كما رسمها معي زوفنكو.

كنا، أنا وبي كاي، ومن قبله زوفنكو، نسير في صحبة زوجتينا،

حتى ولو كنا منفردين. بعكس صحبتي مع ألجريد وجيرمان، اللذين كانا يفرضان صحبة وجودية نافذة، لا مكان فيه لآخر مهما كان، حتى ولو تكلما بحب ووله عن زوجتيهما ومدى حبهما لهما. إنه حب مثل حب أبطال ديستويفسكي، به مس من الاستحالة والتجرد المثالي، كأنه صراع أبدي مع النفس. كنت أسير معهما والثالث كان هذا الكاتب المعذب الذي يشقى من أجل «الكلمة». هذه «الكلمة» كانت تتقافز كعصفور فوق رءوسنا أثناء السير ونتبادل استراحاته وأحلامه ودخان سجائره. لم يكن هناك شيء يمكن أن يشوشر على وحدتهما المقدسة، ولا على اكتئابهما الروسي الأصيل. كانا شبيهين، ومن أمة واحدة، حتى ولو كان لهذه الأمة اسمان مختلفان.

٣٦

عند سفر ألجريد حدث ما لم أكن أتوقعه. فقد كان يريد السفر بدون أن يودعنا. صحوت فجأة في الثامنة فوجدت بابه مفتوحا عن آخره، كأبواب البيوت المهجورة. خفت أن يكون قد سافر. طرقت بلهفة على الزجاج، فخرج من الداخل وهو يحمل الحقيبة الكبيرة، فقد كان التاكسي يقف على الباب. اكتفى بحفل الوداع الذي أقمناه له منذ يومين بديلا عن وداع اللحظة الأخيرة المرهقة. استيقظ «بي كاي» سريعا على صوت الجلبة، وحمل مع ألجريد حقائبه للتاكسي المنتظر. قبَّل كلا منا، ووقف قبل دخوله التاكسي ملوحا بأداء مسرحي مهزوم كأنه سيسدل بعدها الستار على حياته: «شكرا لكم». بينما التاكسي يتحرك ظهر جيرمان في اللحظة الأخيرة، عبَّ الخطى لباب الحديقة، ولم يلمس من ألجريد سوى أطراف أصابعه التي مدها من الشباك المفتوح، ولكنه لم يوقف التاكسي.

وجدت أمام باب شقتي الخلفي المطل على ممر الدجاج رسالته الأخيرة، لم ألحظها في البداية، عبارة عن كيس ورقى أصفر كبير من أكياس الشراء منتفخ عن آخره. كانت إحدى الدجاجات تحاول نبشه. تلك الرسالة التي يتركها الضيف المسافر للضيف المقيم. رسالة بسيطة ولكنها محملة بالمعاني. فتحت الكيس.. وجدت زجاجة زيت زيتون، وزجاجة خل، وكيس مكرونة، وكرتونة بيض صغيرة،

وعلبة ملح، وغيرها من الأشياء الصغيرة اليومية، ومعها غليون جديد في جراب قطيفة. شكرا ألجريد، ولكني لن أعيش تحت هذه السحب البيضاء الملبدة من دخان الغليون.

تركت ورائي العديد من هذه الأكياس الورقية الصفراء الأنيقة والتي لها يد مصنوعة من الدوبار. هذا الإحساس اليدوي كان يحفزني على الاحتفاظ بها، وعدم التفريط فيها، لذا تركت العديد منها للزائر الذي سيأتي ورائي ويصبح هو ساكن هذه الشقة، وستؤرقه روحي، وأشباحي وأفكاري التي ترددت بين جنبات هذه الشقة، والثورة التي جئت بها، ورسيت على ضفاف تحولاتها، والآثار التي تركتها هذه التحولات المبكرة على جدران هذه الشقة، حتى يكتشف، هذا الزائر، خريطة ومعالم هذا الشبح الذي كنت أعيش داخله. أي كيس كنت أخزنه دخل دولاب المطبخ بجوار المدفأة، كأني أضع رصيدا في البنك لهذا الزائر القادم.

مساء سفر ألجريد خرجت مع «بي كاي»، ولكن بروح كابية قليلا، فالجماعة آخذة في التحلل، الناموس الرباعي لكون نُزل هاينريش بُل: زوفنكو رحل، وها هو ذا ألجريد قد سافر، وبعد أيام سيسافر جيرمان ولا يبقى سواي، لأن بي كاي ينتمي لدورة أخرى مستقبلية من دورات البيت، سيكون هو راويها المنتظر. شعرت بأن سفر ألجريد نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة، لن أطول منها الكثير.

أخذنا دورتنا حول القرية. كان بي كاي مستغربا مثلي، عندما سرت في القرية للمرة الأولى، عن هذه القرية التي نسير فيها ومساحات الخضرة المزروعة وحقول القمح، ولكن لا يوجد بها فلاحون! أين

الفلاحون؟ من يزرع هذه الأرض؟ هل يأتيها فلاحون من السماء؟
هل تزرعها الأشباح؟ ربما الفلاحون في مخيلتنا مرتبطون بالفقر
والملابس الرثة وعلامات التعب البادية عليهم وعلى حياتهم
وبيوتهم، وأصابعهم المشققة وأظافرهم التي سكن بها الطين. كل
هذه التوقعات خابت مع هذه النسخ الجديدة من الزراعة التي لا
تحتاج لفلاحين بالشكل الذي نعرفه وعهدناه في بلادنا، وهو الشكل
الذي خلق أغاني الحصاد، وجعل من الفلاح رمزا الحياة مستمرة لأنه
يمنحها النور بتعبه وشقائه في الأرض، هو «السراج الضعيف الساهر»
كما يلقبه ابن خلدون. هذا الضوء الخافت الساهر على ليل البشرية
مصدره قلب ويد وإحساس هذا الفلاح.

في اليوم التالي لسفر ألجريد، سافر جيرمان للإسكندرية في مهمة
رسمية بمناسبة مرور مائة وخمسين عاما على تأسيس المركز الثقافي
الروسي هناك. رحلة استغرقت خمسة أيام. كنت متشوقا لأسمع رأيه
عن زيارته. خشيت أن يعود بنفس الحكاية القديمة عندما التقى هناك
بفتاة قبطية صغيرة السن ولكنها ذكية للغاية، كالتي قابلها من قبل
في شرم الشيخ. استعددت لكل الاحتمالات. حكى لي أنه عندما
سار على كورنيش الإسكندرية تذكر حلمه القديم بشاطئ طويل
تتراص أمامه بيوت لها شكل معين. قال إنه زار مدنا كثيرة بحرية،
ولكنه لم يعثر على مدينة الحلم الذي حلمه. ولكنه عندما وصل إلى
الإسكندرية قال «هذه مدينة حلمي». سار فيها على خريطة حلمه
القديم، شارع يسلمه لشارع، وأثر يسلمه لمبنى يسلمه لمنعطف رآه
في الحلم، حتى المقاهي لم يستغرب أجواءها فقد رآها من قبل في

حلمه المكثف هذا. هذا الحلم الذي ولد وهو في الثامنة من عمره، أي مضى عليه أكثر من ثلاثين عاما، تغيرت فيها الإسكندرية كثيرا، وعندما سألني عن شكل الإسكندرية في هذا الوقت منذ ثلاثين عاما، أخذت أصف له، كان يصدق على كل كلمة أقولها. قضى أياما سعيدة في الإسكندرية، شبهها بمدينته سان بطرسبرج، من ناحية الهواء الذي يتحرك بين جنباتها وفي ممراتها، تشعر بأنه هواء عالمي، ليس له جنسية محددة.

اتفقت مع بي كاي على أن نجهز حفل وداع صغير لجيرمان قبل عودته لسان بطرسبرج. لم يكن هناك إلا ثلاثتنا. وهو رقم صغير على احتفال وداع. عندما عرضت الأمر على جيرمان أحس بالحرج وقال لا داعي، ولكني أصررت، فهو تقليد جميل، أتمنى لو يستمر من بعدنا. مجموعات تأتي ومجموعات تخرج، وكل مجموعة لها توقيتات مختلفة، هذا التداخل في التوقيتات، سمح بتداخل الذكريات، هناك من يحمل ذكريات عن مجموعة سابقة، وهذه المجموعة السابقة بها من حمل ذكريات عن مجموعة أسبق، وهكذا تظل سلسلة من الذكريات تتداول وتتوالد من بعضها عن كتَّاب مروا بالمكان. هذا التداخل يحافظ على استمرار بذرة قديمة داخل الأرض الجديدة. أصبحت الآن الأقدم، وهو إحساس يشعرني أحيانا بأني أصبحت في المقدمة، غير محمي بوجود أقدم مني، وأنني على وشك أن أغادر، ليس فقط المكان، ولكن الحياة نفسها.

لم يكن هناك ما سنقدمه على العشاء سوى ما تحتويه ثلاجاتنا من طعام، فاليوم يوم أحد، وليس هناك محلات مفتوحة في يوم العطلة.

يوم الجمعة الماضي، المخصص للشراء، اعتذرت زيليكا عن مهمة الذهاب إلى السوبر ماركت في المدينة المجاورة بسبب مرض ابنتها. جهزت أصابع سوسيس للحم ديك رومي كنت أحتفظ بها، مع شطائر كانيلوني محشوة باللحم المفروم. وهي التي استغرقت أغلب الوقت في تجهيزها. أما يي كاي فقد جهز خضارا مسلوقا، عبارة عن قرنبيط وجزر، وأتى بحساء شوربة باللحم. جلسنا في شقتي لأن الجو بالخارج كان ممطرا. كانت جلسة ودية للغاية، امتن لها جيرمان، بالرغم من أنه لم يأكل شيئا، لأنه أصبح نباتيا منذ عدة أيام، هكذا قرر وسط موجات اكتئابه أن يترك اللحم. عندما سألته عن السبب، قال إنه في صغره كان نباتيا، وفكر منذ عدة أيام بأن يستعيد رشاقة وخفة الملاكم القديم، فقد وصل وزنه إلى مائة كيلو جرام.

الحساء الذي صنعه يي كاي كان شهيا للغاية. يي كاي شخص مهذب جدًّا، كل يوم أكتشف فيه شيئا جديدا، ودود ينتظر من الآخر دائمًا أن يبدأ بالحديث، لا يريد أن يفرض كلامه أو أفكاره على أحد، ربما هو إحساس مواطن نشأ وسط مليار ونصف المليار من المواطنين الأغيار. عندما يتحدث أحدنا، ينصت له باهتمام كامل، شابكا ذراعيه، ربما ليقدم هذا الدليل الإضافي على الاهتمام. في تلك الليلة تحدث جيرمان بشكل غير مباشر عن بيلا روسيا وديكتاتوريتها الفظة، ربما ليمحو من أذهاننا وقائع تلك الليلة التي كنا نودع فيها ألجريد. وربما أيضًا ليمحو انطباعنا عن مواطنه الذي ينتمي معه إلى «أمة» واحدة لها اسمان. دار الحديث عن الديكتاتوريات في العالم كله، وعن غلاء المعيشة في سان بطرسبرج وشنغهاي ومصر، ربما

كانت أحاديث عامة ومجردة، ولكنها تسرق الوقت، وتسمح بأن يتحدث كل منا ويشارك في عرض تاريخ بلاده. وفي نهاية السهرة سلم جيرمان على كل منا بحرارة ولكن بدون تقبيل، كأنه سفير يؤدي مراسم استقبال. في اليوم التالي لسفره، وجدت في بريدي الإلكتروني رسالة شكر منه على تلك الصحبة الحانية.

استمر المطر في الهطول بدون انقطاع طوال يومين بعد سفر جيرمان، كأنه يودع رمز المطر في لقاءاتنا. قبلها كان يهطل على فترات، كأنه أيضًا مبرمج بمواعيد. كنت أشعر بالملل من انتظاري في البيت، فأخرج للحديقة وأذهب للشجرة لأقطف منها حبات الكرز. في إحدى المرات وجدت بي كاي على أحد فروعها العالية، يأكل باستمتاع وسط هذه الزخات المتواصلة من المطر. ضحك عندما رآني، وتمنيت له وجبة ممتعة.

للحظات كنت أسأل نفسي أين أنا؟ وما هي هذه الحياة؟ وما هي هذه المشاهد المتتالية التي تتحرك أمام عيني كشريط سينما، من الذي يشاهدها، أنا أم شخص آخر؟ نفس الشعور كان ينتابني عندما أعبر بالحقول أو الغابات حول البيت. لقد خلق هذا المكان مني شخصا آخر منغمسا في كل شيء، وفي كل تفاصيل الحياة التي تدور حوله. عندما أرى ريناتا جارتنا، بجسمها الضخم، وهي تعبر الفناء الداخلي، أكون على وشك أن أدعوها لفنجان قهوة لنجلس ونتحدث عن دفء حياتنا الخاصة. لقد نشأت رابطة بيني وبينها من بعيد، ربما هي لا تهتم بهذا، فهناك كثيرون من الكتَّاب الذين يمرون عليها، ولكن لو سألت كل كاتب على حدة وفتحت عقله وذكرياته، لوجدت ريناتا جالسة هناك تحتسي القهوة ويصاحبها صوت صرير الباب الصغير،

لتلك الغرفة الخارجية التي تقبع بها الغسالة والديب فريزر الضخم وأدوات التنظيف؛ والذي أصبح مصاحبا لدخولها النُّزل لتسحب المكنسة أو تشغل الغسالة. سأحلم بهذا المكان وهذا البيت كثيرا في قادم الأيام، وربما لن أرى تفاصيل ملامح هذا الشخص الآخر الذي يعيش معي، إلا بعد أن أترك هذا المكان، عندها سأترك هذا الشخص هنا ليكمل حياته، أما أنا فلي حياة أخرى.

أصبحت أحن لشمس ساطعة، وأفكار دافئة. أتحرك بين زوايا البيت كقطة تتمسح وتتشمم كل يوم حدود ملكيتها، غير مصدقة. تدخل لحظات تحضير الشاي أو القهوة أو الطعام ضمن نسيج هذا التمسُّح بعناصر ملكيتك. الكسل أيضًا والانتظار أمام فكرة أو شعور مؤرق بداخلي، كلها تستغرق أوقاتا أطول بكثير، ولكني أترك الوقت يتمدد، حتى يجيء الليل، وأخلع نظارة القراءة وأصعد السلم الخشبي، الذي يزيِّق دائمًا، كأن أحدا يصعد معي، للطابق الثاني استعدادا للنوم.

الأفكار تأتيني كأنها صدى لأفكار قديمة، ليس بيني وبينها هذا العهد القديم، من الألم أو التألم، أو حتى النشوة الغامرة، أو مشاعر الذنب. الأفكار تأتي من سماء مفتوحة. اليوم يمر بهدوء، ربما لا تتخلله أشياء كثيرة، ولكني أشعر بأن هذه الأشياء القليلة التي أقوم بها كافية لتشعرني بالسعادة، لأنها حدود عالمي.

أقوم لغسل ماكينة القهوة. أفصل كل جزء منها على حدة، بعناية فائقة أقوم بتنظيفها، ثم أعيد تركيبها، وأنا واثق بأن هذه النظافة ستجعل للقهوة مذاقا أحلى من كل المرات السابقة. كمن يبري بمطواة كبيرة قطعة خشب صغيرة ليحولها إلى سهم مدبب. أستمتع بتفصيص هذه

الماكينة لأنها أحد عناصر عالمي الصغير. أيضًا أقوم بغسل فناجين القهوة، وأقوم بتنظيفها وتجفيفها جيدا، حتى لا أرى أي بصمة على زجاجها، من أي أثر سابق لي. أمسح، أمحو، أضيف، ألمِّع، أسمع صوت بخار ماكينة القهوة وهو يتصاعد ويتسرسب السائل من ثقبين صغيرين في أعلى هذا العمود المخروطي المعدني الصغير داخل الماكينة. تكون الرائحة قد سبقتني إليها، فأهب وسط تدفق الأفكار وأنا منكب على شاشة اللابتوب، لألحق بهذا البخار المتصاعد قبل أن يتسرب في الهواء. هذه خطوات حياتي ويومي، صوت أو رائحة أو مذاق، كل خطوة وحركة يجب أن أحافظ على حيويتها، ومتعتها. ربما لأنها قليلة. حتى الدجاجات الثلاث اللاتي يقتربن من باب شقتي وينثرن طين حوض الزرع على سجادة الموكيت أمام باب شقتي؛ أصبحت معتادا على هذا الفعل. وعندما أعود من الخارج كمن ينتظر رسالة من جار تحت عتبة الدخول، أنتظر هذا الطين المنثور، الذي يحثن تحته عن إحدى ديدان الأرض التي تسعى في الظلام، أو عن بعض حبات متناثرة هنا وهناك. هذا التراب المنثور أمام عتبة بيتي هو رحلة بحث لحياة أخرى، من أجل البقاء.

أشعر بالتعب من الكرسي الدوار الذي أجلس عليه لساعات، أقوم لأتمشى في الصالة، أصعد للدور الثاني، أدخل الحمام لأبول، يوميا يتكرر عدد مرات دخول الحمام للتبول. التكرار متعة الطفولة. تشبه تمامًا مرات صنع القهوة. أذهب للمطبخ أخرج علبة الجبن من الثلاجة، أسخن التوست في التوستر. أسمع صوت قذف شرائح التوست لأعلى. التقطها بإبهامي وسبابتي. أقطع شرائح الجبن وأصفها

فوق شريحة التوست، وأرفعها لفمي وآكلها من تحت كأني أخشى أن تنسكب. أخرج علبة العصير، أفتح زجاجة بيرة، أطارد الذباب الثقيل، ألف سيجارة في ماكينة السجائر. أنثر بها جزءا من هدية زوفنكو من الحشيش الصربي ذي الأصول العثمانية. كل الأشياء هنا يدوية، أفكاري وأدواتي، لها علاقة بحركة الجسم. أشعر بها وأشمها وألمسها كثيرا، كأني أتعرف على حياة لشخص آخر، أصبحت هي حياتي.

٣٧

بعد سفر جيرمان بأسبوع تقريبا، وبينما كنت منهمكا في الكتابة، تسللت إلى أنفي في غرفة المكتب رائحة شيء يحترق. كانت الساعة حوالي الثانية عشرة ليلا، ذهبت للمطبخ الذي يشغل جانبا من صالة البيت. وجدت إحدى الأواني، التي كان بها بقية زيت قلي استخدمته في الصباح، تتصاعد منها النيران لنصف متر فوقها. يبدو أني نسيت عين البوتجاز الكهربائي العتيق مشتعلة. كانت هذه العين عبارة عن حديد معتم لا يعطي إشارة بأنه مشتعل. لا أعرف ماذا حدث بالضبط، وكيف وضعت بيدي آنية الزيت على العين المشتعلة، وبخاصة أنني لم أستعمل آنية الزيت إلا في الصباح الباكر لقلي عجينة الفلافل التي اشتريتها من المحل التركي منذ أسبوع؟

بدون أي تفكير دفعني شيء قوي، ربما هو الآخر الذي بداخلي؛ لأن أمسك بهذه الآنية المعدنية، وبعمود النار الذي تحمله، بيدي اليمنى وأضعها داخل الحوض وأفتح عليها الماء. وهنا كانت الكارثة، سمعت صوت فرقعة قوية، ولم أشعر إلا والنار تقذف بي بعيدا بقوة خلخلة الهواء، كأنها تهاجمني، وربما أيضًا لتزيحني بعيدا عن مرمى نيرانها، كما فعلت مع النبي إبراهيم. ألجمتني الخضة، بينما ستارة شباك المطبخ تذوب تمامًا في النيران وتعطي وهجا أبيض لاحتراقها. لم أشعر بالألم في الوقت نفسه، بعدها بدقائق، نظرت

لبدي اليمنى، تقشرت مساحات منها، سارعت بوضع زيت الزيتون عليها، ولكن مع الوقت بدأت أشعر بحرقان شديد.

اتصلت بالإسعاف ليلا، بعد حوالي ثلث الساعة سمعت سارينة الإسعاف والشرطة معا. ذهبت مسرعا لإستديو بي كاي، الذي كانت زوجته قد حضرت بالأمس هي وابنته، خبطت عدة مرات على بابه، ثم ناديت. وجدته أمامي، شرحت له ما حدث وطلبت منه أن يكون معي. صعدت لعربة الإسعاف. أجرى لي الطبيب الشاب الإسعافات الأولية، بعد أن سألني عما حدث بالضبط، من قياس للضغط، لوضع محلول، لتطهير سريع لمكان الحرق. ثم أجرى مجموعة من الاتصالات التي توصل من خلالها إلى أقرب مستشفى من هذه النقطة التي نقف فيها ومتخصصة في حروق اليد. وقع الاختيار على إحدى المستشفيات التي تبعد حوالي نصف ساعة عن القرية. لم أكن أفكر أثناء نقلي في عربة الإسعاف إلا في زوجتي، كيف أنقل لها هذا الخبر، وكيف ستتلقاه.

في المستشفى سأقضي ثلاثة أسابيع ممتعة.

أدخلوني ليلا الغرفة بعد مكوثي لبعض الوقت في الاستقبال. ظل بي كاي معي يحاول أن يقويني ويبتسم في وجهي حتى لا أشعر بالجزع. في الاستقبال قام الطبيب بتصفية كل الجيوب والبالونات المائية التي ظهرت على يدي. كان يتعامل معي بوجه يكسوه حياد تام جارح كأنه يفرغ الجيوب المائية من إحدى البالونات المطاطية. كان هناك ثلاثة أسرَّة في الغرفة التي تم نقلي إليها، كان نصيبي هو السرير الفارغ في نهاية الغرفة بجانب النافذة التي تطل على إحدى الغابات، وبجوار منضدة صغيرة تحت النافذة مباشرة. طلبت من بي كاي قبل

انصرافه في الفجر أن يكلم زيجرون مسئولة المنحة صباحا، ويخبرها بما حدث لتقوم بدورها بإخبار زوجتي.

لمحت صاحب السرير الأول الملاصق للباب يبتسم لي أثناء دخولي. يبدو أنه كان في إحدى نوبات أرقه. لم أنم. كان الشخير في الغرفة على أشده من صاحب السرير الثاني المجاور لي، قام في الفجر لدخول الحمام، ربما لم يرني ولم يعرف التطورات التي حدثت أثناء شخيره. نظر لي وسلم عليّ كأنه يعرفني. رأيت يده المعصوبة على ضوء النور الآتي من الحدائق المحيطة بنا.

في الصباح استيقظت على يد الممرضة، ذات الأصول الآسيوية، وهي توقظني لكي تقيس الحرارة، بواسطة ترمومتر اليكتروني تضعه في أذني. أصبح هناك روتين يومي.. بعد قياس الحرارة يتم غسيل وتطهير الغرفة، ثم يأتي الإفطار قبل مرور طاقم الأطباء في السابعة والنصف تقريبا، بعدها كنت أقفز إلى الخارج حيث حديقة المستشفى الواسعة، وغرفة التدخين الزجاجية التي تقع على جانبها الأيسر، لأقابل زملائي المدخنين ونتبادل دخان الانتظار والقلق والشفاء، فيما بيننا. منهم من كان يسير ويهبط السلالم وهو يدفع أمامه أجهزة كاملة ترى من خلالها الدم وهو يسير بينما السيجارة في يده، كأنك في أحد الأفلام السوريالية، التي لا تظهر سورياليتها إلا في الأماكن التي تقع بين الحياة والموت كالمستشفيات. من يدخن شخص آخر له قلب غير القلب الذي يظهر دمه في خراطيم هذه الأجهزة المعقدة التي تشبه الإنسان الآلي القديم في أول مراحل تصنيعه.

كان صاحب سرير الشخير أحد عمال رصف الطرق. سحق

البلدوز طرف إصبعه الوسطى، وبدأ الصديد يتسلل لهذا الإصبع الذي لم يبادر بعلاجه. فاستأصلوا له عقلة، ولكن الصديد لم يتوقف، وكان في انتظار نتيجة العملية لاستئصال العقلة الثانية حتى لا يتمدد الصديد ويأكل اليد كلها. كان ينام طوال الوقت، ليلا ونهارا، يشخر ويحلم بصوت عال، ولكن له حاسة ذئب عندما يأتون بوجبة الطعام، عندها يستعيد كامل نشاطه ويدخل للأكل بشهية متيقظة تمامًا. هذا النوم الدائم كان يعبر عن تسديد دين قديم للتعب. كان يتحدث معي بالألمانية، وهو على ثقة تامة بأني أفهم ما يقول. أحيانا كان يصدق حدسه. كنا نشترك أنا وهو في استنشاق هواء الصباح الجديد مع دخان السيجارة الأولى الرائقة في حديقة المستشفى. ضحكنا عليه كثيرا، أنا وتوماس، صاحب السرير الأول، بسبب نومه المتواصل، ولكنه لم يبدِ أي غضب تجاهنا، كأنه غير مهتم بكل هذا، وله ما يشغله من هموم وصراعات يواجهها فقط أثناء النوم. قبل خروجه أهداني ولاعته الفضية المرسوم عليها ورقة شجرة الماريجوانا في كلا وجهيها. صباح خروجه من المستشفى لم يأت أحد لاصطحابه، شعرت بالحزن لأجله، وأوصلناه، أنا وتوماس، لباب المستشفى الخارجي، كأننا نشيعه إلى المقابر، أو إلى فرحه، مع حقيبة صغيرة مهترئة كان يضع بها بعض أغراضه القليلة التي أتى بها.

توماس، صاحب السرير الأول، في منتصف الأربعينيات، كان هناك خراج في باطن يده بسبب مسمار. احتاج لجراحة حساسة وخمس غرز خياطة. يعمل مندوب مبيعات للحاصلات الزراعية، وزار مدنا إفريقية كثيرة ليسوِّق مبيعات شركته. كان له زوجة جميلة تزوره كل يوم، وولدان أحدهما في سن المراهقة. إحدى مشكلات

توماس في حياته هذا الابن المراهق، بجانب مشكلة أخرى هي عدم قدرته على التأقلم واختراق حياة الاتراك الصلبة الذين أصبحوا يشاركونه هو وعائلته وأولاده حياته سواء في السكن، المدرسة، الهواء، الشركة، كما أخبرني. حاول مرارا أن يقترب من تلك العائلات التركية وأولياء أمور زملاء أولاده في المدرسة، ولكن كل مبادراته فشلت، وخرج بنتيجة أنه من الصعب دخول هذا الجيتو الصلب. لمحت في كلامه عن الأتراك غيرة ما، يريد أن يكسر غلاف الجوزة هذا، ليرى ماذا يحدث بالداخل. ولكنه أيضًا تكلم عن الأتراك كجنسية وليس كديانة، لذا لم يضعني معهم في سلة هذا التساؤل الغامض أو الإدانة المستبطنة لسلوكهم. كان سعيدا للغاية بحواره معي طوال فترة إقامته في المستشفى، كان يجلس معي بجوار سريري على تلك المنضدة البيضاء بجوار النافذة الزجاجية المفتوحة على الغابات والملصق عليها بعض الطيور السوداء. أسدى لي توماس، هو وزوجته، كثير من الخدمات بعد خروجي، وكان يطمئن على سير العملية التي سأجريها أولا بأول، ثم زارني بعد خروجي في البيت.

قرر الطبيب بعد كشفه على يدي حاجتي لعملية ترقيع، فقد كان الحرق من الدرجة الثانية ويجب الإسراع بالعملية، حتى لا يحدث صديد. اتصلت زوجتي بي في ظهيرة اليوم التالي، حاولت أن أخفف عنها وقع ما حدث. التقطت في البداية نبرة صوتي وهي صامتة، كفعل النظر في عيني في حياتنا العادية لتلحظ من خلاله أي تغير حدث، في غيابها، وحجمه. لم يكن إلا أن أشرح لها كل التفاصيل بدون أي حذف. ولكن حذفت الجزء الخاص بالعملية

وأخبرتها بأنه سيتم العلاج بدون إجراء عملية. ولكنها أصرت على أن تراني، فطلبت من بي كاي بأن يأتي لي باللابتوب الخاص من شقتي، وتحدثنا على الإسكايب، ورفعت أمامها يدى المعصوبة، وصحبتها معي في غرفة التدخين الزجاجية، وعرفتها أيضًا على توماس وزوجته وصاحب سرير الشخير. طبعا فكرتُ في أن تأتي لي، وتناقشت مع مسئولة المنحة في ذلك، وكانت مرحبة، ولكني استبعدتُ هذه الفكرة لصعوبة الحصول على تأشيرة خلال هذه الأسابيع القليلة.

لم يفارقني «بي كاي» طوال فترة إقامتي في المستشفى، كان يجهز لرحلة إلى «براج» مع زوجته وابنته، أجَّلها إلى ما بعد خروجي. في إحدى المرات اصطحب زوجته وابنته لزيارتي. أثناء جلوسنا في الحديقة أثناء إحدى وصلات التدخين، صنعت ابنته ثلاثة مراكب ورقية احتفظت بها، ووضعتها أمامي على الإفريز الرخامي للنافذة الزجاجية التي تطل على الغابة.

٣٨

استيقظت في اليوم الثاني لدخولي المستشفى، وجدت أنكا تنظر لي وأنا نائم. كانت المفاجأة أنها تعمل في قسم العلاج الطبيعي في هذه المستشفى في جناح مستقل يقع داخل حرم المستشفى ولكنه يبعد عدة دقائق. تحول هذا الجناح إلى استراحة لامتصاص القلق مع الغرفة الزجاجية للتدخين. كانت متحفظة قليلا، ولكن هذا التحفظ لم يمنع أبدا أن تضع ورودها على إفريز النافذة التي بجواري وتمضي. لم أنتظر كثيرا من هذا الزيارة، فالمرتين اللتين التقينا فيهما كنت مدفوعا من الخلف ومن أعماق أعماقي بألم يفوق طاقتي، فكنت أنتظر من أي شيء، حتى ولو كان عمود نور، أن ينحني من عليائه ويطبطب عليّ. لم أنتظر منها الكثير اليوم، فقد كان الألم الجسدي يطبطب عليّ.

كل يوم كنت أمد جذوري في المستشفى، ويزداد عدد مرات صعودي وهبوطي السلالم الرخامية من الطابق الثاني للحديقة، أو نزولي في الأسانسير ثم دخولي في مروحة الباب الدوار للمستشفى وأنا أحمل كوب القهوة؛ ومتجها لغرفة التدخين بالحديقة. تكونت لديّ العديد من الصداقات في غرفة التدخين الزجاجية أو على مقاعد الحديقة، أو في قسم العلاج الطبيعي الخاص بأنكا.

بعد العملية مباشرة ووضع يدي في ضمادات بيضاء غارقة في

الفازلين، قال لي الجراح الذي أجرى العملية «يجب أن تتحدث مع يدك كثيرا». كنت منوما وفي أولى لحظات الإفاقة من البنج، تلك اللحظات التي تُنحت فيها الكلمات والأحاسيس في الهواء الطلق للذاكرة. في البداية بدأت أشعر بأن هذه اليد المعصوبة كشخص آخر يجب أن أبدأ صداقته من أول وجديد. أعضاؤنا غالبا تكون منسية ومنكِرة لنفسها أمامنا، لا نتذكرها، ككيان خاص، إلا في لحظة الألم. بدأت بالفعل أمارس حديثي معها، أنظر إليها كثيرا، وأحيانا أضع كف يدي اليسرى فوق ضماداتها البيضاء بحنو، وأبدأ في الطبطبة عليها كأنني أهدهد طفلا قبل النوم. وأحيانا كنت أطلب من أنكا أن تقوم بالحديث إليها بدلا مني.

في سورة يس الآية ٦٥: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.. دائمًا ما يعبر على ذاكرتي هذا المشهد، وأتساءل هل ستشهد يدي عليّ؟ هل ستكون ضدي؟ لا أتخيل أن هذه اليد ستنقلب عليّ وتعلن استقلالها في تلك اللحظة الحرجة التي أحتاج فيها للتضامن بين كل الأعضاء والجوارح أمام المصير القادم. بهذا المعنى هل كنت أربي جاسوسا، وظيفته فقط أن يشهد عليّ أمام الله الذي يعرف كل شيء عني. في بداية احترافي للكتابة كتبت قصة قصيرة تعبر عن حلم أرى فيه قدمي تسيران وحدهما على ضفة أخرى داخل هذا الحلم. بالتأكيد كنت أحلم بالسفر والانعتاق اللذين يتخذان من القدمين وسيلة لتحقيقهما. أما اليد فلم تكن لها أي رمزية في كتابتي أكثر من كونها ممرا للخيال، أو المكان الذي سأضع به باقة مقلوبة من الزهور وأخبئها خلف ظهري لأفاجئ بها هذا العزيز القادم.

أنكا أيضًا كان لها نفس رأي الجراح، بأن أكلم يدي كثيرا، وكانت يدها أحد الحوارات الطويلة التي أشعرتني بيدي وأعادت علاقتي بها. أثناء تدريبات العلاج الطبيعي كانت تنسى يدي في يدها لفترة طويلة، وأحيانا تتعمد أن تخلع الجوانتي المطاطي، لتلمس الجرح مباشرة. شكرا يا أنكا، يدي وكتابتي مدينان لك، لقد تعلمت منكِ الكثير.

لم تشأ أن تودعني قبل مغادرتي المستشفى، ذهبت في عطلة صيفية طويلة خارج المدينة. وربما اختارت متعمدة أن تكون في عطلة أثناء خروجي من المستشفي ومغادرتي ألمانيا، لتمنع نفسها من أي وداع قد يجر وراءه حزنا أو دموعا لامكان لهما في المستقبل.

العودة

كانت المراكب الورقية الثلاثة التي صنعتها ابنة «يي كاي» تمثل بالنسبة لي رمزا للشفاء، تركتها سابحة في ماء المطر المنهمر وراء النافذة، بينما الطيور السوداء الملتصقة بالزجاج تفرد جناحيها في وضع أبدي وخالد للطيران.

تلك المراكب الثلاثة كانت تبحر في مياه المستقبل الذي لم أره بعد. حملتها معي داخل حقيبة ملابسي أثناء خروجي من المستشفى، وأيضا عند عودتي إلى مصر.


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

أشباح بيت هاينريش بُل

" أصبحت لي ذاكرة كلبية تتشمم رداء الأشباح في كل مامر بي من صور وأحاديث. وتذكرت عندما كانت زوجتي تتحدث معي في الإسكايب. كانت العدسة التي تراني فيها تكشف تلك المساحة التي تظهر ورائي، عندما أنظر لعينيها، كنت ألحظ سرحانها الدائم في نقطة خلفي لا أراها. بالتأكيد لم تكن تنظر لي، ولكن لنقطة أبعد، بانحراف عن بؤبؤ عيني. ولم أشأ أن أسألها عن تكرار سرحانها أمام عدسة الإسكايب، ويبدو أنها هي الأخرى قد آثرت بألا تزعجني بأمر هذه الكائنات اللامرئية، فليس هناك مكان محدد يمكن أن تذهب إليه لتزورها، ربما في تلافيف الذاكرة والعقل البشريين."

تدور أحداث رواية "أشباح بيت هاينريش بُل" في قرية ألمانية صغيرة، إثر مغادرة الراوي مصر، بعد ثورة يناير ٢٠١١؛ ليقضي عدة شهور في إقامة أدبية مليئة بالمفاجآت والتساؤلات، في بيت تحوطه الغابات، مع مجموعة من الكتّاب من جنسيات مختلفة. كل منهم يحمل أيضا آثار ثورة مرت ببلده أو بذاكرته، وأشباحا أطلقتها هذه الثورات.. ظلت تطاردهم لزمن طويل.



علاء خالد: من مواليد الإسكندرية. منذ صدور ديوانه الأول، في بداية التسعينيات، عُدَّ أحد الأسماء الأساسية في تاريخ قصيدة النثر في جيلي الثمانينيات والتسعينيات. وهو المشرف العام وأحد مؤسسي مجلة "أمكنة" التي تعنى بثقافة المكان. صدرت له دواوين شعرية، وكتب نثرية. وصدرت له عن دار الشروق روايته الأولى بعنوان" ألم خفيف كريشة طائر تتنقل بهدوء من مكان لآخر" عام ٢٠٠٩، وكتاب "وجوه سكندرية" عام ٢٠١٢، وكتاب أدب رحلات " أكتب إليك من بلد بعيد " عام ٢٠١٦.





دار الشروق
www.shorouk.com